نوال السعداوي



الثورات العربية

بقلم د. نوال السعداوي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نوال السعداوي

و

الثورات العربية

بقلم د. نوال السعداوي



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٣

ISBN: 978–9953–88–766–1

تدقيق لغوي: وفيق زيتون

تصميم الغلاف: داني عوّاد

الإخراج الفني: فدوى قطيش

صورة الغلاف: المصري اليوم،

www.almasryalyoum.com

المحتويات

مقدمة الناشر

ثورة قبل الثورة

لا تحتاج نوال السعداوي إلى تعريف، فمؤلفاتها التي ربت على الأربعين، ما بين رواية وقصة قصيرة ومسرحية، بالإضافة إلى دراسات علمية وفكرية في الأدب والسياسة وعلم النفس والأخلاق والدين وتحرير المرأة والرجل، والتي تُرجمت إلى أكثر من خمس وثلاثين لغة، هي بطاقة تعريفها ومفتاح شخصيتها.

أثارت الكاتبة جدلاً كبيراً بين الأدباء والفلاسفة والمفكرين بسبب مواقفها الجريئة وأفكارها الداعية إلى التمرد ورفض القيم الموروثة، والثورة على الظلم والاستبداد، فطاردتها الحكومات المصرية المتعاقبة ومنعت كتبها وصادرتها، وفصلتها من العمل في وزارة الصحة، وشطبت اسمها من قائمة الأدباء والمفكرين، ثم رمتها بتهمة ازدراء الأديان، ووصل الأمر إلى رفع قضية «حسبة» ضدها لتفريقها عن زوجها وسحب الجنسية منها وإدراج اسمها على «لائحة الموت» من قِبَل الإسلاميين المتطرفين.

كان كتاب «المرأة والجنس» هو الصاعق الذي فجّر المعركة عام ١٩٦٨، فأصدرت السلطة حكماً بإعدام الكتاب وجمعه من المكتبات والأسواق. وأعلنت

وزارة الصحة ونقابة الأطباء ومشيخة الأزهر أنه كتاب ضد الدين والدولة. لكن الكتاب بقي حياً تتناقله الأيدي وتقرأه الأجيال المصرية والعربية المتعاقبة، جيلاً بعد جيل.

لم يثنها ذلك عن مواصلة الثورة، بل وتصعيدها، فطرحت في كتبها اللاحقة القضايا الأكثر إثارة للجدل، وبخاصة في كتاب «سقوط الإمام» ومسرحية «الإله يقدم استقالته في مؤتمر القمة».

على الصعيد السياسي دعت السعداوي إلى تغيير فلسفة الحكم ليكون جماعياً لا هرمياً، وإلغاء قانون الحصانة ليكون كل مسؤول خاضعاً للرقابة والمحاسبة، وإلغاء جميع المواد التي تفرّق بين المواطنين على أساس الجنس أو النوع أو الدين أو الطبقة، من الدستور، وبالأخص إلغاء المادة الثانية التي تنص على أن دين الدولة هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع.

وعلى الصعيد الديني ثارت على التجارة بالدين والوقوف عند القشور مثل الحجاب(*) والختان واعتبرت أن الحجاب عادة جاهلية وأن بعض أركان الحج من بقايا الوثنية، وأن الشريعة من صنع البشر ويجب ألا تتعارض مع جوهر العقيدة. كما طالبت بفصل الدين عن الدولة، وحذّرت من الغرق في بحر من الدماء إن لم يتم ذلك.

وعلى الصعيد الاجتماعي ثارت على الوضع المزري للمرأة المصرية، وعلى الجور الذي تُساق به الفتاة بالقوة إلى عريس بعمر أبيها أو جدها، واعتبرت أن الشرف لا علاقة له بالعذرية. كما ثارت على مبدأ تعدّد الزوجات وعلى قانون الزواج الذي يسمح للرجل بالتنقّل من فراش امرأة إلى فراش أخرى تحت رخصة التعدّد،

(*) ومن اللافت إعلان الأزهر صراحة «أن الحجاب ليس من الدين في شيء ومنحه درجة الدكتوراه بدرجة امتياز في الشريعة والقانون للشيخ مصطفى محمد راشد عن رسالته التي يقول فيها إن الحجاب ليس فريضة إسلامية» (صحيفة آلان، ٢٠١٢/٩/٢٨).

وصوّرت حالة الزوجات المقهورات بسبب الحرية الجنسية للرجال، باسم الشريعة، ودعت إلى المساواة بين المرأة والرجل، وإلى تخليص المجتمع من قهر السلطة الذكورية وقوى الجهل والظلام.

وعلى الصعيد التعليمي اعتبرت أن عجز الشعوب عن تغيير أسس الحكم القائمة على الظلم والقهر إنما يعود إلى المشكلة الكامنة في التعليم الأساسي في البيوت والمدارس، حيث تتم السيطرة على العقول بمنعها من التفكير النقدي، وحيث يُربّى الأولاد على أن الطاعة فضيلة والجدل رذيلة. وطرحت رؤية للنهوض بالعقل المصري من خلال التعليم القائم على مفهوم العدالة والمساواة بين المواطنين، وتشجيع التلامذة على النقد الموضوعي.

شابة ثمانينية في ميدان التحرير

في عام ١٩٤٦، كانت نوال السعداوي تلميذة في الخامسة عشرة من عمرها عندما شاركت في تظاهرة تهتف بسقوط الإنجليز والملك، وإلغاء معاهدة صدقي – بيفن التي تستبيح بموجبها إنكلترا الأراضي المصرية. وبعد ست وستين سنة أصبحت تخرج في مسيرات مليونية مشاركة شباب مصر وشاباتها في الثورة.

نوال التي دعت طوال ثمانين عاماً من مسيرتها إلى الثورة على كل أشكال الحكم، سواء كان ملكياً أو تحت ستار جمهوري، والتي بشّرت بانتصار الشعب وإن طال الانتظار، انقلبت في ميدان التحرير بالقاهرة إلى شابة مفعمة بالحيوية والنشاط تهتف مع الثوار «الشعب يريد إسقاط النظام»، وتشعر بأن حلم حياتها في تغيير مصر والعالم على وشك أن يتحقّق.

كانت تمشي في الميدان، يحيط بها الشباب والشابات، فتذوب في الكتلة البشرية المتلاحمة، وفي كل حركة تكتسب قوة جديدة. وكانت تجلس في الليل والبرد تحت خيمة، فتدفأ بمشاعر وهمة الذين يجالسونها ويطلبونها من خيمة إلى خيمة، فتحاور

الجميع من اليمين واليسار والوسط، وحتى الإخوان المسلمين. وعندما كانت تسمع أنين الجرحى وتشاهد العيون والرؤوس المربوطة بالشاش كانت ذاكرتها تسترجع حياتها الطبية في قصر العيني والمستشفيات الأخرى، وفي الأغوار بالأردن حيث ذهبت متطوعةً لمعالجة الفدائيين الفلسطينيين.

لقد شاركت الثوار والثائرات في ميدان التحرير همومهم ورؤاهم. كانت تجلس معهم على الأرض، وتأكل وتشرب معهم، وتقف بينهم في طابور طويل أمام دورة المياه في مسجد عمر مكرم دون تأفّف أو امتعاض.

وتفاخر بأنها عندما كانت تدخل الميدان من أحد المنافذ، كان شباب الثورة وشاباتها يبتسمون لها ويرحّبون بها. وعندما كانت تغادر كان الشباب يرافقونها مشياً على الأقدام. وتروي أنها ذات مرة أوصلها أحد الشباب إلى بيتها على موتوسيكل، فجلست خلفه، وجلس خلفها شاب آخر ليحميها من السقوط. فعادت إلى بيتها وكأنها مراهقة في الخامسة عشرة، مثلما كانت في أول تظاهرة شاركت بها عام ١٩٤٦.

الثورة والإبداع

نوال السعداوي، هل هي ثائرة أم مبدعة؟ لندع الجواب لها: «إن العمل الثوري كالعمل الإبداعي لا يفكر في العواقب».

هذا هو لب القضية التي عملت لها طوال حياتها. القيام بما هو مطلوب وواجب دون التفكير في العواقب. وهذا هو الإنسان المبدع الذي لا يعرف الممالأة ولا المراوغة ولا السير بمحاذاة الحائط توخّياً للسلامة والغنيمة. بل يجابه بالصدر العاري، ويقف في مواجهة الريح وإنْ كانت عاتية.

تروي الكاتبة بأنها كتبت مرةً في المدرسة قصة خيالية بعنوان «مذكرات طفلة اسمها سعاد» فعاقبها المدرّس بوضع علامة صفر، وبرفع تقرير للإدارة يتهم فيه

خيالها بالجنون والكفر والشطط والتطرف. وهي الكلمات الأربع التي تصف بها الحكومات العربية أي خيال إبداعي يثور ضد الظلم والقهر.

وبعد أن كبرت، درست تاريخ الأديان فاكتشفت أن الكنيسة في أوروبا العصور الوسطى حرّمت الكتابة على النساء. ودرست الطب النفسي فأدركت العلاقة بين شجاعة الإبداع وكسر الخوف من الموت. وقد أمضت بعض سني حياتها في تدريس العلاقة بين الإبداع والتمرد والثورة، وكيف أن الخوف يؤدي إلى الكبت الفكري النقدي، وكيف يؤدي الكبت إلى كتمان الرغبة في الإبداع والتمرّد على السلطة الظالمة والثورة عليها.

هذه الثائرة المبدعة تقول إن الإبداع الفكري ينتمي إلى المعارضة في كل زمان ومكان، وإن الإنسان هو أحد اثنين: واحد يخضع ويطيع ويستسلم، والثاني يعارض ويتمرّد ويثور.

إن «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر» تفخر بأن تقف الكاتبة الكبيرة نوال السعداوي على أرضها، داعيةً ثوار مصر إلى إكمال المسيرة دون خوف، فالثورة لم تكتمل بسقوط رأس النظام، والطريق طويل وشاق. فلتحرير مصر لا بد من سلوك الطريق الوعر، فلا خيار. وحتى لا تفشل الثورة تقول نوال السعداوي: يا شباب مصر، ويا شابات مصر، حذارِ من أن تُسرق الثورة، حذار.

الناشر



كي لا تُسرق الثورة

خطاب رئيس الدولة الجديد وإثارة الجدل

الخطاب الأول الذي ألقاه الرئيس المصري الجديد (د. محمد مرسي) ينم عن التفكير اليقيني الخاص بالمدرسين الدينيين، على الرغم من أنه قدم استقالته من جماعة الإخوان المسلمين والحزب التابع لها. لكن الاستقالة الحزبية أو السياسية لا تعني الاستقالة الفكرية، أو التخلي عن تحيزه للقرآن والشرع الإسلامي كما يفهمه حزب الجماعة. لغة الخطاب دينية إسلامية، لم يرد فيها كلمة المواطنة، التي تعني عدم التفرقة الدينية والجنسية. قال: أهلي وعشيرتي، وتعني ارتفاع قرابة الدم وصلات الرحم على المواطنة و القانون والدستور. وقال: إخواني، كأنما المجتمع كله ذكور وليس نصفه نساء.

يدعم كلامه بالآيات القرآنية لماذا؟ هل يدعم الدستور بالقرآن؟ يقتبس من خطبة لأبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين؟ لماذا؟ ألم يختلف الزمان والمكان؟ كلمة «الله» كررها أربعاً وثلاثين مرة في خطابه. لماذا؟

هل أراد مخاطبة المشاعر وليس العقول؟

عبارة جاءت في الخطاب عن الحفاظ على حقوق المرأة والأقباط والأسرة والطفل والفقراء والمهمّشين وسائقي التوك توك، ولم يذكر شيئاً عن الاقتصاد أو العدالة الاجتماعية، أو المساواة بين النساء والرجال في الدولة والأسرة.

لم يشمل الخطاب كلمة عن التعليم أو الثقافة أو حرية البحث العلمي والإبداع الفكري والفني. هل هي أمور هامشية؟ أليست ضرورية لتحقيق مبادئ الثورة: الحرية والعدل والكرامة؟

مشاكل مصر، أو أي بلد، لا يحلها الفرد وإن كان طرزان. لا أؤمن بالزعيم الأوحد أو المهدي المنتظر. لقد قمنا كشعب، نساءً ورجالاً، بثورة عظيمة منذ يناير/كانون الثاني ٢٠١١ وأسقطنا رأس النظام السابق، إلا أن جسد النظام لا يزال قائماً في كل مؤسسات الدولة والبيت والجامع والكنيسة والمدرسة.

إن تخلفنا كبلاد عربية، ومنها مصر، يرجع إلى أننا توقفنا منذ قرون عن إنتاج المعرفة والعلم والإبداع، وأصبحنا مستهلكين لما ينتجه الآخرون. لم نكن أبداً مشاركين في إنتاج المعرفة الجديدة في العالم، والعلم الحديث. وقد لعب الاستعمار الخارجي مع الاستبداد الداخلي دوراً رئيسياً في تخلفنا وفي تجميد الفكر.

هناك أسباب في كل المجالات تعوق تقدمنا، أهمها في رأيي هو المجال الفكري، المتعلق بالعقل والتعليم والمعرفة والإبداع.

في الانتخابات الرئاسية في مصر عام ٢٠٠٥، رشّحت اسمي ضد حسني مبارك. كان البند الأول في برنامجي هو تغيير نظام التعليم العقيم الذي يخضع العقل المصري للاستبداد والعبودية تحت اسم فضيلة الطاعة.

لم يكن عندنا انتخابات ديموقراطية، بل انتخابات صورية لينجح الرئيس بأغلبية مطلقة. رفضت أن ألعب دور الكومبارس وأشارك في لعبة لإثبات ديموقراطية مزيفة، وأعلنت انسحابي من الانتخابات وأصدرت بياناً بكل هذه الأسباب.

لا أظن أن الانتخابات أصبحت متعددة أو ديموقراطية، فالانتخابات تعكس عقلية الفرد والمجتمع، والديموقراطية تبدأ في البيت والمدرسة وليست مجرد قرار سياسي. لا تزال القيم في بلادنا دكتاتورية أحادية لا تؤمن بالتعددية أو الاختلاف، كما أن التعليم في بلادنا يقوم على السمع والطاعة واليقين والتخويف من الاختلاف.

تصوّرت في طفولتي أن زميلتي القبطية ستُحرق في نار جهنم لأنها ليست مثلي مسلمة. أمي قالت لي: ليس هناك نار. كسرت أمي حاجز الخوف في عقلي، ولعبت دوراً في تغيير نظرتي للعالم كله وليس لزميلتي القبطية فحسب.

لم يعد العالم في نظري هو مصر أو الإسلام فقط، بل أصبح بلاداً عديدة متعددة الهويات والأديان والعقائد والألوان. اكتشفت أنني أيضاً، كفرد، متعددة الهويات والأديان والألوان. دمائي مختلطة وليست إسلامية فقط، ولا مصرية فقط، ولا عربية فقط، بل مزيج من الدماء المتجددة المتنوعة عبر السنين والقرون والأجداد والجدات.

وهذا ينطبق على كل الناس. لا توجد هوية نقية إلا في الفكر العنصري الذي يؤمن بنقاء الدم، ولا توجد حضارة نقية. كل الحضارات مختلطة، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

التعليم في مدارسنا قائم على النصوص اليقينية، يؤدي إلى التعصّب لعلاقات الدم والقبيلة، ولا يؤدي إلى فتح الأفق على معارف مختلفة متعددة. ويؤثر سلباً في سلوك المجتمع والفرد، وتعاملهما مع المعرفة الإبداعية في العلوم والفنون والعلاقات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

البناء العام للعقل في بلادنا يستند إلى التلقين والحفظ والتبعية الفكرية، في العلوم والآداب والفنون، وفي التعليم الديني، الذي يقوم النصوص النهائية غير القابلة للنقاش، ويؤدي إلى الحد من حرية التفكير العلمي أو الفني أو الإبداعي، والحد أيضاً من حرية السلوك والتصرف في مواجهة المشاكل التي تواجه الفرد أو المجتمع.

إن حرية التفكير والسلوك والعمل الإبداعي العلمي والاجتماعي هي التي تقود إلى شخصيات متطورة أخلاقياً وإنسانياً، وبالتالي إلى مجتمعات أفضل وأرقى.

هذه بديهيات وقواعد منطقية يمكن للأطفال إدراكها إن ارتكز التعليم على قوانين علمية قابلة للنقد والنقاش، وليس على نصوص مقدسة دينية أو غير دينية تُحفظ عن ظهر قلب.

لهذا أعتقد أن خطاب الرئيس المصري الجديد لم يختلف عن الخطابات السابقة في العهود الدكتاتورية.

إن الشك هو أساس الجدل والتفكير الحر. وإن لم يمتلك الإنسان المصري والعربي شجاعة الشك منذ الطفولة، وبالتالي القدرة على الجدل والنقاش، فلن تتقدم بلادنا، ولن نشارك في إبداع العلم والفكر الجديد.

يسود بلادنا الفكر اليقيني الذي يكره الشك أو الجدل، ويوصف المفكرون المبدعون، النساء والرجال، بالكفر، أو على الأقل، بإثارة الجدل. وكم تطاردني هذه التهمة. يقولون عني: مثيرة للجدل، كأنما الجدل عورة يجب حجبها.

وكلمات الثورة يسرقونها أيضاً

نشهد اليوم كوارث لعبة السياسة، يلعبها جميع الخيول فى الحلبة من مختلف الأطياف، لا يخجلون من الاعتراف بأنها لعبة تحكمها المصالح.

لم يخجلوا من التهليل للمجلس العسكري والمجلس الاستشاري والمجلس الإخواني، ثم الانقلاب على أنفسهم، والاعتراف بأن العسكري كان خدعة، والاستشاري كان خدعة، والبرلماني والإخواني والسلفي كانوا خدعة، وعرس الديمقراطية خدعة، ولجنة الدستور خدعة.

وننتظرهم ليعلنوا، بعد فوات الأوان، أن الانتخابات الرئاسية كانت خدعة.

إذا انخدع أقطاب السياسة، وفقهاء القانون، ومن يسمونهم الشخصيات العامة، فماذا عن الشعب الذي لم يتعلم، أو تلقى تعليماً أشد تجهيلاً من الجهل؟

أحد أقطاب النظام السابق، من المتنافسين في الانتخابات الرئاسية، الذى شارك ويشارك فى إجهاض الثورة مع المجلس العسكري والمجالس الأخرى المولودة منه، يعلن أنه لا يسعى إلى منصب الرئيس، بل إنه يحب مصر ويريد إنقاذ الثورة.

هذه هي السياسة كما يفهمونها، «فن الممكن». فكرة خادعة، تهبط بالسياسة إلى ما يُسمى «مستنقع البراجماتية النفعية»، تسلب من الشعوب قوتها الثورية،

فالثورة تقوم على «فن المستحيل». الثورة لا تختلف عن الجنون إلا أنها عاقلة، وعقلها مبدع متمرد، يكسر قوقعة العقل الخانع المطيع.

سياسة الممكن ترضى بالمكاسب السريعة، مثل كرسي الرئاسة، كرسي البرلمان، كرسي المجلس الاستشاري، كرسي الجمعية التأسيسية للدستور، كرسي في الحزب، أي كرسي.

يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة. لكل منهم وجهان، وجه يتملّق الثورة، ووجه آخر يتفاوض «سراً» مع السلطة الحاكمة في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

الثورة لا تعرف هذه الألعاب السياسية. الثورة هي التمسك بالمبادئ على حساب المصالح، تحدي السلطة الفاسدة ودفع الثمن، هي كسر المحظورات والمحرمات واختراق الخطوط الحمراء المفروضة بقوة السلاح والتخويف والتخوين والتربية والتعليم.

تحت اسم الحكمة والاتزان والاستقرار والأدب والطاعة والفضيلة، استطاع الملوك والأباطرة والرؤساء أن يحكمونا بالحديد والنار. تحوّلنا إلى عبيد وجوارٍ وإماء وأجراء. أصبح الإبداع جريمة، والثورة هي الشطط والتطرف والفوضى والتبعية للغرب والإباحية وعدم احترام كبير العائلة أو رأس الدولة.

أصبح رئيس الدولة هو رب العائلة، له السلطة المطلقة، يستمد قدسيته من رب السماء، ويحق له قتل معارضيه بتهمة الكفر والخيانة الوطنية.

تختلف درجة العقاب بحسب قوة الأحزاب الدينية في البلد. في الغرب انكمشت قوة الكنيسة منذ عصر النهضة، لكن الأحزاب الدينية المسيحية واليهودية تملك الأموال والشركات والنفوذ السياسي الديني في كثير من البلاد حتى اليوم.

تم إجهاض معظم الثورات الشعبية في التاريخ، ولم يتخلص العالم من ديكتاتورية النظم الطبقية الأبوية الدينية حتى اليوم.

لم يتخلص العالم من الحروب والاستعمار الخارجي والداخلي. لا يختلف باراك أوباما عن كارتر وكلينتون وبوش إلا في التفاصيل، كذلك لا تختلف جولدا مائير عن بن جوريون ونتنياهو، وهل يختلف الخديوي والسلطان والملك عن السادات ومبارك وسرور والكتاتني والمشير وشرف والجنزوري؟

قاد آية الله الخميني بلاده بعد الثورة إلى الحكم الديكتاتوري الديني، الذي لا يقل طغياناً ودمويةً وفساداً عن حكم الشاه الأمبراطور.

الاستعمار الأوروبي الأمريكي أدرك بالخبرة دور التدين السياسي في إجهاض الثورات الشعبية التي تنشد العدالة والمساواة بين الناس، دون تفرقة على أساس الدين أو الجنس أو الطبقة.

تعاون جورج بوش مع أسامة بن لادن و«طالبان» في إجهاض الثورة الاشتراكية في أفغانستان، ثم انقلب عليهم، بعد أن استغنى عنهم، فضربوه.

تعاون السادات في مصر مع التيارات الإسلامية ضد الحركات الناصرية والاشتراكية، ثم انقلب عليهم، فاغتالوه.

الثورة تقوم على الشجاعة والصدق. الثوار والثائرات يخرجون بعد الثورة مقتولين، مسحولين، عرايا ممزقي الملابس. لا يفوز واحد منهم بمقعد في أي مجلس، وإن فاز فسرعان ما يفقده بتهمة ملفقة.

العمل الثوري مثل العمل الإبداعي لا يفكر في العواقب، لهذا لم ينل مبدع أو مبدعة أي منصب أو جائزة دولة.

الثوار والثائرات ماتوا في السجون والمنافي، شربوا السم أو انتحروا، أو تم إعدامهم أو إقصاؤهم، من سقراط إلى جاليليو إلى أبي العلاء المعري إلى جان دارك إلى فرجينيا وولف ومي زيادة ودرية شفيق وأروى صالح، وغيرهم.

ثوار وثائرات كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير ٢٠١١، اتهموا بأنهم عملاء للغرب أو خونة للوطن، وتم إيداعهم السجون، ونالوا التعذيب البدني والنفسي.

يطالب بعضهم بالانسحاب من الانتخابات الرئاسية، التى جرى طبخها وراء الأبواب المغلقة، لكن رجال السياسة المتمرسين على اللعبة، يقبلون بالحلول الوسطى، وما يسمونه الأمر الواقع، ويروجون لبعض المرشحين تحت اسم أنهم محسوبون على الثورة، أو تحت اسم التجربة، «قد نكسب أو على الأقل لن نخسر شيئا».

منطق المكسب والخسارة أدى إلى تقسيم قوى الثورة، وإلى كارثة الانتخابات البرلمانية، وكارثة الجمعية التأسيسية للدستور، التي يهرول للترشح لها زعماء فن الممكن والبراجماتية، كما يهرولون إلى الانتخابات الرئاسية، التي تجمع أقطاب النظام السابق وأقطاب النظام الحالي في سلّة واحدة، كلهم ينفقون الملايين من الأموال فى الدعاية الانتخابية، من أجل حبهم لمصر والخدمة العامة، وليس خدمة لمصالحهم الخاصة.

كلهم حاربوا النظام السابق، وكلهم مع إنقاذ الثورة المجيدة. لا يسرقون دم الثوار فحسب، بل كلماتهم الثورية أيضاً.

يوم محاكمة مبارك

في الفراش أرقد مفتوحة العينين والدنيا ظلام، في ليلة حارة مشبعة بالرطوبة والتراب، أحاول في العتمة أن أحدد أين أكون.

ذكريات حزينة متراكمة.

منذ زمن مجهول، مع ومضات فرح طفولي غامض ليس له سبب، يدي النائمة تبحث عن اللمبة. الكهرباء مقطوعة، ووسائل الرؤية اللامرئية عبر القمر الصناعى تم قطعها أيضاً، بأمر فخامة الرئيس الأعلى محمد حسني مبارك.

صدر قراره العسكري المقدس في الخفاء، وتعاونت معه السماء، فاختفى القمر الطبيعي والنجوم تحت السحابة السوداء، لها لون الرصاص المتجمد، أو القطران السائل (الزفت باللغة العامية). يسيح الزفت مع الإسفلت في الشوارع تحت لهيب الشمس، يخلطونه بالصلصة المستوردة في علب الطعام. منذ الرئيس محمد أنور السادات، يُسمي حاكم مصر نفسه باسم محمد، ليصبح النبي الكريم أو الإله المعصوم فوق القانون، ويُسمي نفسه أيضاً الأب الكبير للعائلة المقدسة.

جرس يلهث في أذني برنين خافت، يدي نصف نائمة لا تصل إلى التلفون فوق الكوميدينو بجوار السرير.

ضوء معتم يتسلّل من شقوق القبة السماوية، يطل من بينها رأس عجل، يحمل في عصر رمسيس الأكبر اسم «أبيس»، الإله المعبود. له عين واحدة مفتوحة دون جفون أو رموش، ساهرة على الشعب لا تنام.

فتحت جفوني بذعر حيوان ضربوه في الظهر. بلولة لها رائحة دمي تغرقني وقميص نومي وملاءة سريري. الفرق بين جفوني المغلقة وجفوني المفتوحة يتلاشى، ومعه عبء الخوف الطفولي من الجحيم بعد الموت، والرغبة المزمنة منذ حواء في تذوق اللذة المحرمة.

* * *

أفقت من غيبوبة النوم على صوت صديقتي عبر التلفون «المحاكمة يا نوال. افتحي التلفزيون».

التلفزيون معطل منذ عصر الانفتاح، مركون في غرفة الفئران، يصطاد التراب والعناكب. حاولت إصلاحه في عصر الديموقراطية دون جدوى. ضمير الطبقة العاملة أصبح ميتاً مثل ضمير الطبقة الحاكمة. يأتي العامل إلى بيتي حاملاً لقب باشمهندس وحقيبةً أمريكية تلمع كالشمع، يطلب ضعف الأجر ثلاث مرات لإجراء الإصلاحات. بأصابع سحرية، تدب الحياة في الجهاز الميت. وما أن يختفي حامل الحقيبة واللقب البراق حتى يعود الجهاز إلى الموت.

ساورني إحساس بأنني السبب وراء فساد الجهاز والمكان والزمان. منذ الولادة أتصور أنني السبب وراء أي خطأ في الكون أو في النظام الحاكم. قطعوا بالسكين عضواً من جسدي في الطفولة، تصورت أنها خطيئتى. الإثم المكتوب في اللوح المحفوظ، فعلته في حياتي أو خارج حياتي بيدي أو بيد القدر.

كنت أعلق أخطائي كلها على القدر، بصفته الأقوى مني ومن كل البشر. تسرب إلى جسدي وعي طفولي مجهول المصدر، أنني جئت إلى الدنيا في الزمن الخطأ

والمكان الخطأ. كان المكان يحمل اسم الوطن المقدس، وكان الزمان مقدساً أكثر يحمل اسم الله، وخطيئتي الكبرى أن لا شيء كان يبدو مقدساً لعين الطفلة. تدربت على التكفير عن خطيئتى بالامتناع عن الأكل والشرب والجنس، أو أي لذة ينتشي لها جسدي أو عقلي. أما لذة الروح فكانت مباحة باسم «السعادة» (وليس اللذة). السعادة شعور خارج الجسد والعقل والمكان والزمان، أي إنها غير موجودة بالمعنى الأدق.

حين أفقت من بقايا النوم اكتشفت أنني بلغت من العمر ثمانين عاماً. دُهشت كثيراً ثم بدأت الدهشة تتلاشى بالتدريج مثل كل دهشة أخرى في حياتي. تدربت على فقدان الدهشة في طفولتي خوفاً من فقدان عضو الشرف، وكانت جدتي التركية المصرية تسمع الراديو مذ كان عمري ثلاثة أعوام (الراديو كان أكبر مني بعامين)، وتردد ما يقوله الراديو. تغني معه: «ملك البلاد يا زين، يا فاروق يا نور العين». تنقل جدتي (عن الراديو) كل ما يقول: الله سبحانه فضّل الرجال على النساء، لذلك خلق في جسد البنات عضواً للشرف، أما الرجال فقد خلقهم الله بلا عضوٍ للشرف.

يدور في عقلي سؤال بديهي: إذا كان الله يفضل الرجال على البنات فكيف يحرمهم من العضو الشريف؟

قبل أن أصحو تماماً جاءني صوتها في التلفون. صديقتي «يسرية» منذ المدرسة الابتدائية، هي الوحيدة الباقية على قيد الحياة من زميلات الطفولة.

متوسط العمر في الوطن يقل عن عمري وعمرها عشرين عاماً.

* * *

«محاكمة مبارك يا نوال. افتحي التلفزيون».

الأربعاء ٣ آب/أغسطس التاسعة صباحاً. أيقظني صوتها من النوم. فتحت التلفزيون، وكنت أعرف أنه معطل بقوة ما، لكنه يعود فجأة إلى الحياة بقوة أخرى.

يسير تلفزيون الدولة بقوة سماوية أعلى، وتمتلىء الشاشة بالأضواء والضجيج والتراب. وجوه كثيرة لا وجوه لها، أبحث عن وجه الإله الأوحد. هل يمكن محاكمته؟ مبارك؟ في ميدان التحرير خلال الأيام الأولى للثورة (من ٢٥ كانون الثاني/يناير حتى ١١ شباط/فبراير)، امتلأ الجميع بالشك، «هل يتنحّى مبارك؟ هل يمكن للإله أن يقدم استقالته؟».

منذ خمسة أعوام (في صيف ٢٠٠٦) نشرت مسرحية بعنوان « الإله يقدم استقالته في اجتماع القمة»، ودفعت من أجلها ثلاثة أعوام بائسة في المنفى، وخمسة وأربعين عاماً من زواج أكثر بؤساً، وقضية في المحكمة ملفقة لسحب الجنسية المصرية مني. أثبت المحامي، لحسن حظي، أن الإله في المسرحية ليس هو فخامة الرئيس مبارك، وصدر قرار المحكمة ببراءتي بعد عامين في مايو/أيار ٢٠٠٨.

أبحث من بين القضبان عن وجه فخامته، لكنه يتخفّى مثل الآلهة وراء سحابة بيضاء أو عمود من الدخان. لا يتبدى الإله للعين البشرية. تتطلب هيبة الفرعون أن يكون روحاً يعلو فوق الجسد والعقل والحواس الخمس، لكن السحابة تتحرك قليلاً لتكشف نصف عين مبحلقة مهددة، أو نصف أنف مقوّس مقدّس، أو شفته السفلى المملوءة بنعيم الدنيا يمطها في ازدراء للدنيا. ابتسامة ساخرة تفلت من زاوية عينه، كالروح القدس تحوم حول منخريه المتسعين دهشة. مندهش لكل شيء وغير مندهش على الإطلاق، التناقض الطبيعي للآلهة فوق المحاسبة.

لم تكن في عينه نظرة متهم بقتل الآلاف، ونهب البلايين، وتجويع نصف الشعب وإرهاب النصف الآخر. بل هي عين الإله الساهرة لا تنام، صاحب الخير والشر، يحيي ويميت، يعطي من يشاء من عباده ويحرم من يشاء، من نِعم الدنيا والآخرة.

مؤلف رواية المحاكمة أرقده على سرير المرض. أدخله إلى القفص وأخرجه على نقالة، لكن نظراته تفضح الخداع المسرحي، نظراته فرعونية تحكم علينا بالموت إن خرج ببراءة. قفص ذهبي يملك مفتاحه، «سرقوا الصندوق يا محمد لكن مفتاحه

معايا»، كأنما نحن المشاهدين المحكوم عليهم داخل القفص، نحن المحبوسين أمام الجهاز العتيق المدرب على التلفيق، نشهد المحاكمة كما نشهد تمثيلية رمضانية مكتوبة دون عناية، لمجرد التسلية في شهر الصيام. ظهرت الدموع في مآقي الشعب الوفي الأمين، يدين بالولاء والطاعة لصاحب الأمر والنهي. هتف صوت من الجماهير « الله معك»، وهتفت حشود مستوردة من السلفيين «عفا الله عما سلف».

تعمّد المؤلف وجود كتاب الله في المحكمة، يغفر الله الذنوب جميعاً إلا الشرك به. كان فخامته مؤمناً موحداً بالله، يصوم ويصلي في الجامع يوم الجمعة وراء الشيخ الأكبر، مثل الرئيس المؤمن السادات، والملك الصالح فاروق الأول، خليفة المسلمين، الذي غنت له أم كلثوم وعبد الوهاب، ورفعه الكتّاب العظام في جريدة الأهرام إلى مصاف الآلهة، حتى سقط في ثورة ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢ فأنزلوه أرضاً إلى مصاف الشياطين. فعلوا الشيء نفسه مع عبد الناصر والسادات، ومبارك أيضاً. تملّقوه وحصلوا على جائزة مبارك الكبرى في عيد الأدب والإبداع. وبعد ثورة ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١١ هبطوا به من بطل النصر العظيم في حرب أكتوبر المجيدة إلى الدكتاتور سارق أموال الشعب، مقنّن الفساد وقاتل المتظاهرين.

* * *

صديقتي تحسب عمري وعمرها باليوم والساعة وأحياناً بالدقيقة. قد تهتف في نشوة وهي ترشف النبيذ المعتق: «هذه اللحظة اللذيذة تساوي الثمانين عاماً من حياتنا يا نونا». تناديني نونا، حين تشرب النبيذ، كما سمعت أمي تناديني. وفي غير ذلك تمط شفتيها باسمي واسم جدي «السعداوي» الذي مات قبل أن أولد. ورثت اسمه دون إرادتي كما ورثت عجيزتي الثقيلة الموروثة عن الأسلاف.

صديقتي كعادتها منذ الطفولة تنقل في الكون فيروس المرح والبهجة. يتلاشى الورم في صدري ويتضخم في الليل، ومع التقدم في العمر يصبح الليل طويلاً واللذة بعيدة كالنجوم. يمر من تحت الوسادة شريط حياتي، صوت أجش يشبه صوت إبليس

يؤنبني: «أردتِ تغيير نظام الكون؟ فقدتِ عمرك في الكتابة؟ خرجتِ من بطن أمك عجوزاً تضحي بلذة الجسد من أجل سعادة العقل؟ أي وهم؟».

تسمعني صديقتي فترن ضحكتها المرحة وتقول: «نحن عشنا ضعف ما هو مكتوب لنا ولأمهاتنا، أمك وأمي. ماتت الاثنتان في الشباب بتخمة الجنس ودستة عيال. ماتت الاثنتان أصغر مني ومنك بنصف قرن وعامين وعشرين دقيقة. انتصرنا أنا وأنت على الموت أكثر من أربعين عاماً وخمسة أيام. تفوّقنا بعشرين عاماً ونصف العام على متوسط العمر في مسقط رأسنا. ألا تفرحين يا نوال؟».

يغلبني الضحك فرحاً بما كسبت من العمر. صديقتي لا تنطق منذ طفولتها كلمة «الوطن»، تسميه «مسقط الرأس»، وتشرح لي الفرق بين الكلمتين: «يسقط الرأس في مكان لا نختاره لكننا نختار الوطن، وأين الوطن يا صديقتي؟ لا وطن للنساء من ذوات العقل». وقالت صديقتي قبل أن تغلق التلفون: «حياة المرأة منا تبدأ بعد الثمانين وأربعين دقيقة. الليلة نحتفل بعيد ميلادك. عندي لك قصة حب جديدة».

كنت أعيش في شقة صغيرة من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام. تطل البلكونة على نهر النيل، وتدخلها الشمس من كل النوافذ. تصبح الشمس نعمة في الشتاء ونقمة في الصيف، خاصة في شهر آب/أغسطس. أقع دائماً في الحب في شهر آب/أغسطس، لأكتشف في شهر تشرين الأول/أكتوبر أنه لم يكن حباً. الحر الشديد فقط يلهب مؤخرتي في الصيف وأنا جالسة أكتب. أصابتني الكتابة بالشيخوخة منذ الطفولة وتقوّست عظام الظهر. أنهض لأتمشى على الشاطىء تحت الشجر. يكون الحب ممكناً مع نسمات النيل الرقيقة، وينتشي جسدي وأقع في الحب دون وعي. الحب يقع علينا تلقائياً كضربة القدر، ثم يتلاشى تلقائياً بضربة أشد. كم كاتبة انتحرت في موسم الربيع؟ في الخريف أيضاً تنتحر الكاتبات. تنتهي الحياة سريعاً مثل الحلم. يأتي الشتاء، إنه الفصل المفضّل عندي. تقول صديقتي إنني امرأة شتوية، كأنما ولدت فوق قمة جبل ثلجي من أب غير حقيقي. هل الأب الحقيقي مجهول في الشمال مثل الجنوب؟

كلما جاء الشتاء ينتابني جوع غامض لشيء مجهول. غرفة كبيرة خاوية داخل شغاف القلب تحت ضلوعي تمتلىء فجأة بالدم. برودة الهواء تلامس سخونة دمي في نعومة المعطف الصوفي الثمين الذي يحوطني، ونار المدفأة اللذيذة وقزقزة الفستق وأبو فروة مع رشفات النبيذ المعتق. لا يحن للحب في الشتاء إلا من يملكون البيوت المحكمة النوافذ والمعاطف الوثيرة من الصوف الثمين، والأشجار يقطعون منها فحم المدافىء، وحمامات البخار، (الساونا) وجلسات التدليك، ثم المشي على الشاطىء تحت رذاذ المطر.

انتهى الفصل الأول من محاكمة مبارك في عز القيظ، ولم يعد أحد ينتظر الفصل الثاني من شدة الغيظ. الرواية غير المتقنة أدبياً يعرف القراء نهايتها منذ البداية. قالت صديقتي: «أيرسمون لإخراجه بريئاً كالشعرة من العجين؟ أو براءة الذئب من دم الحمل الوديع؟». قلت لها: يا صديقتي، إذا قام الحكم في العالم على القوة وليس العدل فلا بد أن يطغى القانون الطبيعي على الحق، ولا بد أن تكون العدالة عمياء، معصوبة العينين، معطوبة الضمير.

لم أكن متشائمة منذ الطفولة، ففي قمة اليأس تضيء فيّ ومضات تفاؤل طفولي مجهول المصدر. قلت لصديقتي بحماس الطفلة في العاشرة «الثورة ستنتصر برغم أنف القوى العظمى، في السماء وراء البحار وداخل مسقط الرأس. سوف تنتصر قوة الملايين المتحدة المنظمة كما انتصرت من قبل في ميدان التحرير. وهل تصوّر أحد أن الإله يتنحّى أو يستقيل؟».

المجلس العسكري يخدع الشعب

تحاول شمس القاهرة شق الغيوم، سحابة رمادية تغطي المدينة من فوق السحابة السوداء. أشعر بحزن غامض غائر في الأعماق. منذ متى زحف الحزن إلى جسدي وروحي؟ منذ الطفولة، قبل أن أنطق اللغة وأعرف الألم، قبل أن أشهد الظلم في البيت والشارع والمدرسة وفي كل مكان، قبل أن أحلم بالثورة أو أدرك سراديب السلطة والدولة والعائلة والعمدة والملك والإنجليز والأمريكان.

بعد يومين اثنين يواصل المجلس العسكري خداع الشعب، يقيم الاحتفالات بعيد الثورة في ٢٥ كانون الثاني/يناير، ويضرب الثوار والثائرات ويسحلهم ويسجنهم ويلوّث سمعتهم، ويتجاهل حقوق الآلاف من الشباب والشابات الذين قُتِلوا برصاص الشرطة والجيش، والذين فقدوا عيونهم وأرجلهم وأذرعهم وقلوبهم وأكبادهم. قبل سقوط مبارك وبعده كم من الآلاف قُتِلوا وسُحِلوا وأُلقيت جثثهم في القمامة أو دفُنِت سراً تحت الأرض في الصحراء؟ وتواصل المحكمة الهزلية الاستماع إلى المحامي فريد الديب، يدافع عن مبارك وأولاده.

تحوّل القاتل إلى بطل وطني وتحوّل الثوار إلى خونة وبلطجية، وتحوّلت الشابات الثائرات إلى عاهرات يرتدين العباءات على اللحم دون أزرار، وتحوّل هتك الكرامة والعرض إلى مجرد خدش الحياء.

يخاطب القاضي المحامي عن القتلة بأدب جم وصوت منخفض، ويزعق في أمهات القتلى وآبائهم ومحاميهم.

لم أعرف قضاءً عادلاً منذ ولدت حتى اليوم. لا يمكن لامرأة فقيرة أن تحصل على حقها، ولا يمكن لفلاحٍ أو عامل أن يسترد ثمن عرقه.

تخضع العدالة للمال والقوة وليس للعدل والحق.

يحاولون تبرئة مبارك وإيداع الثوّار السجون.

أعلن البنك المركزي في جريدة الأهرام في ٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠١٢ أن هناك في خزينة البنك لحساب الدولة مبلغ ٩,٢ مليارات دولار أمريكي، لها قصة عجيبة لم تُكشف إلا الأمس بعد الثورة بعام كامل.

جاءت هذه الأموال من خمس دول نفطية بعد حرب الخليج عام ١٩٩٠، مكافأةً لمصر على دخولها الحرب ضد العراق تحت سيطرة الجيش الأمريكي.

واعتبر مبارك هذه الأموال ملكاً له شخصياً وليس للدولة، وأصدر تعليماته للبنك بعدم صرف أي مبلغ منها إلا بتوقيعٍ منه.

بعد سقوط مبارك في ١١ شباط/فبراير ٢٠١١ بيوم واحد أي في ١٢ فبراير/شباط أصدر البنك المركزي قراره بإلغاء صلاحية مبارك في الصرف وأن تصبح هذه الصلاحية للمجلس العسكري الذي تولى الحكم من بعده.

من الغريب أن هذه المليارات التسعة من الدولارات الأمريكية كانت مخفية في عصر مبارك وظلت مخفية لمدة عام كامل بعد الثورة. لماذا لم يعلن عنها المجلس العسكري؟ لماذا لم تدخل في الرصيد الاحتياطي للدولة؟ لماذا لم تُستخدم لحل مشكلة مصر الاقتصادية الملحّة، بدلاً من تسوّل المعونة الأمريكية بشروط قاسية وإراقة ماء الوجه، وبدلاً من اقتراض ثلاثة مليارات دولار من صندوق النقد الدولي بشروطٍ تضر مصالح الشعب المصري وتضرب التنمية الاقتصادية في مصر؟

الفساد لا يزال مستشرياً تحت حكم المجلس العسكري، والقهر والظلم والكذب والخداع، في محاولة لإجهاض الثورة بكل الوسائل، ومنها القول بأن أبطال وبطلات للثورة لم يدفعوا ثمن الثورة من دمائهم، لم يصابوا بخدش واحد أو تُمس شعرة في رؤوسهم. بل كسبوا الكثير من الثورة، وظهروا في الإعلام بوجوه لامعة نضرة وشعور مسبسبة وملابس أنيقة. قد يُقبض على أحدهم أو إحداهن بشكل مسرحي رخيص مثلما حصل في محاكمات مبارك والقتلة؛ لم يفقد أحدهم عيناً، لم تسقط لإحداهن شعرة من رأسها ولم تتهدّل ياقة معطفها الصوفي الغالي. يخرجون بعد محاكمة مضحكة إلى الشاشات والفضائيات، ويصبحون أبطال الثورة وبطلاتها في التاريخ الرسمي للحكومة والمعارضة واليسار واليمين والإسلاميين والمسيحيين والليبراليين ورجال ونساء الأعمال.

أين أبطال الثورة الحقيقيون وأين البطلات الحقيقيات؟

ليس لهم شلّة ولا حزب ولا محامٍ يدافع عنهم، وليس لهم صلة بقناة فضائية أو عضو في المجلس العسكري أو المجلس الاستشاري أو مجلس الشعب أو الشورى أو حزب الإخوان المسلمين أو تحالف الشيوعيين أو الليبراليين أو غيرهم.

لن يظهر أبطال الثورة إلا حين تنتصر الثورة وتحكم نفسها بنفسها، حين يسقط برلمان الثورة المزيف، ويكتب الثوار الحقيقيون الدستور الجديد.

هذه الانتخابات التي تم تزويرها تحت اسم العرس الانتخابي، فكسبت الأصوات فيها أحزاب دينية غير قانونية، تلقت مليارات الدولارات والدينارات من بلاد النفط الواقعة تحت سيطرة أمريكا وإسرائيل.

الكل يعرف أنها انتخابات باطلة قانوناً، ومع ذلك لا أحد يريد إلغاءها، لأن المليارات دُفعت فيها ولا يمكن إنفاق كل هذه الأموال «على الفاضي».

الشخصيات المزيفة ركبت الثورة وكوّنت أحزابها وداست على الدماء وصعدت إلى الحكم والبرلمان والمجالس العليا في البلد، وتسترّت على جرائم المجلس

العسكري والمليارات المنهوبة والخفية التي يملكها العسكر والطبقة الحاكمة السابقة والحالية.

كثيرٌ من الرجال والنساء كانوا فاعلين قبل الثورة وبعدها ، لعبوا دوراً ريادياً في التمهيد للثورة، ونشروا كتباً ومقالات تنتقد النظام، ونزلوا إلى الشوارع والميادين مع الملايين من الشعب الثائر. هؤلاء تم إبعادهم (كما كانوا مبعدين تحت الحكم السابق) عن الساحة السياسية والإعلامية والثقافية، ليحل محلهم انتهازيون سريعو الهرولة إلى أي حكم جديد.

الذين سارعوا إلى الالتفاف حول البرادعي وهرولوا إلى المطار لاستقباله، هم أنفسهم الذين سرعان ما تخلوا عنه بل هاجموه.

قالوا عنه كذباً أنه الأب الروحي للثورة ، وأنه هو الذي فجّر الثورة وقادها! هل يمكن لفرد واحد أن يفجّر ثورة؟ هو الذي عاش غالبية عمره خارج مصر، كيف هبط فجأة بالطائرة ليفجر الثورة؟ كيف قاد ثورة ضد النظام المستبد الفاشي فلم يمس النظام شعرةً من رأسه؟ لماذا لم يقتله النظام كما قتل آلاف الثائرين؟

هل دفع البرادعي شيئاً من حياته وأمانه من أجل الثورة؟ يقول بعض الناس إنه أفضل من عمرو موسى، لكن من قال إن عمرو موسى رجل ثوري أو له علاقة بالثورة؟

تختلف أهداف الثورة عن أهداف عمرو موسى والبرادعي ومن حولهما من الليبراليين والإخوان المسلمين وقيادات الأحزاب والكتل والتحالفات، المقربين إلى المجلس العسكري والاستشاري ودوائر السلطة العليا على اختلافها من أهل السياسة والدين.

عندما تحديت مبارك وأعلنت ترشيح اسمي ضده في انتخابات الرئاسة ٢٠٠٥، طاردني البوليس حتى قريتي كفر طحلة بمحافظة القليوبية. وطارد البوليس الشباب، والرجال، والنساء من أهل قريتي، الذين جمعوا أموالهم الخاصة لعقد مؤتمر سياسي فكري بالقرية أتحدث فيه عن برنامجي الانتخابي.

هددهم البوليس بالسجن والضرب والتشريد، فأعلنت عن انسحابي من لعبة

الديموقراطية المزيفة. كان مبارك يريد انتخابات مزورة زائفة تحت اسم تعدد أسماء المرشحين للرئاسة. وكانت الحقيقة تؤكد أنه الوحيد المرشح وأن بقية المرشحين شخصيات تابعة له تلعب دور المعارضة.

كان مبارك يمشي على خطى ديموقراطية السادات الزائفة، التي تسمح بالمعارضة والتعددية الحزبية في الحدود المرسومة لها بالسلطة الحاكمة، على غرار الديموقراطية الأمريكية الشكلية القائمة على المال والإعلام والسوق والرأسمالية الأبوية.

أين قوة اليسار الاشتراكي في مصر؟ تحول الكثير من الماركسيين القدامى إلى رجال ونساء أعمال، يتنافسون في الانتخابات والبيع والشراء والتصدير والاستيراد والبورصة والسفر إلى بلاد النفط في التبادلات التجارية والثقافية والفنية.

لم يبقَ على مبادئه إلا القلة القليلة وأغلبهم ماتوا أو لزموا البيوت بحكم الشيخوخة أو المرض. بعضهم لم يخن العهد مع الوطن، لكنه خان العهد مع زوجته أو أبنائه وبناته، وهرب في الظلام مع عشيقة صغيرة فقيرة، يدعمها اقتصادياً وتدعمه جنسياً ونفسياً، أو تعيد إليه الشباب أو الوهم.

لا يختلف الرجال من اليسار أو اليمين في الاتجار بالمبادىء في سوق السياسة أو الدين.

التيارات الدينية، الإخوان المسلمون والسلفيون هم قوة اليمين في مصر.

برنامج الإخوان للحكم يشبه برنامج الأحزاب الليبرالية، وينتمون جميعاً إلى الرأسمالية الأبوية الذكورية، ويضحون بحقوق النساء دون أن يرف لهم جفن.

كلهم يتمسكون بالمادة الثانية من الدستور، التي تنص على أن الإسلام هو دين الدولة وأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع. يعتبرون هذه المادة من الثوابت مثل وجود الله والقرآن والإنجيل والتوراة، ومثل ثبات السوق الرأسمالية والنسب الأبوي في العائلة والحق الإلهي الذي يمنح الرجل حق الطلاق المطلق والزواج بأربع.

الانتخابات مسرحية لا يصدّقها إلا الجاهلون

أفتح عينيّ على ضوء الشمس في غرفة نومي. أندهش قليلاً لأني في بيتي. عشت المنفى بعيداً عن الوطن أكثر سني عمري، في فنادق غريبة وبيوت لا أعرفها، وغرف نوم لا تعرفني ولا أعرفها.

أحب غرفة نومي. لقد صنعتها بيدي، وسريري يضمني وحدي. منذ الطفولة وأنا لا أريد أن يشاركني نومي وأحلامي أحد. رفوف كتبي أحبها ودولاب ملابسي، ومكتبي الصغير فوقه أوراق روايتي الجديدة، وأقلامي الطيّعة من القلم الرصاص إلى الكومبيوتر واللاب توب، ومفكرتي الخاصة، أدوّن فيها ما أريد من عمري وأحذف ما أريد. شعاع الشمس الممدود حتى وسادتي البيضاء الناعمة كصدر أمي، ونافذتي العلوية في العمارة الشاهقة، ثلاثين طابقاً تنطح السحاب، كأنها نافذة في طائرة، محلقة بي في سماء القاهرة، لا تريد الهبوط إلى الأرض ومسقط الرأس. وبرغم سطوع الشمس تتجمّع الغيوم والأبخرة لتصنع سحابة سوداء كالدخان، ورمادية، وبيضاء، وغبراء بلون الغبار.

نحن في شهر نيسان/أبريل، شهر بقايا رياح الخماسين. تلتهب العيون برمال الزوابع، تهب من صحراء الحجاز وآل سعود، محملةً بذرات نفط ذائبة في قطران وزفت. عيد شم النسيم الاثنين القادم، يصفو فيه الجو بقدرة «ستنا العذرا»، بلغة

جدتي ونساء قريتي. يخرج المصريون والمصريات إلى شاطئ النيل، من كل الطوائف والمذاهب. بعضهم يؤمن بالمسيح ابن مريم، بعضهم يؤمن بمحمد الرسول، بعضهم يؤمن بموسى ويهوذا، أو بهاء الدين، أو بعل أو بوذا، أو العجل أبيس. يحتفلون جميعاً، قلباً واحداً، بموسم الربيع، كما احتفلوا به منذ آلاف السنين، منذ عصر نون ونوت ومعات وإزيس؛ فوق الجدار في غرفة نومي تطل وجوه تلك الإلهات القديمات. أستعيد الذكرى والتاريخ المنسي لأمي وجدتي.

* * *

تركت الرواية التي بدأتها منذ عامين(*)، لأكمل هذا الكتاب عن الثورة المصرية، التي بدأت في ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١١، واستطاعت أن تجبر حسني مبارك على التنحي عن الحكم يوم ١١ شباط/فبراير ٢٠١١.

لم يستغرق إسقاط رئيس الدولة (الذي حكم مصر ثلاثين عاماً بالحديد والنار) إلا ثمانية عشر يوماً، عاشتها الملايين من الشعب المصري، في الشوارع والميادين، من أسوان حتى الإسكندرية، مروراً بميدان التحرير في العاصمة.

بدأت كتابة الرواية بعد عودتي إلى بيتي في القاهرة (أول أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩) بعد ثلاث سنوات عجاف عشتها في المنفى خارج الوطن.

كانت الحكومة المصرية (تحت إدارة حسني مبارك) مثل الحكومات السابقة وتوابعها من القوى السياسية في الداخل والخارج، المباحة والمحظورة، من اليمين إلى اليسار، ومؤسسة الأزهر والكنيسة والأحزاب الدينية والمدنية، تضرب بكل قوةٍ الفكر الإبداعي، الكاشف للفساد والإرهاب، باسم الله والوطن والرئيس.

لم تمسك أصابعي إلا القلم. لم أمسك سلاحاً عسكرياً أو بوليسياً، ومع ذلك طاردتني الأنظمة المصرية والعربية والأجنبية، وكلها تخضع لنظام واحد، يحكمها

(*) ستصدر رواية نوال السعداوي الجديدة عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ترقّبوها.

دولياً ومحلياً. لا ينفصل الاستعمار الدولي عن الاستعمار داخل كل دولة، وداخل كل عائلة أخطبوط واحد مثل خيوط العنكبوت المرئية والخفية، تلتف حول العقل المبدع الحر، تحاول أن تخنقه دون جدوى. القلم يمشي على الورق بحرارة الثورة، وبرغم العثرات تنهض الثورة من جديد، وتشرق الشمس كل صباح، وبرغم المراوغات والمؤامرات في الداخل والخارج لإجهاض الثورة.

* * *

برغم التعاويذ والغيوم على خشبة المسرح، يشق ضوء الحقيقة المطوية طبقات الدخان والتعمية، وتنقشع الأبخرة عن المؤامرة الخفية، ويظهر الوجه الحجري الصارم، والملامح المتجمّدة المتجهّمة، ونظارة سوداء من تحتها فم مزموم متقلص مصكوك بحديد الدبابات.

الوجه العسكري الحجري، الذي مشى بالدبابات فوق أجساد الشباب والشابات منذ بداية الثورة حتى اليوم. الذي حكم مصر متنكراً منذ تنحي مبارك في ١١ شباط/فبراير ٢٠١١ وحتى ١٠ نيسان/أبريل ٢٠١٢.

كانوا يسمونه الرجل الغامض، المتخفي وراء نظارة سوداء، وعضلات مشدودة مطبقة على الأسرار. يعرف كل شيء من خلال أكبر جهاز في الدولة أنشأه الحكم العسكري في مصر منذ ستين عاماً. يسمونه المخابرات العامة، على غرار المخابرات الأمريكية المركزية والبريطانية والفرنسية والروسية، وغيرها في العالم غرباً وشرقاً.

هذا الرجل الغامض أدار البلاد منذ سقوط مبارك تحت اسم المجلس العسكري. وضع معهم الخطة لقتل الثورة المجيدة تحت اسم إنقاذ الثورة المجيدة.

بالأمس فقط خلع النظارة السوداء في لقطة واحدة بالكاميرا، قبل إغلاق باب الترشيح بعشرين دقيقة فقط. جاء في موكب إعلامي رهيب تحوطه قوات الشرطة والعسكر، ليعلن عن ترشيح نفسه ليصبح رئيس مصر بعد الثورة، وكأنما الثورة لم

تقم. كأنما عقارب الساعة تتقهقر إلى ما قبل عام ونصف، قبل تنحي مبارك عن الحكم،كأنما الشعب المصري مات أو فقد الذاكرة تماماً.

لم تكن الخطة متقنة تماماً. كنت أدرك، منذ تنحي مبارك وتعيين المجلس العسكري خلفاً له في الحكم، أن الثورة محاطة بالمخاطر.

نجحت الثورة في خلع مبارك. خلعت رأس الحكم فقط، لكن جسد الحكم بقي متغلغلاً في كل مؤسسات الدولة الحكومية وغير الحكومية، والأحزاب المدنية والدينية، وقوى اليمين واليسار والوسط، وكل الذين عاشوا واستفادوا ونافقوا الأنظمة السابقة في القرن الماضي، من موظفين وصحفيين وكتاب ونساء ورجال وعسكريين ومدنيين وقساوسة ومشايخ من ذوي اللحى وغير اللحى.

لعبت الأحزاب القديمة والجديدة، الدينية والليبرالية والائتلافية والشبابية والثورية والتوفيقية والتفاوضية والاستشارية والبرلمانية والجمعيات التأسيسية ولجان الدستور، وغيرها مما سمي بالقوى السياسية والشخصيات العامة والحكماء والفقهاء في القانون والشرع والدستور، كلهم، إلا أفراد قلائل عارضوا فاختفوا في الظل، سعوا إلى المجلس العسكري وحكومات ما بعد الثورة، والتعاون معها سراً وعلناً تحت اسم الثورة المجيدة.

أصبحوا بعد الثورة نجوم الإعلام الثوري في صحف الحكومة والمعارضة والفضائيات. مناصبهم محفوظة في كل ما يتشكّل من مجالس جديدة، ولجان للتغيير، وأحزاب ثورية وجمعيات تأسيسية. يشاركون ويتحمّسون ويوافقون، ثم ينسحبون ويعارضون وينسحبون، ثم يؤيدون ويشاركون. وهكذا دواليك، تدور الكرة الأرضية حول الشمس ومركز الكون.

يشاركون في اللعبة كأنما هم سذّج لا يعرفون، في حين يعرف الشعب العادي ويقول عنها الملعوب المكشوف.

وتوقّع الجميع في مصر والخارج أن يظهر نائب الرئيس المخلوع في الأفق ويرشح نفسه في انتخابات الرئاسة في اللحظة الاخيرة.

حوالي مائة اسم من الرجال (دون نساء أو امرأة واحدة ذراً للرماد في العيون) منذ قيام الثورة، أصبحوا هم النخبة السياسية الجديدة، تلعب في الساحة مع النخبة القديمة. كل منهم يمجد الثورة ويضربها في آن.

ينتقدون المجلس العسكري نهاراً جهاراً في الإعلام والصحف، ويتعشون معه ليلاً على الديك الرومي والبط والأوز، تماماً كما فعلت النخب القديمة مع مبارك والسادات وعبد الناصر والملك والسلطان والخديوي.

يتفاوضون مع الإنجليز والفرنسيين والأمريكان والروس والروم والفرس.

يرشحون أنفسهم لكل المناصب في البرلمان والشورى والدستور الأعلى. يدفعون الملايين في الدعاية الانتخابية لأنفسهم أو لزملائهم في المجموعة أو الحزب الجديد.

يلطمون الخدود ويشقون الجيوب حين يترشح رئيس المخابرات في عصر مبارك ليصبح الرئيس بعد الثورة، كأنهم لم يشاركوا في اللعبة.

منذ تنحي مبارك والمجلس العسكري يمهد الجو لإجهاض الثورة ويعود نائب مبارك إلى حكم مصر تحت اسم إنقاذ الثورة المجيدة.

قال المجلس العسكري إنه يحكم فقط في المرحلة الانتقالية لإعداد البلاد للديموقراطية، وأراق من دماء الثورة أكثر مما أراق مبارك، وفقأ عيوناً أكثر مما فقأ مبارك، واصطنع الفوضى والانفلات الأمني وتهديد بلطجية النظام للشعب العادي، مؤكداً قول مبارك: أنا أو الفوضى. واصطنع أزمات في المواد الغذائية الضرورية والوقود والبنزين والسولار، وهدّد بأن مصر مقبلة على الإفلاس والخراب الاقتصادي بسبب المظاهرات الشعبية، وأدار الإعلام الحكومي حملات لتأليب الشعب ضد الثورة باعتبارها سبب الفقر والفوضى والأزمات.

تعاون المجلس العسكري مع فلول الحكم السابق لعمل محاكمات هزلية لمبارك وأعوانه، وعدم استرجاع البلايين المهربة إلى الخارج، وعدم معاقبة أحد على الفساد أو القتل والسحل للشباب والشابات.

نجحت الخطة على مدى العام لتخويف الشعب من الفوضى، ثم من الفقر، ثم من الإرهاب الإسلامي على يد الإخوان المسلمين والسلفيين، مع أن المجلس العسكري هو الذي أتى بهذه القوى الإسلامية عبر تعديلات دستورية مزيفة وانتخابات برلمانية غير قانونية وانتخابات رئاسية تأتي فوق كل ذلك ليفوز فيها نائب مبارك بمنصب الرئيس، ويكتمل موت الثورة وعودة نظام مبارك بوجوه جديدة وقديمة أيضاً.

يعلم الشعب المصري العادي أن الانتخابات الرئاسية ستكون غير قانونية وغير شفّافة كما حدث مع الانتخابات البرلمانية، وستكون قائمة على شراء الأصوات بالأموال وقوة الحكومة والإعلام والعسكر والشرطة.

يعلم الشعب وكل من له عقل أن الدستور الجديد لا بد أن يوضع قبل أي انتخابات. يعلم الجميع أن المجلس العسكري يساند نائب الرئيس المخلوع ليكون الرئيس المقبل، ومع ذلك تظل اللعبة تمشي في طريقها بقوة الحكومة والعسكر والأحزاب القديمة والجديدة المدنية والدينية. كلهم يتسابقون إلى الانتخابات الرئاسية، برغم زيفها.

كلهم يعلمون أن كلمة القوة هي الأعلى، وأن الرجل الذي يريده العسكر والأمريكان وملوك النفط وفلول مبارك ورجال الأعمال وأصحاب الأموال، سيأتي حتماً، كما حدث في الماضي، لكنهم تعودوا اللهاث وراء السلطة والمال والأضواء وإن لم ينالوا إلا الفتات؛ يضحون بمصالح الشعب وأهداف الثورة من أجل الفتات، يُلقى إليهم فيهرعون إليه تحت اسم: شيءٌ خير من لا شيء. السياسة فن الممكن ولعبة لها قواعد محسوبة. السياسة مستنقع لا بد أن نسبح فيه وإلا غرقنا وفاتنا القطار.

هؤلاء الرجال مثل النسوة المطلقات والعوانس والأرامل، اللائي يركبن قطار

الزواج في عربة السبنسة، يرضين بنصف أو ربع رجل، بدلاً من الوحدة، أو مثل الممثلين الاحتياطيين في المسرح والسينما (الكومبارس) يرضيهم أي دور صغير ثانوي بدلاً من اللاشيء.

لكن أيها الثوار والثائرات، تذكروا أن الشعوب تنتصر في كل زمان ومكان.

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسر

الملايين من الشعب المصري، أسقطت مبارك، الرجل الأول، وهي قادرة على إسقاط رجله الثاني والثالث والمائة والألف.

* * *

كنت عاشقة للسفر بعيداً من مسقط رأسي، حتى دخلت عملية اختطاف الطائرات مجال الإرهاب السياسي، مثل عملية الانتخابات الرئاسية. وأصبح التفتيش عن المسافرين في المطارات يشبه التفتيش عن مرشحي الرئاسة، والتنقيب في أسرار عائلاتهم وجنسية أمهاتم وآبائهم.

مؤهلات الرئيس تتعلق بأمه وأبيه وبنت خالته، وليس بتاريخه ونضاله الطويل ونزاهته وبرنامجه الذي سينهض عبره بالتعليم والصحة والعدالة والحرية والإبداع.

فقد السفر متعته القديمة، وفقدت السياسة احترامها، وفقدت الأديان جوهرها، وأصبحت الانتخابات مسرحية مضحكة.

وبرغم كراهيتي للسفر وعمليات التفتيش، حملت حقيبتي وسافرت. فالبقاء في مسقط الرأس في جو ملوث، أشد إيلاماً من مسقط الطائرة في البحر. للسفر أيضاً سبع فوائد منها البعد عن صراع الديوك على كرسي الحكم. كنت أعرف أن الانتخابات الرئاسية تجتاح العالم مثل حمى الخنازير وأنفلونزا الديموقراطية والطيور. لكنني

لم أتصوّر أن الوباء وصل إلى مسرح برودواي في نيويورك، وأنّ التيارات السلفية اليهودية المسيحية في الولايات المتحدة تدلي بدلوها في السياسة والأدب كما في بلاد تركب الأفيال، وبلاد النيام نيام.

* * *

دُعيت إلى جامعة نيويورك للحوار حول روايتي الأخيرة (زينة). بعض أساتذة وأستاذات الأدب بالجامعة ظنوا (وبعض الظن إثم) أن الرواية تنبّأت بثورة الشباب والشابات وأطفال الشوارع في وول ستريت والقاهرة.

كان الحوار ممتعاً لي شخصياً، بسبب قلة المتع في الموطن ومسقط الرأس، وبسبب الخوض في ما يعاقب عليه القانون، ويشمل الرأس والذات العليا.

لكن الجو داخل جامعة نيويورك ليس هو السائد في الحياة الأمريكية. فالشعب الأمريكي مثل الشعب المصري أصبح ضحية الإعلام والتعليم الهابط، وتأثير التيارات المسيحية اليهودية المتصاعدة على العقل.

دعتني أستاذة الأدب (جوليا) ليلة الأحد في أول نيسان/أبريل ٢٠١٢ إلى مسرح جيرالد شويفيلد في برودواي، بالقرب من الجامعة. بدأ عرض مسرحية «أفضل رجل» (ذا بست مان) للكاتب الأمريكي جور فيدال، التي كتبها عام ١٩٦٠، وأعاد إخراجها بعد ٥٢ عاماً المخرج المسرحي مايكل ويلسون.

التقيت جور فيدال منتصف ثمانينيات القرن الماضي، بمدينة سالسبورج. تحاورنا في جلسة أدبية عن أمور فكرية وتاريخية ولم يكفّ الحاضرون عن الضحك من المفارقات.

المسرحية أيضاً أثارت الضحك حين كشفت التناقضات في السياسة والانتخابات والأديان، كأنما كتب جور فيدال المسرحية ليصف بها الانتخابات الأمريكية والمصرية الجارية اليوم.

كشفت المسرحية زيف التديّن السياسي والديموقراطية وتكنولوجيا الخداع والإعلام.

بطلا المسرحية يتصارعان على كرسي الرئاسة، أحدهما «كانويل» يمثل الفساد والاعتماد على المال وإثارة الغرائز للحصول على الأصوات، وغريمه «راسيل» يخدع الناس بالمبادئ: العدالة والحرية والكرامة. شخصية كانويل منفّرة بسبب الفساد، لكنه جذاب كالشيطان. ومنافسه راسيل ممل من وطأة المبادئ. الزوجة تابعة لرجلها كالعبد، تساعده في الدعاية لنفسه، تتستر على فضائحه الجنسية وخياناته المتكررة مثل هيلاري كلينتون، التي غفرت لزوجها حفاظاً على السلطة والمال وصورة السيدة الأولى.

همست جوليا في أذني: أصبح الزوجان يتعاهدان منذ البداية على الخيانة حتى تستمر الحياة. المهم احترام العهد. مبدأ الصدق والخيانة في مستنقع السياسة والحب أساس فلسفة السوق، لهذا لم أتزوج يا نوال ولم أدخل أي حزب.

ضحكت السيدة الجالسة إلى جوارها وهتفت: وأنا مثلك. فغضب الرجل الجالس أمامهما وطلب الصمت.

كان الحوار يدور بين بطليْ المسرحية كالآتي:

«كل شيء يا أخي لازم يحشروا فيه الرب ويسوع، بقوا يدلقوا ربنا على كل حاجة كأنه صلصلة الكاتشاب».

وانفجر الجمهور بالضحك.

تصوّر يا أخي هذا الرجل المتخفي بلحية القس، المضارب بالبورصة يحصد الأصوات بدفع الدولارات، يخدع الناس باسم رب الملكوت، والناس تصدقه يا أخي. الشعب الجاهل يصدق هذا البهلوان مندوب الله لإنقاذ الشعب الأمريكي من الإلحاد والإرهاب، والذي سوف يخلص أمريكا من أعدائها بالصلاة والصوم. صلّى

وصام وطلب إلى الله قتل جون كينيدي وأسامة بن لادن وصدام حسين والقذافي فاستجاب الله لصلاته وقتلهم .

هل ينجح في الانتخابات بهذا الغباء؟

لكن جورج بوش كان أغبى منه ونجح مرتين!

غالبية الشعب تتسّم بالغباء يا أخ.

تذكّرت حواري القديم مع جور فيدال. كان يقول: الأغلبية يجب ألا تحكم، الحياة ليست بموافقة الأغلبية. الأغلبية عقلها مغيب بالتعليم والإعلام. دور الدولة هو تعليم الناس لفتح العقل لا غلقه بالخزعبلات والتدين. الدولة واجبها الفكر الحر وليس فرز الأصوات في الانتخابات، ورصد آراء الأغلبية.

الانتخابات مسرحية لا يصدّقها إلا الجاهلون.

* * *

حلم طفولتي والثورة

كان لي مفكرة سرية مذ كنت طفلة في التاسعة، أخفيها في مكان لا تعرفه أمي أو أي أحد من الأسرة، خاصة أخي «طلعت»، الذي يكبرني بعام واحد فقط، ويعاني عقدةَ نقص. كان يرسب في امتحان المدرسة، العام تلو العام، وأنا أنجح بتفوق كل عام. نسمع أبي يقول: «البنت أذكى من الولد ـ عقل نوال يوزن بلد».

وهكذا أصبحت أثق بعقلي منذ الطفولة، ولا أشعر بأي نقص لأنني بنت ولست ولداً مثل أخي.

لم يكن أخي غبياً بل كان مدللاً من الجميع في العائلة والشارع والمدرسة، وخاصة محمد أفندي مدرّس الدين. لقد خلق الله أخي بذلك العضو الصغير بين فخذيه، الذي يمنحه من الحقوق الشرعية والحريات والامتيازات التي يحرمني الله منها وكل أخواتي البنات. لقد خلقنا الله،كما يقول المدرس، ناقصات عقل ودين، وأخطر ما ينقصنا هو ذلك العضو الذكوري المقدس المتدلي أسفل بطن أخي.

كان طبيعياً أن أحلم بالثورة منذ العاشرة من عمري، ضد المدرس وأخي وكل الذكور الذين يحاولون السيطرة على حياتي.

كنت كل صباح أفتح عينيّ وأتوقع أن أسمع الراديو يعلن قيام الثورة، ضد أخي وصبيان الشارع ورجال العائلة والملك والإنجليز ومدرّس الدين. كنت أخرج في

المظاهرات ضدهم كلهم، أهتف مع تلاميذ المدارس حتى يبح صوتي: يسقط الملك، يسقط الإنجليز، يسقط أخي، يسقط مدرّس الدين وشيخ الأزهر.

أضفت شيخ الأزهر إلى الساقطين، بعد أن سمعت أبي يقول إن شيخ الأزهر يتعاون مع الملك والإنجليز لنهب قوت الفلاحين.

ومرت السنون بسرعة غريبة دون أن أدري. تحولت من طفلة إلى فتاة طويلة القامة ممشوقة الجسم مرفوعة الرأس مملوءة ثقة بنفسها وعقلها، يقذفها الصبيان في الشارع بالطوب في البرعمين الصغيرين النافرين فوق صدرها.

أدركت مبكراً سر عداء الصبيان الذكور لهذين البرعمين النافرين في شموخ. وكبرت أكثر لأدرك أن رأسي الشامخ هو العدو الحقيقي لهم، وللرجال الأكبر سناً الذين كانوا يتوافدون على أبي طلباً للزواج مني، على الرغم من أن الواحد منهم من عمر جدي وأكبر.

وسمعت خالتي نعمات المطلّقة تقول: «لا يهدأ الراجل منهم حتى يكسر راس زوجته كما يكسر الملك راس العبد وكما يكسر الإنجليز راس الملك».

كان اليوم هو الأربعاء الثاني من شباط/فبراير ٢٠١١، وقفز الزمن في ذاكرتي سبعين عاماً، ووجدتني أسير بين الملايين في ميدان التحرير.

بدأت الثورة منذ ثمانية أيام، ونزلت إلى الميدان منذ اليوم الثالث. الحشود تزداد يوماً بعد يوم، وينضم إلى شباب الجامعات والمدارس عمال من المصانع وشباب القرى جاءوا من المحافظات. نساء كثيرات من مختلف الأعمار يشاركن، وأطفال يحملون الأعلام، والهتاف يدوي: «يسقط حسني مبارك». الساعة تبلغ الثانية عشرة ظهراً ويمتلىء الميدان تدريجياً، كما يحدث كل يوم. وبعض مؤيدي مبارك يحاولون الاندساس بين الثوار، ويروّجون الإشاعات لكسر الحماس والوحدة بين المتظاهرين: «مبارك مسنود بأمريكا وإسرائيل ولا يمكن يمشي، امشوا روحوا بيوتكم أحسن لكم من البهدلة».

اقترب رجل يشبه رجال الأمن يرتدي بدلة مدنية من امرأة شابة شعرها أسود غزير، تحمل علماً وتهتف: «مش حانمشي، هوّ يمشي»

قال لها الرجل: «افهميني، مبارك بيحميكي وكل ستات مصر من بتوع الدقون دول. الميدان كله من الإخوان والسلفيين يا ستي، هيفرضوا عليكي وعلى كل البنات النقاب والحجاب».

رجل آخر يشبهه يحاول تفريق بعض الأمهات و الأطفال: «روحوا بيوتكم البلد حالها وقف، أنتم بتخربوا البلد، أنتم مأجورين لإسرائيل وأمريكا». وسأله طفل في حوالي السابعة: «يعني أمريكا وإسرائيل معانا في الميدان؟». وانفجر الأطفال بالضحك.

بعض الرجال من هذا الشكل يسيرون في الميدان والشوارع المحيطة، يتجمعون حول تمثال طلعت حرب ويهتفون: «بالروح بالدم نفديك يا مبارك».

بعض الرجال كبار السن تجمعوا من حولهم وراحوا يناقشونهم. قال أحدهم: «النظام ده فاسد من أربعين سنة وأكتر، وأنا كنت ماشي جنب الحيط وخايف أفتح بقّي. بلايين مصر نهبوها والفساد بقه للركب، والشباب خريجي الجامعات مش لاقيين ياكلوا. الثورة دي لازم تنجح وإلا البلد حتغرق».

كان بعض شباب الثورة يمرون على بيتي في شبرا كل صباح، ويأخذونني معهم إلى ميدان التحرير في سيارة أحدهم، أو في تاكسي أو في المترو تحت الأرض، وأحياناً فوق موتوسيكل. أجلس في الوسط بين شابين، أحدهما يقود الموتوسيكل والثاني يركب خلفي حماية لي من السقوط حين يهتز الموتوسيكل فوق المطبات في الشوارع والحواري.

في مفكرتي اليومية كتبت: «إن ركوب الموتوسيكل في الثمانين من عمري لا يقل متعة عنه وأنا في الثامنة من العمر».

أيام الثورة كانت أجمل أيام عمري برغم البلطجية الذين هجموا علينا يوم ٢

شباط/فبراير في ميدان التحرير، راكبين الأحصنة والجمال حاملين البنادق والسنج والسيوف والسكاكين.

منظر تصورته من إبداعات خيالي الطفولي في الأربعينيات من القرن العشرين، حين كان أبي يحكي لنا عن هجمات الهجّانة فوق الجمال والخيول على الحدود.

كنت أجلس على حافة السور الحجري المنخفض الذي يحوط الصينية وسط الميدان، فمرّت قافلة الهجّانة فوق الخيول والجمال من جواري مجتازة الميدان، شاقة طريقها بين المتظاهرين نحو المتحف المصري.

كاد حصان يلهفني في لحظة خاطفة، فأسرع أحد الشباب وأخذني بعيداً، وتطوع بأن يصحبني خارج الميدان، لكني فضلت البقاء. الطفلة في أعماقي تسيطر في أخطر المواقف، وتفضل الرؤية والمعرفة وإن أدركها الموت. ربما هو عدم خوف من الموت ورثته عن أبي. كان يقول: «الموت غير موجود الا عند الجبناء».

لم أتحرك من مكاني عند الصينية حيث تجمع الكثيرون من الثوار. رأيت بعضهم يهاجمون قافلة الهجّانة. أحد الشباب قفز فوق حصان وأمسك راكبه من عنقه وطرحه أرضاً، وشاب آخر قبض على الحصان.

دارت المعركة بين الشباب الثائر والبلطجية الذين استأجرهم رجال مبارك لضرب الثوار بالبنادق والسكاكين. ورأيت كرات النار تتطاير في الجو. مرت رصاصة بصوت حاد بجوار رأسي.

حتى البنات الشابات رأيتهن يشاركن في المعركة. فتاة قفزت من فوق السور وضربت جملاً بطوبة في رأسه، واندفع الشباب إلى راكبه فأسروه هو والجمل.

مشهد مبدع مدهش يشبه المشاهد في أحلام طفولتي، حين كنت أرى نفسي أمسك سلاحاً لا أعرفه يشبه البندقية، وأضرب الملك والإنجليز والعمدة، ومدرّس الدين وكل المدرّسين في المدرسة، وكل الصبيان في الشارع الذين يقذفونني بالطوب.

كان ميدان التحرير قد امتلأ بالملايين، وبدأ الاحتفال بعد غروب الشمس بالانتصار في الموقعة التي أطلق عليها «موقعة الجمل». تراقصت الأعلام في أيدي البنات والأطفال والشباب والرجال والنساء، وارتفعت الشعارات المكتوبة تقول: «ارحل ارحل، يسقط حسني مبارك». صدحت أصوات الغناء، وبدأت المسرحيات الشعبية يؤلفها ويمثلها الشباب تلقائياً في الميدان. أخذني بعض الشباب إلى حيث تم أسر بعض الجمال والخيول بجوار المستشفى الميداني عند مدخل الميدان ناحية باب اللوق وشارع سليمان، ورأيت شاباً يجر حصاناً أسيراً علقوا حول عنقه لافتة تقول: «حصان الدكتاتور الساقط».

وأسر الشباب أيضاً بعض راكبي الجمال والأحصنة، واكتشفوا أن بعضهم يحملون بطاقات أمن الدولة من جهاز الشرطة السري. تم القبض عليهم وتسليمهم لقوات الجيش.

ضحك أحد الشباب وقال: «أنا حاموت من الجوع. ياللا نذبح جمل ونشوي لحمه».

سرت مع الشباب نحو شارع شامبليون وسمعت أعوان مبارك يهتفون: «مش حيمشي مش حيمشي»، لكن سرعان ما تراجعوا إلى ميدان عبد المنعم رياض أمام زحف الثوار من ميدان التحرير وكل الشوارع المحيطة بالميدان.

بدأت الحجارة تتطاير في الجو، ونصحني الشباب بالاختباء في مدخل عمارة. لكن الطفلة في أعماقي ظلت تفضل المعرفة على الانسحاب من المشهد.

بدأ القتال بالحجارة، وراحت أجساد تسقط وسط الدماء، وأجساد تنهض وتقاتل من جديد، والكل في حركة لا تتوقف.

أصوات صراخ وهتاف وصيحات بالصمود والاستمرار في الثورة، والحجارة تنهمر على الرؤوس في الميدان من جميع مداخله، من ميدان عبد المنعم رياض وشارع شامبليون وشارع قصر النيل وشارع البستان وشارع التحرير وطلعت حرب والقصر العيني ومن فوق كوبري قصر النيل، وغيرها وغيرها.

كنت أسير بين شاب وشابة أصابتها طوبة كادت تخلع عينها. قادها الشاب بسرعة إلى مستشفى الميدان. أعداد المصابين والجرحي تتزايد، وبعض أجساد تسقط وتغرق في الدماء ولا تنهض. الكل يجري ويحمل الجرحى إلى المستشفى الميداني، والشباب يقبضون على أعداد من البلطجية ويسلمونهم لمدرعات الجيش الواقفة تشهد المعركة. هل تعاون الجيش مع البلطجية؟ هل أرادت فلول الثورة المضادة احتلال الميدان وقتل الثوار؟

لكن الثوار انتصروا بالشجاعة وبالعدد الكبير والحشود من الشعب القادمة من كل الشوارع دون توقف، مثل شلالات من البشر تنهمر على الميدان، تكتسح البلطجية والفلول والشرطة والمدرعات وكل شيء، والكل يهتف: «مش حنمشي، هوّ يمشي»

الثورة المصرية الثانية

نساء ورجال، شباب وأطفال وتلاميذ وتلميذات، كهول وعواجيز، فقراء وطبقة وسطى وتحت الوسطى، خرجوا إلى ميدان التحرير يوم ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١.

هناك، نزفت الأم مع نزيف ابنها أو ابنتها، وبكى الأب إلى جوار جثة فلذة كبده المركولة مع القمامة، أو المتراكمة مع الجثث في المشرحة، وحملت الجدة أو الجد الحفيدة أو الحفيد المقتول برصاصة نفذت من الأذن إلى الأذن الأخرى أو من العين أو الأنف إلى مؤخرة الرأس. الأم المذهولة الذاهلة، بأصابعها المشققة المحروقة بالشمس والفأس، تقلب رؤوس القتلى، تبحث بين الجثث عن وجه ابنها. الملامح كلها تشابهت تحت الكدمات وطبقات الدم المتجمد، تفتش الأم في اليدين أو القدمين عن أصابع ابنها، عن العلامة أو الوشم أو الوحمة في عنقه أو البطن أو الصدر.

يقولون إن القتلة من الأمن يقدمون اعتذاراً عما حدث. تلطم الأمهات الثكلى صدوغهن، يقطعن بأظافرهن شعورهن، يضربن الأرض برؤوسهن، تجحظ عيونهن بالغضب والجنون، هل من كلمة اعتذار تعيد لأبنائهن دماءهم المراقة وأرواحهم المزهوقة، هل تعيد الضوء لأعينهم المفقوءة، هل تعيد الذهب والمال لمصر المسروقة؟

والذين اختنقوا وماتوا بقنابل الغاز السام؟ ومنهم الطبيبة الشابة حديثة التخرج «رانيا فؤاد»، التي ملأت صورتها صحف يوم الخميس ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر، تطل بوجهها المستدير بدهشة الطفلة. عيناها واسعتان مملوءتان حزناً عميقاً، كالجرح الغائر في بؤرة الجسد والروح. غاز سام شديد الخطورة على الجهاز التنفسي، يؤدي إلى الاختناق ثم الموت، تم تحريم استخدامه في الحروب حسب معاهدة جنيف.

المحاولات لإجهاض الثورة الأولى في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير، تحالفات الخارج الاستعماري مع الداخل الاستبدادي السياسي والديني، التحرش بالنساء والفقراء والشباب الثائر. تم اتهام الشابات الثائرات بالعهر والفساد وتم القبض عليهن وإجراء فحص العذرية عليهن بالقوة المسلحة. تم القبض على الشباب الثائر واتهامه بالبلطجة والحصول على تمويلات أجنبية وخيانة الوطن.

انقلب الثائر إلى بلطجى في الإعلام، وانقلب البلطجي إلى زعيم حزب وطني ثوري، انقلبت العاهرة إلى قائدة نسائية، وأصبحت المرأة الثورية المناضلة مأجورة للغرب ومنحلّة. طالت اللحى والشوارب وزبيبة الصلاة الزائفة، وتحول اللصوص وقطّاع الطرق إلى زعماء دينيين ونجوم الإعلام والفضائيات، بأموال النفط العربى والدولار الأمريكي. تم تحجيب الأطفال البنات، وبيعهن لعجائز الأثرياء في موسم البغاء السياحي. حتى تمثال الإلهة المصرية القديمة إيزيس تم فرض الحجاب عليه، خشية الفتنة، وإثارة غرائز المؤمنين الأتقياء، تتهيج شهوتهم لمجرد النظر إلى تمثال من الحجر. تم تقديم الثوار الحقيقيين إلى المحاكم العسكرية بتهمة السرقة أو الخيانة الوطنية. مبارك وأعوانه ممن خانوا الوطن ونهبوا قوت الشعب بالبلايين، حُوّلوا إلى محاكمات مدنية شكلية لم تسفر عن عقاب، أو استعادة الأموال المسروقة المهربة إلى الخارج.

في هذه الثورة المصرية الثانية سقطت القوى المضادة للثورة الأولى، سقطت الحكومة الانتقالية التي رأسها وزير في عهد مبارك، قفز على الثورة بالباراشوت

مثل التيارات الدينية السلفية، مع المجلس العسكري والإخوان وفلول النظام، الذين تعاونوا معاً في السر والعلن. الدماء تسيل في الشوارع والميادين وهم يصرون على إجراء الانتخابات في موعدها. لماذا التشبث العنيد بانتخابات ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر؟ أهو اتفاق سري بين الفلول والعسكر والإخوان لاقتسام مقاعد البرلمان؟

يحاول هؤلاء المتاجرون بالدين أن يتاجروا أيضاً بالقضية الفلسطينية. يحاولون شق صف الثورة المتحدة، بمظاهرة أخرى منفصلة، تخرج في الوقت نفسه من الجامع الأزهر تحت اسم مناصرة المسجد الأقصى ضد الاعتداء الإسرائيلي.

نجحت هذه الثورة الثانية في كشف الحجاب عن وجه القوى المتاجرة بالدين وعلاقتها بالعسكر وفلول مبارك، كما كشفت أيضاً عن الانتهازية، ونفاق الأحزاب القديمة أو الجديدة، التي حاولت ركوب ثورة كانون الثاني/يناير وتفاوضت مع أصحاب السلطة بينما كانت دماء الشباب تُراق في الشوارع والميادين. اليوم يصرّون على انتخابات مصطنعة قبل إصدار الدستور الجديد. همهم القفز إلى الحكم، وإن تم ذبح الشعب وخربت مصر.

تخلوا عن قواعد العقل والمنطق، وضعوا العربة أمام الحصان، وضعوا الانتخابات قبل الدستور. بالدم ونور العين يضحي شباب الثورة الثانية، كما ضحوا في الثورة الأولى، الأهداف نفسها: الحرية، العدالة، الكرامة، المساواة.

لا يكفي تكوين حكومة إنقاذ تحظى بالصلاحيات المطلقة، لأن السلطة المطلقة مفسدة لمن يتولى الحكم. لا بد من تشكيل مجلس جماعي ثوري من الكفاءات الثورية وجميع الأعمار والخبرات، ليتولى متابعة أعمال حكومة الإنقاذ وتصحيحها، إن خرجت عن الأهداف.

ثورة تشرين الثاني/نوفمبر الثانية سوف تكنس الفساد السياسي والديني والنفاق. سوف ترفض الثورة الثانية الوجوه المنافقة المتكررة التي أثرت في ظل النظم السابقة. لم تُقدم تضحية واحدة لكشف الفساد السابق، ولماذا يقدم المجلس العسكرى وجهاً

من العصور الماضية مثل كمال الجنزورى ليكون رئيس حكومة الثورة الثانية ؟ أليس هناك شخصية ثورية شابة جديدة تصلح؟

أهي مراوغة أخرى لكسب الوقت وإجهاض الثورة الثانية؟

نجحت الثورة الثانية بملايين الشعب التلقائية المبدعة الصادقة. نجحت بدون الأحزاب القديمة والجديدة، ومنها الأحزاب الدينية: الإخوان والسلفية والصوفية والشيعية والسنية وغيرها. نجحت الثورة الثانية وإن حاولوا إجهاضها فسوف تولد ثورة ثالثة ورابعة من بطن الشعب المصري، إلى ما لا نهاية.

التغيير الثوري لمفهوم العار

خرجت الملايين من الشعب المصري مرة أخرى إلى ميدان التحرير، يوم الجمعة ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١، استمراراً للثورة الأولى منذ يناير الماضي.

تطورت الثورة السياسية الاقتصادية إلى ثورة ثقافية أخلاقية على يد النساء الثائرات، وزملائهن من الشباب الثائر.

استطاعت المرأة المصرية الثائرة حتى الموت (من أجل الكرامة والحرية والعدل) أن تحدث ثورة في القانون الأخلاقي المزيف، ومفهوم الشرف الضحل الواهي، وفحوص القوة المسلحة لما يسمونه العذرية، واختزال كيان المرأة المصرية، لتكون مجرد جسد، يُغطّى أو يُعرّى، حسب مصالح الطبقة الحاكمة سياسياً ودينياً وعسكرياً.

أعطت المرأة الثائرة الشجاعة درساً أخلاقياً عالياً، قادراً على تغيير النظرة الدونية للمرأة، ومؤكّداً أن المرأة لها عقل أكبر من عقول الحكام، وجسد يتحدّى رصاصهم وقنابلهم، وإن تعرّى وتمزّق وقُتل. أصبح الشرف هو الثورة ضد نظامٍ فاسدٍ متعاون مع الاستعمار، يقهر النساء والفقراء والشباب والرجال والأطفال.

أصبح شرف المرأة هو شرف الرجل، هو شرف الطفل، هو شرف الفقير والفقيرة، هو شرف الوطن.

* * *

نجحت النساء الثائرات في كشف عورات النظام الحاكم.

العورة هي القهر والظلم والكذب، وليس أن يتعرّى جسد المرأة.

المرأة المصرية اشتركت في الثورة منذ كانون الثاني/يناير الماضي حتى هذه اللحظة، ودفعت ثمن حريتها وكرامتها بالدم.

المرأة المصرية تحررت من العبودية بالخروج من البيت إلى الشارع، والاستعداد للموت، وليس فقط للضرب والتعرية من ملابسها.

بنات وأطفال وشابات وكبيرات السن، قُتلن جسداً وعقلاً وروحاً، بسبب الخروج من البيت، والثورة على كل أنواع القهر العامة والخاصة.

صورة عري المرأة في الإعلام، تجرح شعور هيلاري كلينتون، ولا يجرح شعورها الأنثوي الرقيق مذابح الملايين من النساء والأطفال والرجال، على يد الآلة العسكرية الأمريكية في كل بلاد العالم. وتجرح الصورة أيضاً شعور بعض الشوارب المفتولة واللحى الطويلة الكثيفة، الذين ينتهكون كرامة المرأة كل يوم، باختزال كيانها الإنساني إلى شيء يُغطّى، بلا اسم ولا وجه.

اعتبار اسم المرأة أو صوتها عورة إهدار لكرامة الإنسان، فما بال إخفاء الوجه بالنقاب.

وجه الإنسان هو كرامته، امرأة كان أم رجلاً.

* * *

تبدو هيلاري كلينتون من شدة دفاعها عن حقوق المرأة كأنما هي زعيمة تحرير النساء في مصر، كأنما فكرة تحرير المرأة المصرية مستوردة مثل الفول المدمس من كاليفونيا.

هيلاري كلينتون، تشبه حماستها الاستعمارية تحت اسم «حماية المرأة المصرية»، غزو الجيش البريطاني لمصر ١٨٨٢ تحت اسم «الحماية»، وتشبه حماسة بعض الذكور، تحت اسم الرجل «الذّكر» لحماية «الأنثى» التي عرّاها الجيش والبوليس وهتكوا عرضها.

لا يصبّون غضبهم على المعتدين ويطالبون بعزلهم ومحاكمتهم، بل يغضبون من المرأة الثائرة، يقولون عنها «متمردة»، خرجت على القيم الأخلاقية وطاعة الله الذي أمرها أن تلزم البيت. وبعض نسائهم المنقبات تبرأوا منها وقالوا عنها: ليست منا، نحن النساء الشريفات. الشرف عندهن شراء نصف متر من القماش يغطي الوجه.

غضبوا أيضاً من الشباب الثوار المعتصمين من أجل الحرية والكرامة والعدل، وأمروهم بطاعة أولي الأمر في الدولة، والعودة إلى بيوتهم وعدم حرق قلب مصر. كأنما هم الثوار الذين يحرقون قلب مصر وليس العسكر والشرطة، وفلول النظام وأعوانهم في أمريكا وإسرائيل وتوابعهم من الحكومات العربية.

يلعب الإعلام المصري والعربي والدولي دوراً في خلط الحابل بالنابل، وإشاعة الفوضى الفكرية والبلبلة حتى يترحّم الشعب المصري على أيام مبارك. هذا الكذب والخداع هو الذي ينتهك الشرف وليس تعرية الجسد.

الجسد الإنساني له كرامته وقدسيته، ويجب ألا يُعرّى جسد امرأة أو رجل، أو يضرب ضرباً عنيفاً للتخويف، أو ضرباً خفيفاً للتأديب. فالضرب هو الضرب، في المظاهرة، في الشارع، في السجن، داخل البيت.

* * *

لكن الأخطر من ذلك هو الضرب بالرصاص الحي في الرأس مباشرة.

أغلى ما في الإنسان هو المخ داخل عظام الجمجمة التي يخترقها رصاص العسكر والشرطة.

منذ الثورة في كانون الثاني/يناير الماضي، كم عدد الآلاف الذين اخترق رؤوسهم وعيونهم الرصاص الحي في الشوارع والميادين؟

رأيت بعيني بقايا مخ الإنسان المصري (امرأة ورجل) ممزقاً فوق الأسفلت في شارع قصر العيني، وجثث القتلى رجالاً ونساءً وأطفالاً، مكوّمة في مشرحة زينهم، مثل قطع اللحم المجمّد في علب الصفيح.

هذا هو ثمن الحرية والعدل والكرامة. هذا هو ثمن الشرف الحقيقي وليس الشرف المزيف.

الثورة ضد الظلم هي الشرف الحقيقي. الثورة من أجل العدل والحرية والكرامة هي الشرف الحقيقي.

* * *

هتفت الشابات والشباب في المظاهرات: يا اختي ارفعي رأسك، أنتِ أشرف من اللي داسك.

هذه العبارة الموجزة تغير مفهوم الشرف الكاذب المزدوج في بلادنا.

الشرف هو رأس المرأة المرفوع، وعقلها المبدع الخلاق.

الشرف الحقيقي لا تثبته الكشوف الطبية عن العذرية البيولوجية.

الشرف الحقيقي في رأس المرأة وعقلها، في رأس الرجل وعقله.

الشرف الحقيقي في الأمانة والصدق والحرية والعدالة والكرامة، وليس في تعرية أو تغطية الوجه أو الذراع أو الساق.

هؤلاء الشابات الثائرات الشجاعات قادرات على الموت من أجل حماية كرامتهن وكرامة الوطن. وهل يحميهن هؤلاء الذين لم يخرجوا من بيوتهم إلا للزعيق في الميكروفونات والفضائيات؟

تحت اسم الحماية احتلت بريطانيا وأمريكا موارد بلادنا المادية والمعنوية، وتحت اسم الحماية يحتل بعض الذكور ذوي الشوارب واللحى عقل المرأة وجسدها وروحها.

لم يتحرّر العبيد والنساء في التاريخ إلا بالدماء. الحرية لا تتجزأ في الدولة والعائلة، في الشارع والمدرسة والبرلمان، وفي كل مكان.

الرجل لا يكون حراً حين تكون المرأة عبدة، والمرأة لا تكون حرة حين يكون الرجل عبداً.

والطفل لا يكون حراً إذا تربّى على العبودية والخوف والذل.

ثمن الحرية والكرامة هو الدم.

والناس من خوف الذل في ذل.

هذه الحقيقة التاريخية عرفتها في البيت من أمي وأبي وجدتي. لم أعرفها من المدرسة أو الجامعة أو البرلمان. عرفت أن ثمن حريتي غالٍ جداً، أدفعه بالدم والسجن والضرب والنفي وتشويه السمعة.

* * *

كم حاولوا تشويه سمعة الشباب الثوار والشابات الثائرات؟

قالوا عنهم إنهم عملاء الغرب، وأن الشابات عاهرات وبنات شوارع، وأجروا لهن فحوصاً للكشف عن عذريتهن.

قرأت منذ يومين مقالاً لأحد الكتاب الكبار، ممن حصلوا على جوائز مبارك،

يقول إن ثورة كانون الثاني/يناير المجيدة، تم تشويه صورتها بهؤلاء الشباب في ميدان التحرير، وشارع قصر العيني، الذين يحرقون المجمع العلمي. كنز مصر العظيم، يبكي عليه الكاتب الكبير ولا يبكي على دماء الآلاف من شباب مصر وشاباتها. إنهم كنز مصر الحقيقي، هؤلاء الشباب والشابات هم عقل المستقبل، وعلم وأدب وثقافة المستقبل، وليس العلماء مندوبو الرئيس الأمريكي.

هؤلاء الشباب يراهم الكاتب الكبير بلطجية، بعد أن قال عنهم إنهم ثوار، ويأمرهم بالعودة إلى بيوتهم فوراً واحترام قرارات المجلس العسكري والمجلس الاستشاري ونتائج الانتخابات، وإلا فيجب على الدولة أن تضربهم بالرصاص.

بعض الأطفال أصبحوا هم الذين يحرقون البلد، أطفال الشوارع، غير الشرعيين، الفقراء المعدمين.

هذه هي القيم المزدوجة اللاأخلاقية. من أجل تبرئة أصحاب السلطة والنفوذ يتم إدانة أضعف شرائح المجتمع، الأطفال الفقراء المساكين، والبنات المغتصَبات المشرّدات، ليس لهم أسرة ولا بيت.

خمسة ملايين ولد وبنت غير شرعيين في مصر، ليس لهم حقوق على الإطلاق بما فيها الشرف. هم ضحايا الفوضى الجنسية التي يتمتع بها بعض الرجال.

* * *

لم تكف النخبة الحاكمة وإعلامها عن تشويه صورة شباب الثورة تحت اسم المحافظة على الثورة؟

لم يكفوا عن بلبلة الرأي العام إلى درجة أن أستاذاً جامعياً من النخبة الحاكمة قال في التلفزيون: العيال الشوارعية دول خرّبوا البلد، الناس بتترحّم على أيام مبارك.

هذه هي الخطة التي رُسمت لإنهاء الثورة والإجهاز على الثوار والثائرات، فهل نجحت الخطة؟ أبداً. إن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن.

تصدت إحدى الشابات الثائرات للجنود بشجاعة وقوة، فانهالوا عليها ضرباً حتى سقطت، وتعرى نصفها الأعلى.

كانت ترتدي مشداً أخفى النهدين، وبنطلوناً سميكاً أخفى نصفها الأسفل. وكانت راقدة على الأرض، ومن حولها مجموعة من الجنود المسلحين بعد أن ضربوها حتى الإغماء.

نطقت الصورة بما لا تنطق به آلاف الخطب والمقالات والكتب، الوحشية العسكرية في أبشع أشكالها، ويزيد من الوحشية كون الضحية امرأة.

الضرب المبرح جريمة، وتعرية الجسد بالقوة المسلحة جريمة.

جريمتان اثنتان، كل منهما أبشع من الأخرى.

ولهذا يشتد الغضب وتخرج الملايين من جديد إلى الشوارع وميدان التحرير في الموجة الثالثة لثورة كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

شارك في المظاهرات الرجال والنساء معاً، والشباب والشابات من الاتحاد النسائي المصري. يتحمس الشباب مثل الشابات لتحرير المرأة.

هؤلاء هم مستقبل مصر الجديدة.

أمريكا زعيمة «البلطجية»

اليوم أول كانون الثاني/يناير ٢٠١٢. أنا في بيتي بحيّ شبرا العتيق، أقدم حيّ في مدينتي، القاهرة لأهلها، المقهورة منذ زمن العبيد. أحبها من البعد حين أعيش المنفى، وما أن أعود إليها حتى أحلم بالفرار.

منذ طفولتي كنت أحلم بالطيران إلى مكانٍ آخر، وزمان آخر، ليس فيهما نفاق وكذب ولا حكام ومحكومون أو كفار ومؤمنون.

اعتذرت ليلة الأمس عن تلبية كل الدعوات لحضور احتفالات رأس السنة الجديدة. منذ الطفولة أكره الاحتفالات والأعياد، فقلبي مثقل بالحزن والغضب.

في العيد تتكشّف عورات النظام الحاكم في العائلة والدولة، ويظهر الثراء الفاحش إلى جوار الفقر المدقع، وتتألق الأنوار والزينة حول قصور الأثرياء تحوطها الحدائق الخضراء، ويتباهى أطفالهم بالملابس الجديدة والألعاب والهدايا الثمينة.

من خلال نوافذ سياراتهم المحكمة الإغلاق، يرمقون بازدراء أطفال الشوارع، بجلابيبهم المهلهلة، وأقدامهم وأيديهم المشققة، وأنفاسهم اللاهثة.

يجرون بين السيارات، يبيعون الورد أو المناديل الورقية، أو يمسحون نوافذ السيارات بالفوطة الصفراء. وتظل النوافذ مغلقة بإحكام، أو تفتحها يد ملساء ناعمة

عن شق صغير، تلقي من خلاله قطعة نقود أو كعكة العيد، فيتسابق إليها أطفال الشوارع، ويتنافسون عليها مثل القطط الجائعة والكلاب الشاردة.

قرأت بالأمس في الصحف أن في مصر خمسة ملايين طفل وطفلة يولدون في الشارع ويموتون في الشارع.

هل يمكن الاحتفال بعيد من الأعياد في بلادنا؟

هل يمكن الشعور بالفرح، ومن حولنا كل هذا الحزن والبؤس؟

* * *

شعرت بالعار والغضب وأنا أقرأ صحف الصباح، اليوم أول كانون الثاني/يناير ٢٠١٢

أدركت أن مصر مستعمرة أمريكية، برغم ثورة كانون الثاني/يناير ٢٠١١، وثورة كانون الثاني/يناير ١٩٧٧ وثورة تموز/يوليو ١٩٥٢، وثورة ١٩١٩، وغيرها من الثورات.

الأخبار الرئيسية كانت كالتالي:

أمريكا تهدد بإيقاف المساعدات لمصر. وزير الدفاع الأمريكي « ليون بانيتا» يتصل برئيس المجلس العسكري المشير طنطاوي، ويعرب عن قلقه العميق إثر المداهمات التي أغلقت ١٧ منظمة أهلية في مصر بتهمة تلقي أموالٍ من الخارج بطرق غير شرعية. وهددت وزارة الخارجية الأمريكية بإيقاف المساعدات العسكرية لمصر، وفقاً لقانون وقّعه باراك أوباما قبل أسبوع.

ينص القانون على منح مصر ٢٥٠ مليون دولار مساعدات اقتصادية ومليار ونصف مليار دولار مساعدات عسكرية مع إمكانية شطب ٥٠٠ مليون دولار من ديون مصر لأمريكا بشرط أن تضمن وزارة الخارجية الأمريكية دعم الحكام العسكريين في

مصر الانتقال إلى حكم مدني. وحسب السيناتور باتريك ليهي الذي قدم مشروع القانون فإن ذلك يشمل ضمان الانتخابات الحرة وحرية التعبير والاعتقاد والالتزام بمعاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل.

وأعلنت واشنطن أنها يمكن أن تتغاضى عن تلك الشروط لدواعي الأمن القومي الأمريكي.

وأعلنت السفيرة الأمريكية في القاهرة « آن باترسون» أنها تلقت تعهدات من المجلس العسكري المصري بوقف مداهمات الجمعيات الأهلية واعادة المعدات التي صودرت منها إليها.

ووصفت وزيرة خارجية الاتحاد الاوروبي «كاترين أشتون» هذه المداهمات بأنها استعراض للقوة.

وقالت وزارة الخارجية الفرنسية إن ما حدث لا يشجع الانتقال السلمي للديموقراطية.

وأعلن الإعلام الألماني أن نائب وزير الخارجية وجّه توبيخاً سياسياً إلى سفير مصر في برلين.

وقد أوقف المجلس العسكري المصري حملته ضد منظمات المجتمع المدني ورد جميع المضبوطات إليها. وأعلن بعض قيادات المجتمع المدني أن الحملة ضدها تتزامن مع نشاطها في كشف الانتهاكات التي حدثت بحق الثوار ضد النظام وبطش العسكر والشرطة بالمظاهرات السلمية.

وهاجم بعض الأحزاب المجلس العسكري، وتساءل لماذا لم يتعرّض للتمويل الأجنبي الضخم من السعودية وقطر، والذي تحصل عليه أحزاب الإسلام السياسي ومنها الإخوان المسلمون والأحزاب السلفية. وأصدرت ١٢ منظمة دولية ومصرية بيانات تتهم المجلس العسكري بمخالفة المواثيق الدولية.

حين كانت مصر مستعمرة بريطانية (١٨٨٢ ـ ١٩٥٦) لم يكن الحاكم العسكري الإنجليزي يوجه مثل هذا التهديد الأمريكي إلى الحكام في مصر.

الدم يغلي في عروقي منذ عهد السادات، في السبعينيات من القرن الماضي، حين أصبحت مصر تحت السيطرة الأمريكية بسبب ما تقدمه من معونة اقتصادية وعسكرية، تحت اسم التنمية والديموقراطية. الكلمتان «التنمية والديموقراطية» ساءت سمعتهما في مصر والعالم، ويتخفّى الاستعمار الأمريكي الجديد تحت هاتين الكلمتين. وكانت نتائجهما في كل البلاد مزيداً من الفقر والمرض والخداع والكذب والاستبداد، وازدياد الهوة بين الفقراء والأغنياء، وتزايد الحروب الاقتصادية والعسكرية عالمياً ومحلياً.

أصبحنا نعيش عصر البلطجة الرأسمالية الأبوية، بزعامة الحكومة الأمريكية والاتحاد الأوروبي، مع تابعيهما الصغار، من الحكومات العربية، وغيرها في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينة.

* * *

اليوم أول كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٢. كم من مذبحة وقعت الأيام الماضية في مصر وفلسطين والعراق وغيرها من البلاد؟ كم من الملايين تظاهروا في بلاد العالم ضد الرأسمالية الأبوية الشرسة، من ويسكونسن إلى سياتل، إلى الحركة الشعبية ضد وول ستريت، إلى غيرها من المدن في أمريكا، وبلاد أوروبا؟ أكثر من ثمانين مدينة تفجرت فيها الثورات الشعبية من سان بول في لندن إلى باريس ومدريد وروما وأثينا وغيرها، إلى الثورات الشعبية المصرية والعربية والأفريقية والآسيوية.

هل أعيش لأشهد سقوط النظام الطبقي الأبوي الممتد من العصر العبودي حتى عصرنا هذا؟

لقد بلغت الثمانين، فهل سأشهد حلم طفولتي يتحقق قبل أن أودع هذا العالم؟

منذ الطفولة كنت أحلم بتغيير العالم، ولم أفقد الأمل برغم المصاعب والنكسات. لم أفقد الأمل وأنا في المنفى البعيد، أو في زنزانة السجن القميء، فهل أفقده وأنا في بيتي أمسك القلم وأكتب، دون أن يكسر بابي رجال البوليس كما فعلوا يوم ٦ أيلول/سبتمبر عام ١٩٨١.

كنت وحدي في شقتي بشارع مراد بالجيزة، أكتب رواية «سقوط الإمام» عندما كسروا الباب ودخلوا. وأخذوني إلى السجن دون تحقيق، لمجرد أنني أمسك القلم وأكتب.

* * *

كل سنة وأنتِ طيبة يا أماه.

سمعت صوتها وهي تفتح الباب. صوت ابنتي يشبه صوت أمي حين كنت طفلة. عيناها هما عينا أمي، بلون العسل المصفّى، يكسوهما بريق قوي. وفي بؤرتهما شمس أخرى غير الشمس.

كل سنة وأنتِ طيبة يا نونا. السنة الجديدة ٢٠١٢ ستكون أحسن من سنة ٢٠١١.

ابنتي كاتبة وشاعرة رقيقة، اسمها الرسمي د. منى حلمي. حصلت على شهادة الدكتوراه بامتياز في علم الاقتصاد السياسي، وقررت أن تكون شاعرة وكاتبة مبدعة. وضعت الشهادة في درج أسفل مكتبها ونسيتها.

تناديني أماه، وأناديها كما كانت أمي تناديني « نونا». تكتب مقالاً كل أسبوع عن الثورة ينتهي بأبيات من الشعر، وآخر دواوينها الشعرية يحمل عنوان «مسافرة إلى المحال».

نشرب شاي الصباح معاً على مائدة صغيرة من الرخام في المطبخ، فليس عندي

غرفة خاصة بالطعام. أعيش في شقة صغيرة في الدور السادس والعشرين في حي شبرا مذ تركت شقتي القديمة بالعمارة ٢٥ بشارع مراد بالجيزة التي عشت فيها مع ابنتي الطفلة منذ عام ١٩٦٠.

تزوجت فيها عام ١٩٦٤ من طبيب عاش في السجن اثني عشر عاماً بتهمة الشيوعية. يقضي القانون المصري بتبعية الزوجة لزوجها وإن كانت مستقلة الرأي والشخصية، ولذا أضافت وزارة الداخلية اسمي إلى قائمة الشيوعية. تطاردني التهمة حيثما أكون حتى اليوم عام ٢٠١٢، ومنعت الجريدة العربية التي تصدر من لندن، وجريدة الواشنطن بوست الأمريكية نشر مقال أدبي عن روايتي الأخيرة بحجة أنني شيوعية.

حكى لي حياته في السجن، فقلت له: اكتبها وانشرها في كتاب لتبقى شاهدةً على التاريخ. قال: لست كاتباً ولا أديباً. فقلت: حاول أن تكتب، فالأديب لا يولد أديباً، بل يصبح أديباً بالممارسة والتدريب. المرأة لا تولد امرأة بل تصبح امرأة بالتربية والتعليم، والرجل لا يولد رجلاً بل يصبح رجلاً بالتربية والتحريض.

كنت أمنح ثقتي المطلقة لمن يعاهدني على الصدق، فالإنسان عندي بريء حتى يثبت العكس، وكان هو على العكس.

خرج من السجن مملوءاً بالشك والحزن والهزيمة، وكنت مملوءة بالثقة والمرح والفرح منذ الطفولة.

كانت طفولته مليئة بالوحدة والكآبة. فالأب والأم في شجار مستمر، وللأب علاقات سرية مع النساء. ثم اكتشفت الأم بعد أربعين عاماً من الزواج أن زوجها له زوجة أخرى تصغره بخمسين عاماً. هل يرث الابن أباه؟

شقتي بالجيزة أصبحت تحت المراقبة البوليسية منذ زواجي عام ١٩٦٤، فالتصقت بي تهمة الشيوعية إلى الأبد. التلفون أصبح مراقباً بشكل دائم والبريد أيضاً. ولم أدرك معنى مراقبة طبيبة وأديبة مستقلة مثلي، تكتب القصة والرواية والمسرحية ودراسات

علمية عن المرأة، وليس عندها أسرار خاصة أو عامة، ولم تدخل في حياتها حزباً سياسياً، ولم تنضم إلى شلّة أدبية.

كل سنة وأنتِ طيبة يا أماه، النهارده واحد يناير ٢٠١٢

ياه السنين بتجري يا نونا.

صوت جدتي التي ماتت منذ خمسة وستين عاماً: اللي متغطّي بالأيام عريان يا بنت ابني.

ياه، يا نونا، تصوّري، واحد وثلاثين سنة فاتت من يوم ما كسروا الباب وأخذوني إلى السجن.

مدينة الأسمنت والأمل الجديد

نطل ابنتي وأنا على المدينة من الدور السادس والعشرين. نشرب الشاي ونتصفح عناوين الجرائد. نتائج الانتخابات المصرية تؤكد تفوق الأحزاب الإسلامية، حزب الإخوان المسلمين وحزب السلفيين ـ يسمونه حزب النور، ويسميه الشعب المصري حزب الظلام ـ خرجت مظاهرات شعبية في المحافظات تطالب بإلغاء الانتخابات المزورة تحت اسم الديموقراطية، بعد الكشف عن أوراق تصويت محترقة، واعتراف بعض المرشحين بأنهم تلقوا تهديدات على هواتفهم بالقتل أو خطف أولادهم إن لم يتنازلوا عن الترشح للانتخابات.

جرت هذه الانتخابات والدماء تجري في الشوارع، من ميدان التحرير إلى شارع قصر العيني وشارع محمد محمود ومجلس الوزراء والألفي والشيخ ريحان وغيرها. كان رصاص الشرطة ورصاص المجلس العسكري يُصوّب إلى رؤوس وعيون الشباب والشابات من الثوار الصامدين في المعركة، المساندين لمطالب ملايين الثوار، ومطالب الآلاف من الأهالي الذين قُتِل أبناؤهم وبناتهم، وسُحِلوا في الشوارع، وعُذّبوا في السجون وقُدّموا لمحاكمات عسكرية ملفقة.

لم يسقط إلا رأس النظام. بل إن مبارك لا يزال حياً منعّماً محمياً بالعسكر

والبوليس والإعلام وكل القوى الحاكمة في الداخل والخارج. بل يوشك مبارك أن يحصل على البراءة بعد محاكمة هزلية مسرحية يخدعون بها الشعب.

بالأمس أعلنت النيابة أن مبارك وأعوانه يستحقون الإعدام شنقاً على جرائم قتل المتظاهرين.

يمصمص الناس الشفاه في يأس، ويتهامسون بأنهم عرفوا الخدعة. إنه فصل جديد في المسرحية، والإعدام مجرد كلمة في الإعلام لامتصاص الغضب الشعبي العارم، بعد المذابح الأخيرة، ونتائج الانتخابات المزورة.

أصبح الشعب المصري برغم التضليل الإعلامي واعياً الخديعة. كم سنة مضت على اغتيال السادات بأيدي القوى الإسلامية نفسها التي شجعها سراً. «الابن يقتل أباه»، قصة تتكرّر في التاريخ منذ عصر العبودية.

قبل اغتيال السادات بشهر واحد في ٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١ كسر البوليس باب شقتي بالجيزة، بالضبط في ٦ أيلول/سبتمبر عام ١٩٨١، وأخذوني بالقوة المسلحة إلى السجن، دون تحقيق أو تهمة. نشرت الصحف الحكومية أن السادات أمر باعتقال كل من عارضه، وأن هؤلاء المعارضين تآمروا مع دول أجنبية لقلب نظام الحكم.

كانوا أكثر من ١٥٦٠ شخصاً من بينهم ١٢ امرأة، تم اعتقالهم جميعاً دون تحقيق على مدى ثلاثة أيام متتالية من ٣ إلى ٦ أيلول/سبتمبر ١٩٨١.

إنها التهمة المزمنة المعروفة منذ عصر العبودية «قلب نظام الحكم». كل من يتمرّد على الظلم والإهانة من العبيد والنساء يُساق إلى الموت أو السجن بالتهمة ذاتها، قلب نظام الحكم بالقوة، بالتعاون مع قوى أجنبية.

التهمة نفسها يوجهها المجلس العسكري اليوم إلى الشباب المصري الذين قاموا بثورة كانون الثاني/يناير ٢٠١١.

لم أملك في حياتي كلها إلا القلم والورقة، وقد تصبح الكلمة الصادقة أقوى من الرصاص. كان مسؤول البوليس في السجن يأمر بتفتيش زنزانتي كل يوم بحثاً عن الورقة والقلم، وكل يوم يقول لي بصوته الأجش:

«لو وجدت عندك ورقة وقلماً فهذا أخطر عليك من وجود طبنجة».

* * *

صادرت الحكومة المصرية كتابي «المرأة والجنس» عام ١٩٦٨. مقالاتي الصحفية خلال السبعينيات لم تعد تُنشر، وعام ١٩٧٢ أصدر وزير الصحة قراراً بعزلي من منصبي، وإيقاف جمعية الثقافة الصحية، ومصادرة مجلة الصحة عام ١٩٧٣. ثم صدر أمر السادات باعتقالي (من ضمن ١٥٦٠ معارضاً) عام ١٩٨١، دون تحقيق. ثلاث تهم نشرتها صحف الحكومة ضدي: قلب نظام الحكم، والشيوعية، والتحريض على الفتنة الطائفية.

قضيت في السجن ثلاثة أشهر ثم خرجت براءةً بعد اغتيال السادات.

لم يتغير النظام خلال حكم مبارك، وانتقل اسمي من القائمة السوداء المعلنة إلى القائمة السوداء الخفية، واستمرت وسائل الرقابة والقمع لأي نشاط اجتماعي جديد وكل فكر حر. صودرت بعض مؤلفاتي خلال الثمانينيات، منها رواية «سقوط الإمام»، وحُذِف اسمي من سجل الكاتبات المصريات.

رفضت الحكومة عام ١٩٨٣ إشهار جمعية تضامن المرأة العربية التي شاركتُ في تأسيسها، وانتقد القرار بعض المفكرين الأحرار في الصحف. واضطرت الحكومة إلى تسجيل الجمعية عام ١٩٨٥ تحت ضغوط المعارضة، ثم أُغلقت الجمعية بالقوة دون تحقيق، بتهمة المعارضة لحرب الخليج عام ١٩٩١.

كانت البلطجة قد بدأت تحت اسم الدين منذ السبعينيات خلال حكم السادات، بدعمٍ من الحكومة الأمريكية وتوابعها من الحكام العرب، وتم وضع أسماء مفكرين

وكتاب وشعراء في قائمة الاغتيالات أو الموت، وتم اغتيال الكاتب فرج فودة يوم ٩ حزيران/يونيو ١٩٩٢.

وضعت الحكومة المصرية (ليلة ١٠ يونيو/حزيران ١٩٩٣) حراسة مسلحة أمام شقتي بالجيزة، بحجة حمايتي من الاغتيال. كما وضعت حارساً لا يفارقني ليل نهار.

كانت الحكومات (منذ نشوء النظام الطبقي الأبوي) تغتال من تشاء تحت اسم الحماية، كلمة الحماية سيئة السمعة. هجم البوليس على الناس وقتلهم تحت اسم الحماية، وهجم الرجل على المرأة وسلبها حقوقها تحت اسم الحماية، وهجم الجيش البريطاني سنة ١٨٨٢ على مصر ونهب القطن تحت اسم الحماية. وتحت اسم الحماية هجم الجيش الأمريكي عام ١٩٩١ على العراق ونهب البترول. وتحت اسم حماية أفغانستان من الشيوعية غزاها الجيش الأمريكي خلال الثمانينيات مع جيش أسامة بن لادن الإسلامي.

خرجت من شقتي بالجيزة في أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ إلى المنفى حمايةً لحياتي من الحكومة المصرية وأعوانها من التيارات الدينية المتصاعدة. وعدت إلى الوطن عام ١٩٩٨، لأعيش في شقة أخرى في شبرا.

كرهت شقة الجيزة، ففيها تعشّش ذكريات سيئة. ولم أعرف حينئذ ما يخفيه الغد لي من أحداث أخرى أكثر سوءاً في الدولة والعائلة.

في الدور السادس والعشرين بحي شبرا، تطل نافذتي على المدينة كلها، من هرم خوفو إلى جبل المقطم والقلعة، مساحات من بيوت الأسمنت يشقها نهر النيل كالخيط الرفيع يكاد يندثر، تقول ابنتي عنها: مدينة الأسمنت، القاهرة المقهورة منذ عصر العبودية، لا أكاد أرى شجرة واحدة خضراء في كل هذه المساحات من الأسمنت.

لكني أحب شقة شبرا أكثر من شقة الجيزة، فهناك على الأقل، أستطيع أن أرى السماء مفتوحة أمام عينيّ إلى ما لا نهاية، والشمس تدخل نوافذي كلها من الشروق

إلى الغروب. كانت الشمس في شقة الجيزة تتوارى وراء الجدران المتصاعدة يوماً بعد يوم، ولم يبقَ إلا شعاع ضوء رفيع يتسرّب إلى نافذتي قبل الغروب من بين العمارات العالية الجديدة، وضجيج السيارات في شارع مراد الممتد من ميدان الجيزة إلى سور حديقة الحيوان. اختفى صوت زئير الأسد تحت ضجيج الميكروفونات التي تزعق ليل نهار فوق المنارات والجوامع المتوالدة كالأرانب. كما تزعق الموسيقى الكهربية الأمريكية الصاعقة للأذن، في دكاكين الانفتاح والكنتاكي والديسكو وماكدونالد.

في كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ سافرت إلى المنفى خارج الوطن. لم يعد الوطن وطناً بل التهديد بالاغتيال بأيدٍ خفية. قائمة الموت نشرتها الصحف، وأُذيعت في ميكروفونات الجوامع، وتشمل اسم خمسين كاتباً مبدعاً منهم اسمي، الكاتبة المرأة الوحيدة بينهم. نظام مبارك هو امتداد لنظام السادات، يخضع لتوجيهات أمريكية، ويتبع مبدأ «فَرِّقْ تَسُدْ»، ويشجع الفتنة الطائفية تحت اسم التعددية والديموقراطية.

قالت ابنتي: كانت أياماً سوداء، كنت أنا صغيرة وكان أخي طفلاً. وعشنا وحدنا في شقة الجيزة وأنتِ بعيدة عنا في المنفى آلاف الأميال وراء المحيط والبحار، تنهشك الألسنة في النظام الحاكم في مصر، ونخبته المستفيدة، المسيطرة على الإعلام والثقافة والأدب.

التجربة القاسية مفيدة يا منى.

طبعاً يا أماه، من لا يعرف الألم لا يعرف الإبداع.

لم ينل مفكر أو كاتب مبدع حقه إلا بعد موته بأربعة قرون، فما بال المرأة المفكرة الأديبة؟

وضحكت منى:

ـ يعني ننتظر يا أماه عام ٢٥١٢؟

ـ لا ننتظر شيئاً يا نونا من هذا العالم.

ـ لا بد من تغييره يا أمي بالثورة.

ثورة واحدة يا ابنتي لا تكفي. ثورات وثورات لا بد أن تتوالى حتى يسقط النظام الطبقي الأبوي.

* * *

كم أُريق من الدماء في مصر منذ طفولتي في الأربعينيات من القرن العشرين؟ وكم أُريق من دماء الشباب الفدائي في حرب القنال في الخمسينيات، وفي المنافي وفي السجون في الستينيات، والسبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، وبداية القرن الواحد والعشرين حتى اليوم؟

منذ ثورة كانون الثاني/يناير ٢٠١١ كم أُريق من الدماء في الشوارع والميادين؟

كم بكت آلاف الأمهات دماً على أبنائهن؟

هذه الأم جعلتني لا أكف عن البكاء. كان ابنها علاء عبد الهادي طالباً في السنة الخامسة بكلية طب جامعة عين شمس، وتجاوز العشرين بعامين. قتلته رصاصة في أحداث مجلس الوزراء خلال كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١، أثناء اشتراكه مع زملائه في الثورة. لم تمر عشرة أيام على موته حتى أعلنت كلية الطب نتيجة الامتحان الأخير الذي أداه علاء عبد الهادي قبل وفاته بأيام قليلة، وحصل فيه على تقدير «ممتاز»، فقد كان متفوقاً كعادته في كل دراسته وأعماله. بعد أن نظر زملاؤه إلى نتيجة الامتحان أصابتهم نوبة من البكاء الهستيري، وقرر اتحاد طلاب كلية الطب إقامة نصب تذكاري له. أما والدته فقد حضرت من قريته بطنطا إلى القاهرة لتتسلم ملابسه من غرفته التي كان يسكن فيها مع زملائه بمنطقة حدائق القبة.

رأيت صورتها وهي تحتضن البالطو الأبيض والسماعة الطبية الخاصة بابنها علاء. وجه الأم المكلومة يعبر عن شيء يصعب التعبير عنه باللغة. تضم بالطو ابنها الطبي الأبيض، ابنها الذي قُتِل برصاص العسكر منذ أيام، وظهرت نتيجة امتحانه

بعد موته: «ناجح بامتياز»، تجمّدت الدموع في عيني الأم، وتجمّدت الدقات في قلبي. تصورت أن هذه الأم هي أنا. أردت أن أحوطها بذراعي، كما تحوط بالطو ابنها بذراعيها وتنشج بدموع متجمدة. كأنما تضم طفلها إلى صدرها. تحول البالطو في حضن الأم إلى جسد ابنها ذاته، ساخناً حياً في حضنها.

لا يظهر في الصورة إلا وجه الأم الشاحب الموجوع يحوطه السواد، وبالطو ابنها الأبيض تعتصره فوق صدرها بيديها المضمومتين عليه بقوة الحياة والموت. الدقات تحت ضلوعي تجهش دون بكاء، الدموع تتجمّد غصة في حلقي. أكاد أصرخ، فأخرج إلى الشارع أنادي على الآلاف والملايين لتنزل إلى الشوارع والميادين ولا تهدأ. لا تهدأ حتى نقتلع العسكر من الوجود، وحتى يُحاكَم قتلة علاء عبد الهادي وزملائه، ويُقتَلوا كما قتلوا الآلاف، وحتى لا يضيع دم الآلاف هدراً وتشربه الأرض والزمن، وحتى يستريح قلب هذه الأم وغيرها من آلاف الأمهات الثكالى الحزانى المكلومات، وحتى يستريح بلدنا من نظام فاسدٍ تابعٍ لقوى الاستعمار الخارجي والداخلي، نظامٍ فقد إرادته وكرامته مقابل المعونات من الدولارات والدينارات.

* * *

تكتب الصحف اليوم عن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. من أين هبطت هذه الهيئة علينا؟ ومن أين هبط حزب النور السلفي علينا؟ تهدد هذه الهيئة الجديدة بنشر وثائق تكشف عن تقديم حزب النور السلفي دعماً مالياً لتأسيسها.

قالت في بيان لها إن إنشاء هيئة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تم بتوجيه مباشر من القيادات العليا لحزب النور، وبدعمهم المالي والمعنوي الصريح، وتم طرح الفكرة في استفتاء داخلي بين أعضاء الحزب، وتمت الموافقة عليها بالإجماع. (نُشر ذلك في صحيفة «المصري اليوم»، في ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١، ص ٧).

في اليوم نفسه، قال رئيس المحكمة في الجلسة الثانية عشرة من محاكمة مبارك: «حق الضحايا والمتهمين في رقبتنا. سرنا في الإجراءات بما يرضي الله».

يعلم الجميع أن هذه المحاكمات تمثيلية سيئة الصنع، سيئة التأليف والإخراج. إنها «مهزلة القرن» وليس «محاكمة القرن» كما يسمونها. يمكن للمحامي المتمرس على النفاذ من الثغرات القانونية أن يثبت البراءة للقتلة، وكم من ثغرات في القوانين، طبقية أبوية تكيل بمكيالين أو ثلاثة أو أكثر، حسب القوة وليس حسب العدل.

تقوم القوانين مثل الدساتير والمواثيق الدولية والمحلية على القوة، والتمييز بين الناس على أساس قوة الدولة العسكرية والاقتصادية، وقوة الطبقة التي تحكم داخل الدولة، وتميز بين المواطنين على أساس الدين والجنس والطبقة والملّة والعرق والعائلة والمهنة وغيرها.

تسود العدالة المزيفة القائمة على الظلم، وتتسع الهوة بين العدالة الأخلاقية والعدالة القانونية.

قليل من القضاة من ذوي الضمير الحي ينشدون العدالة الأخلاقية بأي ثمن، مثل ذلك القاضي في محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة الذي ألزم المجلس الأعلى للقوات المسلحة (في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر) بوصفه المسؤول عن إدارة البلاد، بعدم توقيع أي كشوف طبية على عذرية الفتيات اللاتي يتم احتجازهن بمعرفة ضباط وجنود القوات المسلحة، سواء داخل الثكنات أو داخل السجون العسكرية. وذلك في الدعوى التي أقامتها سميرة إبراهيم التي تعرضت لكشف من هذا النوع، على يد أطباء من القوات المسلحة، أثناء اعتقالها بسبب مشاركتها في الثورة.

قالت المحكمة في حيثيات حكمها إن الكشف على عذرية الفتيات المشاركات في المظاهرات، بعد القبض عليهن وإيداعهن السجون العسكرية، لا سند له، ويخالف أحكام الدستور، ويعد انتهاكاً لحرمة جسد الأنثى وعدواناً على كرامتها.

إنه انتصار جديد للمرأة المصرية على المجلس العسكري الذي عيّنه مبارك بعد سقوطه في ١١ شباط/فبراير ٢٠١١ ليحكم البلاد.

أصدرت محكمة القضاء الإداري الحكم، بعد تأكّدها من حدوث واقعة مادية مسّت الحياة الشخصية للفتيات، حتى لا تتكرّر مثل تلك الوقائع. لكن حكم المحكمة ليس قابلاً للتنفيذ لأنه لا يوجد أصلاً قرار يقضي بالكشف على العذرية في لائحة السجون العسكرية، بل هو تصرّف شخصي يستوجب المساءلة الجنائية. والأمر مطروح الآن أمام المحكمة العسكرية العليا في ما هو منسوب للطبيب المجند المدّعى عليه بالكشف على العذرية. وقرّرت المحكمة تأجيل نظر الجلسة إلى ٣ كانون الثاني/يناير ٢٠١٢.

انطلقت مسيرات نسائية متضامنة مع سميرة إبراهيم وزميلاتها السبع عشرة من الفتيات اللائي تعرضن لكشوف العذرية بعد القبض عليهن في ٨ مارس/آذار ٢٠١١.

أصبحت سميرة إبراهيم بطلة، وعبّر الكثيرون عن شجاعتها وشجاعة أبيها. الأب الإنسان، ارتفع فوق الأبوة الذكورية ومفهوم الشرف الضحل، وشجع ابنته سميرة على رفع القضية دون خجل أو خوف.

* * *

الخوف أساس العبودية. هل قضت الثورة على الخوف؟

نجحت الثورة حين جذبت إليها الملايين من النساء والرجال والأطفال. الملايين من الشعب المصري تغلّبوا على الخوف المزمن من التمرّد والثورة.

تقوم العبودية منذ نشأتها على غرس الخوف في نفوس الأطفال. الخوف من التمرّد، ومن عصيان أوامر السلطة الحاكمة في المدرسة والبيت والدولة والدين.

الخوف يدفع الشعوب إلى الخضوع والذل والهوان. الخوف من العقاب والطمع في الثواب. الخوف من النار والطمع في الجنة.

تخضع الملايين لكل أنواع السلطة السياسية والدينية والعائلية منذ الولادة حتى الموت.

يتم تخريب العقل والضمير منذ الطفولة عن طريق التربية والتعليم والثقافة والأخلاق والدين.

الخوف هو أصل الاستعباد في التاريخ البشري. الخوف يقضي على مقاومة الإنسان للظلم والإهانة والكذب. عصيان السلطة الحاكمة يعني السجن والتعذيب في الحياة والحرق في النار بعد الموت، وعقاب آلهة السماء جزء من عقاب الحكام على الأرض. السلطة السياسية والسلطة الدينية لا ينفصلان منذ نشوء العبودية حتى اليوم؟

نجحت الثورة في إسقاط مبارك يوم ١١ شباط/فبراير ٢٠١١، وكسر الملايين حاجز الخوف من العقاب، وتشجع الرجال والنساء والشباب والأطفال، وخرجوا إلى الشوارع والميادين يهتفون: نريد إسقاط النظام.

تنحّى مبارك عن الحكم تحت قوة الملايين، لكنه لم يرحل. بقي في مصر داخل مستشفى فاخر بحجّة العلاج الطبي، وأصدر أمراً بعد التنحي بتعيين المجلس العسكري حاكماً للبلاد من بعده. لم يفطن الشعب الثائر لهذه الخدعة الأولى، التي أعقبها خدع كثيرة كادت تجهض الثورة تماماً.

كيف يصدر حاكم مخلوع أمراً ويُنفّذ؟

لم يُقدّم مبارك إلى المحاكمة الثورية فور تنحيه، وظل المجلس العسكري يماطل ويخدع الشعب، حتى يتم تهريب الأموال المنهوبة إلى الخارج، وينسى الشعب الجرائم التي اقترفها مبارك مع رجاله. الفساد والاستبداد ونهب البلاد ثلاثين عاماً، وقتل الآلاف من الشباب والشابات أثناء الثورة بالرصاص الحي. ثم يُقدّم مبارك ورجاله إلى محاكمة مدنية مراوغة، تُؤجَّل شهراً وراء شهر، ويتلاعب فيها محاموه بالقانون حتى يفلت من العقاب.

استمر المجلس العسكري في قتل الشباب الثائر واعتقالهم حتى اليوم، وينفذ المجلس العسكري سياسة مبارك، مع فلول نظامه الباقية في مواقعها تحكم وتسيطر على السياسة والاقتصاد والإعلام والثقافة والقوانين والدستور والانتخابات.

لم يحدث إلا تغييرات طفيفة ذرّاً للرماد في العيون، وجرت انتخابات مزوّرة هزلية لا تقل تزويراً وهزلاً عن محاكمة مبارك ورجاله. وتعاون المجلس العسكري مع قوى الثورة المضادة داخل مصر وخارجها لإجهاض الثورة، وتقسيم الشعب طائفياً تحت اسم التعدّدية وحرية الأديان.

جاءت إلى مصر اللجنة الأمريكية للحريات الدينية، وعقدت اجتماعات مغلقة مع الشخصيات السياسية من الحكومة والمعارضة، من يسار ويمين وأحزاب دينية إسلامية ومسيحية، وجمعيات حقوق الإنسان ومجالسها العليا. جاءت اللجنة إلى مصر واجتمعت بهم، حكومة ومعارضة. اجتمعت ببعض المثقفين، وأرادت أن تجتمع بي كواحدة من الكاتبات والمفكرات، وقررت أن يكون الاجتماع معي علنياً في حضور الصحافة. لكن اللجنة الأمريكية للحريات الدينية رفضت العلانية وتم إلغاء الاجتماع.

* * *

فجرت النيابة العامة في ٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٢ مفاجأة في الجزء الثاني من مرافعتها في محاكمة مبارك ونجليه وسبعة من مساعديه وحسين سالم رجل الأعمال الهارب، إذ أكدت أن وزارة الداخلية وهيئة الأمن القومي لم تساعداها ولم ترسلا تحريات أو أدلة أو قرائن حول القضية. واضطرت النيابة لأول مرة في تاريخها بسبب تقصير أجهزة الدولة أن تقوم بدورين، وهما جمع الأدلة بنفسها ثم التحقيق، واستمعت إلى ٢٠٠٠ شاهد، بينهم ضبّاط، تحدّثوا عن أوامر محدّدة صدرت إليهم بتسليح الشرطة بأسلحة آلية وأعيرة لمواجهة الثوار. وعرضت النيابة ١٦ تسجيل فيديو تظهر فيها قوات الشرطة وهي تقتل المتظاهرين وتدهسهم بالسيارات.

في اليوم نفسه تصاعدت الاتهامات المتبادلة بين مرشحي الانتخابات لمجلس الشعب. وأصدرت جماعة أنصار السنّة المحمدية منشوراً يكفّر من يصوت لقائمة الكتلة. وردّ حزب المصريين الأحرار بمنشور مضاد ينتقد استخدام الدين في الدعاية الانتخابية. وأصدر الحزب التابع للإخوان المسلمين بيانات تتهم الأحزاب الليبرالية باستخدام رشاشات آلية لمنع وصول الناخبين إلى اللجان. واستمرت المواجهة بين حزب الإخوان وحزب السلفيين واستُخدمت فيها الأعيرة النارية، وأبطل عدد من شباب الثورة أصواتهم ودونوا في بطاقات التصويت «لا أحد يصلح» و«يسقط حكم العسكر وحكم الدين».

وأعلن الأزهر بعد اجتماع برئاسة شيخ الأزهر أن إنشاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو خروج على سلطات الدولة المصرية ومزاحمة للأزهر في رسالته الدينية.

في ٧ كانون الثاني/يناير نشرت الصحف أن المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأمريكية فيكتوريا نولاند أعلنت في مؤتمر صحفي أن جماعة الإخوان المسلمين في مصر قدمت للولايات المتحدة ضمانات وتعهدات باحترام معاهدة السلام مع إسرائيل. وقالت إن أمريكا ستواصل السعي للحصول على ضمانات أخرى في المستقبل.

ونشرت الصحف أن النيابة العامة تطالب بإعدام مبارك ووزير داخليته شنقاً على جرائم قتل المتظاهرين، وشكّك الناس. قالوا إنها خدعة جديدة لامتصاص الغضب الشعبي العارم بسبب عدم تلبية مطالب الثورة، وأولها القصاص من قتلة الثوار.

وفي ٧ كانون الثاني/يناير أيضاً نشرت هذا الخبر: إسرائيل رفعت ميزانية الجيش أربع مرات، سراً، منذ ثورة ٢٥ كانون الثاني/يناير، زادت ميزانية وزارة الدفاع الإسرائيلية خلال عام ٢٠١١ أكثر من ٨٨٠ مليون دولار (تبلغ الميزانية ١٤،٥ مليار دولار). وطلب وزير الدفاع إيهود باراك مساعدات عسكرية من واشنطن بقيمة ٢٠

مليار دولار بينما تنفذ الحكومة المصرية أكبر عملية اقتراض بطرح سندات وأذون خزانة تبلغ قيمتها ١٧٠ مليار دولار.

قالت الصحف: هل تنهار جامعة الدول العربية تحت سيطرة قطر وأموال النفط لتصبح جامعة شرق أوسطية تكون لإسرائيل السيطرة عليها؟

هل تضاءل دور جامعة الدول العربية وأصبحت بالكامل تحت سيطرة أمريكا وإسرائيل والاتحاد الأوروبي؟ ولكن هل لعبت جامعة الدول العربية دوراً آخر منذ نشوئها حتى اليوم؟ ألم تكن بوقاً للحكام العرب التابعين للاستعمار الغربي، مثل الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومحكمة العدل الدولية والبنك الدولي وصندوق النقد ومنظمة التجارة العالمية؟ ألا تخضع كلها لسيطرة القوى الغربية الاستعمارية ومنها إسرائيل؟

* * *

الأمل الجديد في العام الجديد.

في عيد رأس السنة الجديدة ٢٠١٢ وصلتني بطاقات المعايدة من أصدقائي وصديقاتي من مختلف أنحاء العالم. كانوا طلابي وطالباتي في الجامعات الأوروبية والأمريكية التي قمت فيها بتدريس الإبداع والتمرد، ولم تنقطع صلتي بهم بعد عودتي إلى مصر. قضيت معهم سنوات نناقش الإبداع وعلاقته بالتمرد والثورة ضد النظام الطبقي الأبوي في كل بلد.

شاركوا جميعاً في المظاهرات التي عمت مدن العالم في خريف ٢٠١١ ضد جشع الرأسمالية والبورصات والسوق الحرة وتلوث البيئة والتسلح النووي وجرائم الحروب الاستعمارية ونهب الفقراء، وغيرها من أنواع الظلم والقهر للنساء والفقراء. شاركوا جميعاً في حركات شعبية في العالم كله، ومنها حركة «احتلوا وول ستريت» في نيويورك، وحركة شيكاجو وواشنطن وسياتل وبورتلاند، والمظاهرات في لندن أمام

البورصة وكنيسة سان بول، والحركات الثورية في فرنسا وأسبانيا واليونان وإيطاليا. وشملت المظاهرات ١٥٠٠ مدينة في مائة دولة منها دولة جنوب أفريقيا ونيجيريا والسنغال واليابان وهونج كونج، وغيرها وغيرها.

هذا هو الأمل الجديد في العام الجديد.

أين النخبة المصرية الثورية الجديدة؟

أتلقّى أسئلة كثيرة عن أسباب الردة التي أعقبت النجاح الأول للثورة المصرية وإسقاط رأس النظام وبعض أعوانه؟ ولماذا يظل جسد النظام القديم جاثماً على الحكم؟ لماذا لم تستطع الثورة فرض نظام ثوري جديد؟

تختلف الآراء في ذلك، فبعضهم يلوم حكومة عصام شرف ويرى أنها مثل غيرها من الحكومات السابقة. وبعضهم يلوم المجلس العسكري الحاكم ويرى أنه مجلس عسكري يملك منطق مبارك القديم. وبعضهم يلوم أحزاب المعارضة، سواء أكانت مدنية أم دينية أم يسارية أم يمينية.. أم وسط، والتي تعاونت سراً وعلانية مع الأنظمة السابقة الدكتاتورية المعادية للشعب. وبعضهم يلوم الإعلام المصري والعربي والعالمي المموّل من رأس المال والشركات النفطية والاستعمارية.

تأخذ الحيرة بالمفكرين المصريين المتربعين على عرش الإعلام والصحافة الحكومية والمستقلة والمعارضة، ويشير هؤلاء إلى كل شيء إلا أنفسهم، ولا يملك أحدهم الشجاعة أو الأمانة ليشير إلى نفسه قائلاً: «أنا أقدم استقالتي وأترك الصفحة في الجريدة القومية الكبرى التي كنت أحتلها منذ عشرين أو ثلاثين أو أربعين عاماً. لقد أرقت كثيراً من الحبر مدحاً وتمجيداً برؤساء مصر، وحظيت بجوائز وأموال ـ ولله الحمد ـ تضمن لي ولأبنائي وأحفادي رغد العيش».

حتى الاجتماع الأخير مع مبارك قبل سقوطه بقليل، حين راح السيد الرئيس يجتمع بعدد من الأدباء والكتاب والفنانين، كنت من هذه النخبة المحظوظة التي اختارها مبارك بنفسه. بعد الاجتماع عبّرت في مقالي عن امتناني للرئيس، لأنه كان اجتماعاً فريداً من نوعه وغير مسبوق، تكلم فيه الرئيس بحكمة منقطعة النظير. صحته أروع ما يكون، جسداً وعقلاً، وعقله يقظ وفذ وعبقري، وأعلنت أنني سأرشحه رئيساً للجمهورية في الانتخابات القادمة في أيلول/سبتمبر.

تبارت النخبة في مدح مبارك أيام سطوته، وهي النخبة ذاتها التي تتبارى في قدحه اليوم، وهي في مناصبها الأدبية والفكرية الرفيعة التي لم تتغير. من يبقي هذه النخبة في أماكنها؟ من يمنع ظهور النخب الثورية الجديدة التي ناضلت وتناضل ضد الزيف وفساد الحكام؟ في رأيي إن الثورة حققت سقوط رأس الحكم السياسي، لكنها لم تسقط رأس الحكم الثقافي والفكري الذي يقوم عليه الرأس السياسي والاقتصادي والإعلامي والتعليمي والأخلاقي.

تمر الثورات في التاريخ بمراحل ثورية متتالية، أولاها الثورة السياسية أي تغيير نظام الحكم في الدولة، وإصدار دستور جديد وقوانين سياسية جديدة، تقوم عليها الأحزاب والانتخابات والسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وتنظيم الصحافة والإعلام.

تعقبها ثورة ثقافية تسعى لتغيير التعليم والتفكير والقيم الثقافية والفنية والعلمية والعقائدية.

ثم تأتي بعد ذلك الثورة الأخلاقية، وتغيير القيم الأخلاقية الفردية والأسرية والاجتماعية. وهذه هي الثورة الأصعب والأعمق، الضاربة في جذور النظام السابق الساقط.

تخلع جذر الشجرة المريضة اليابسة من التربة، وتغرس بذرة جديدة لشجرة غضّة فارعة قوية مرنة الأغصان. وقد تغيّر التربة ذاتها بوضع سماد من نوع جديد وصحي.

أين ثورتنا المصرية من هذه المراحل؟ نحن في بداية المرحلة الأولى السياسية، ولن تكتمل هذه المرحلة قبل تغيير الدستور والقوانين والقضاء والتشريع والصحافة والإعلام. لقد تخلّصنا من بعض القيادات الصحفية والإعلامية، إلا أن الأغلبية منهم ما زالوا في أماكنهم يزاولون سلطاتهم وتأثيرهم السياسي في الرأي العام.

هذا هو سبب الشعور بالإحباط لدى الجماهير الشعبية، وإحساسهم بأن الثورة أُجهضت أو سُرقت بواسطة رجال النظام السابق الكامنين في الحكم الحالي. وهو إحساس صحيح، يؤكده هذا القلق الشعبي العارم، الذي يتجسد في المظاهرات التي لا تتوقّف في ميدان التحرير والشوارع والميادين في العاصمة والمحافظات، برغم عمليات القمع البوليسى والضرب والسحل والسجن والاعتقال، وتقديم بعض الشباب الثوار إلى المحاكمات العسكرية، وعدم تحويل أي من القتلة ورؤوس النظام السابق إلى محكمة عسكرية أو غير عسكرية.

لا شك في أن الإعلام السائد اليوم ينتمى إلى نظام مبارك، وقد عاش وترعرع في ظله وتمرّغ في نعيمه. وهو متشبّث بمكانه حتى الموت، يحاول الحفاظ على مكاسبه القديمة في ظل الثورة، ويدافع عن سنده الأكبر (مبارك) بطرائق مراوغة ملتوية تساعد على تأجيل محاكمته أو منعها حتى يفلت من الإدانة والعقاب، وبالتالي يفلتون هم أيضاً من المحاسبة على نفاقهم له، حتى لا يطلب أحد محاكمتهم معه، وحتى يظلوا في أماكنهم يحتلون الصفحات والأعمدة في الصحف والإعلام، ويمنعون ظهور أحد من النخبة الثورية الجديدة، أو النخبة القديمة التي تم نفيها بالقوة إلى الخارج أو إلى الداخل لمجرد رفضها النفاق وتمجيد الرئيس المقدس وزوجته وأولاده وأعوانه.

قوة الملايين والثورة الثقافية

انتشرت الأكاذيب عقب المذابح الأخيرة التى سقط فيها المئات من القتلى والمصابين، أغلبهم من أسر الشهداء والمصابين في المذابح السابقة منذ يناير الماضي. آباء وأمهات فقدوا أبناءهم غدراً وخيانة من السلطة الحاكمة قبل الثورة وبعدها. الأسر المكلومة المحزونة من مختلف الفئات والطوائف، جمعتهم المأساة الواحدة في المكان الواحد، يفترشون الأرض الإسفلت ليل نهار في صقيع البرد، وهم يطالبون بحقوق المقتولين برصاص الشرطة والعسكر، وأذنابهم من البلطجية، وأعوانهم في الخارج.

وبدلاً من إعطائهم حقوقهم المشروعة ينقض عليهم العسكر والشرطة وبلطجيتهم بالضرب والسحل والرصاص الحي، فيسقط منهم المئات والآلاف، من نساء وأطفال ورجال وشباب، دفعوا حياتهم ودماءهم وعيونهم من أجل تحريرنا وكرامتنا!

ألا نخرج إلى الشوارع والميادين بالملايين لنسقط القتلة الجدد كما أسقطنا مبارك وأعوانه؟

تنتشر الأكاذيب الملفقة إعلامياً، من يصدق هذه الحقائق المعكوسة؟

أن يتحول الضحايا المقتولون إلى قتلة مجرمين؟

فى كل جريمة ابحثوا عن المستفيدين؟ من يخافون من قوة الشعب المصرى وانعتاقه من عبودية النظام؟

عسكر وشرطة. نخبة متخمة مستفيدة. نخبة النظام القديم ونخبة النظام الجديد، يتنافسون على الحكم والأحزاب والانتخابات والبرلمان والإعلام والشركات والأموال.

يسكتون في صمت بليغ حين يريدون، أو يزعقون بنظريات سياسية أو دينية. يداهنون، يراوغون، يبسملون، يتحولون من اليمين إلى اليسار إلى الوسط أو العكس.

وإن أعياهم الأمر يسافرون للراحة والاستجمام، إلى المشتى أو المصيف، أو العمرة والحج، من مكة إلى الدوحة مروراً بواشنطن، وقد يشغلهم عشق جديد في موسم الربيع.

تلعب النخبة دورها في تدعيم الحكم، وتحاول إجهاض الثورة تحت اسم الثورة. كان المفروض بعد كل هذه المذابح أن يسقط المجلس العسكرى والنخبة من حوله، كما سقط مبارك وأعوانه، وكان المفروض أن تُلغى الانتخابات بعد الكشف عن الانتهاكات. لكن النخبة غارقة في صراعاتها على المناصب الجديدة، وإصدار بعض البيانات الثورية ذراً للرماد في العيون. لكن مبارك لم يسقط بالبيانات الثورية، بل بقوة الملايين المنظمة في الشوارع والميادين، ولن يسقط حكم العسكر ووزارة الجنزورى إلا بقوة الملايين، فالحق بدون قوة يضيع.

الانتخابات مستمرة برغم الدم المراق. إنها انتخابات غير قانونية تقوم على الأموال المدفوعة والتجارة بالدين. في جريدة «المصري اليوم» (١٧ كانون الثاني/ ديسمبر ٢٠١١) نقرأ أن أموالاً طائلة وجدت طريقها إلى المرشحين السلفيين من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية، وإلى الإخوان المسلمين من مرتادي مسجد النور الذي يؤمه الشيخ يوسف القرضاوى في الدوحة عاصمة قطر، ويقول الكاتب بالحرف الواحد: «لا نتحدث هنا عن ملايين عدة من الريالات

لكن عن مئات الملايين من الدولارات»، ومن قبلُ أعلنت هيلاري كلينتون عن توزيعها ملايين الدولارات على الجمعيات في مصر من أجل الديمقراطية؟ والصراع الخفي بين الحكومة والمجتمع المدني والأحزاب الدينية حول الأموال المدفوعة هنا وهناك؟ والمليارات غير المعروفة لدى الجيش؟

استُخدم شعار «الإسلام هو الحل» أو شعار «نحن ندعو إلى الحكم بشرع الله»، في الانتخابات على الرغم من أن الشعارات الدينية ممنوعة قانوناً؟ وتم تسجيل الأحزاب السلفية على الرغم من أن القانون يمنع الأحزاب الدينية؟

ويعلن رئيس حزب النور السلفي (في عدد «المصري اليوم» نفسه) أن بعض رجال الأعمال عرضوا عليهم المليارات؟

ألا يكفي كل ذلك لإلغاء الانتخابات المفروضة على الشعب المصري بالقوة والخداع؟ ألا يكفي ذلك لحل الأحزاب الدينية غير القانونية؟

ولا أقول عمل تحقيق؟ هل نتج شيء عن التحقيق مع مبارك وأعوانه؟

يتم التعاون دائماً بين سلطة الدولة والمال والدين والإعلام والثقافة والتعليم، ولا يمكن للقلة الحاكمة أن تفرض الظلم والتفرقة والقهر والفقر على الأغلبية من النساء والرجال والشباب إلا بالسيطرة على الأرواح والعقول. وتلعب النخبة دوراً في هذه السيطرة. والجهاز التعليمي الديني الثقافي، إحدى دعائم الحكم، لا يقل ضراوة عن جهاز البوليس والجيش والقضاء. إن استقل القضاء دستورياً، فإن عقل القاضي يظل خاضعاً للقيم التى تربى عليها، في البيت والمدرسة والشارع والثقافة المفروضة منذ الطفولة.

أحد القضاة في مصر أغلق لجنته الانتخابية لأن طابور الناخبات كان من نساء غير محجبات؟ قالوا إنه تربى في حضن الإخوان المسلمين، وآمن بأن حجاب المرأة أمر الله.

بعض الناخبات المنقّبات قمن بالتصويت لنساء كثيرات باستخدام أرقامهن

القومية. ويتخفّى الرجل أحياناً تحت النقاب ليقوم بأعمال منافية للأخلاق أو القانون. ومع كل الانتهاكات المعلنة تستمر الانتخابات، وتُقام الاحتفالات للناجحين من السلفيين والإخوان والعلمانيين والليبراليين.

الثورة الشعبية لا يمكن أن تنجح دون قوة الملايين المنظمة. أن تشتمل الثورة السياسية الاقتصادية الاجتماعية على الثورة الثقافية والأخلاقية والفنية والأدبية والتعليمية، فهذا أمر لم يحدث للثورة المصرية حتى اليوم، والسبب أن النخبة المثقفة التي سيطرت في عصر مبارك لم تتغير في معظمها. وإن تغيرت الوجوه، بعمليات شد الجلد وصبغة الشعر، فإن النظام نفسه لم يتغير.

انتشرت الأكاذيب بأقلام النخبة عن العرس الانتخابي. قالوا: الانتخابات التاريخية المجيدة، كما قالوا: حرب أكتوبر المجيدة، وثورة يناير المنجيدة، والمجلس العسكري المجيد، وحكومة الثورة العظيمة، من عصام شرف إلى الجنزوري.

تملّقوا الثوار في ميدان التحرير ثم انقلبوا عليهم. وتحولت البطولة الثورية الوطنية تحت أقلامهم المنافقة إلى محاولة لهدم الدولة، وإهدار هيبة الجيش، وزعزعة الأمن والاستقرار، وضرب الاقتصاد والاستثمارات والسياحة.

كان مبارك بطلهم في الحرب والسلام فأصبح اللص المخلوع. يتشمّمون الفريسة القادمة بأنوفهم المدربة على الصيد. يتحيّرون، ويخفّفون نبرة الشتائم. ربما يعود أو من يشبهه، من ترضى عنه أمريكا وإسرائيل!

يرث الأبناء عن آبائهم صفة النفاق كما يرثون لون عيونهم وشكل أصابعهم.

تنحفر الأفكار في خلايا المخ، وتذوب في الدم واللحم.

تتحول القيم الثقافية بمرور الزمن إلى ملامح بيولوجية، ترتسم على الأنف والفم والجبين.

تقتلع الثورة الثقافية الكذب السياسي والنفاق الديني من جذوره، في الجسد

والعقل والروح، في البيت والعائلة والشارع والمدرسة والحزب والجمعية والدولة. تغير الثورة الثقافية الشكل والشخصية، كما تغير الرجال والنساء والأطفال والمولودين الجدد.

نساء ورجال نتاج الفساد

جلس تحت الشمسية يشرب القهوة ويقرأ الجورنال. تشمّم رائحة الحبّان والبن المحّوج فاسترخى قليلاً. خلع نظارة القراءة. سئم متابعة الأخبار، ولم يعد جزءاً من القوى المتصارعة، فخرج من مولد السياسة بلا حمص. امتدت نظراته الواهنة إلى البحر والسماء، وفي المياه الزرقاء رآهما، الرأسان الأسودان، يرتفعان وينخفضان مع الأمواج. أحدهما مربع حليق، رأس حفيده الطبيب. والرأس الأخر شعره ناعم طويل، مربوط كذيل الحصان.

الحفيد جسده نحيف ممشوق كالرمح، يشق الموج كسمكة القرش. وهي مثل السمكة البياض، ذراعاها قصيرتان ممتلئتان، تسبحان بنعومة تحت الماء.

لم تتمكّن عيناه الكليلتان من اختراق سطح البحر، ورؤية التلامس في العمق.

* * *

في ميدان التحرير بعد سقوط مبارك، كان يمشي في المظاهرة حين سقط من الإعياء، فحمله الشباب إلى المستشفى. تناول أدوية الضغط والقلب. وهناك ثلاثة ممنوعات لا يقربها بأمر الطبيب: السجائر، والملح في الطعام، والفياجرا قبل النوم.

قال حفيده : السن لا يمكن مقاومته يا جدي.

تنهد : السن والحب أيضاً.

جفونه تغضّنت وسقطت رموشها، وانطفأت عيناه واصفرّ بياضهما. عروق متعرّجة زرقاء نفرت من يديه، وشفتاه لم يعد فيهما لحم، كأنهما مصنوعتان من السلك.

قال الحفيد : أنا قاومت الحب يا جدي.

ـ لم يكن الحب يا ابن ابني.

ـ وكيف عرفت يا جدي؟

ـ أنت من عائلة، وهي لم تكن شيئاً.

رد الحفيد : كانت خريجة الجامعة بتفوق.

ـ الرعاع دخلوا الجامعات بعد هوجة العسكر في يوليو ٥٢.

اندهش الحفيد: ألم تؤيد ثورة ٢٥ يا جدي؟ وأصبحت وزيراً؟ ورئيس مؤسسة؟ ثم أسست شركتك الخاصة؟

* * *

الشرفة تطل على البحر، يجلس جده يشرب القهوه ويقرأ الصحف. شيئان يدمنهما ولا يقاومهما: القهوة والصحف. لم يتذكر الفياجرا. أصبح يصنع القهوة لنفسه. فطورهما أيضاً يصنعه، ثم يوقظ زوجته العروس.

كانت تصحو قبله، وتصنع له القهوة والأومليت والباتيه في الفرن. تطبخ ما يحبه، صينية البطاطس في الفرن بفخذ الخروف، وتهمس في أذنه: «أنت حبي الأول والأخير». تقرأ مقالاته بشهية وتشهق: «أنت كاتب عظيم». تكتبها على الكومبيوتر ثم ترسلها بالإيميل للنشر.

تخرّج في كلية الصيدلة وتخصّص في الكيماويات. نشر مقالاته في الصحف، كما رأى زملاءه في السياسة يفعلون. أحب فتاة فقيرة في شبابه ثم تركها، كما رآهم

يفعلون. تزوج ابنة رئيس المؤسسة، وأنجب الأولاد والأحفاد، كما رآهم يفعلون.

هي من العشوائيات الجديدة. ماتت أمها بعد أن طلقها أبوها، وطردتها زوجة أبيها من البيت. اشتغلت خادمة، وعاملة نظافة، وتعلمت الكومبيوتر.

اتخذها مسؤول كبير سكرتيرة وعشيقة ستة شهور، ثم مات بسكتة قلبية.

تعرّفت على ممثل مسرح، وعاشت معه ثلاث سنوات، ثم تزوج المخرجة. عادت تشتغل عاملة نظافة ثم ممثلة كومبارس، وأصبحت عشيقة لممثل بالسينما حتى هاجر إلى كندا. تدربت على العشق سنوات عدة، وبدت العشيقات في نظرها أعلى شأناً من الزوجات. تخصّصت في اصطياد الفنانين الأثرياء، وكبار رجال السياسة، المتحمسين لتحرير النساء والفقراء.

أصبحت في النهار سكرتيرة مكتب، وفي الليل خادمة سرير.

بلغت الأربعين من العمر، وطاردتها كلمة عانس، فقررت أن يكون لها زوج مثل الأخريات.

وقع في شركها طبيب معروف، كاد يتزوجها، لولا أن ضبطته زوجته وهددته بالخلع، وخاف من الفضيحة وقطع علاقته بها. التقت أخيراً بالزوج المثالي، رئيس مؤسسة بالمعاش، لديه رصيد في البنك، وشركة خاصة، وأبناؤه وأحفاده تخرّجوا وتزوّجوا. تسلمت زوجته وسام الأم المثالية، وأفنت عمرها تخدم الأسرة والزوج. ذهبت إلى الحج مرتين، ولفت رأسها بالحجاب.

عيناه الكليلتان تتابعان الفتيات من تحت الشمسية. أجسادهن لدنة وسيقاهن ممشوقة، يتملّكه الحنين إلى الحب المشبوب في عهد الشباب.

كانت ترتدي بنطلون جينز ضيقاً، فخذاها مشدودان يهبطان إلى ساقين ممشوقتين. وعيناها ناعستان يقظتان. أنوثة خانعة متحفّزة صعبة المنال، يتصور الرجل أنها قلعة حصينة، إنْ غزاها يصبح البطل الأول والأخير.

كان يحلم بالبطولة منذ الطفولة. يحملونه على والأعناق يهتفون للزعيم، مثل النحاس باشا وسعد زغلول. خيّبت السياسة آماله، فلم يحظَ إلا بمنصب رئيس مؤسسة الكيماويات، وبضع مقالات جمعها في كتاب.

أصبحت تتمشى إلى جواره على الساحل. يظن الناس أنها حفيدته، ويقول لهم إنها زوجته، رافعاً رأسه بزهو، وتطرق هي في خزي.

عاد الحفيد من البحر ذات يوم، فرأى جده عارياً في الفراش، ملامح وجهه رمادية متجمّدة، وعيناه مفتوحتان جاحظتان في دهشة. وهي واقفة إلى جواره تلف جسمها بالبشكير.

مد الحفيد يده وأغلق عيني جده، وغطاه بالملاءة البيضاء من الرأس إلى القدمين، وهمس في أذنها: السن والحب ليس لهما دواء.

انكفأت فوق صدره العريض تكتم الضحك، وتنشج ببكاء عالي الصوت. تدفن نهديها بين ضلوعه القوية، تشم رائحة البحر.

كانت الأم المثالية الحائزة على الوسام قد ماتت. وصلتها ورقة بالبريد فرقدت ولم تنهض. لم تأخذ إلا الكفن الأبيض. أما الزوجة العروس فقد أخذت الشاليه على البحر، ونصيبها الشرعي من رصيد البنك وشركة الكيماويات.

الأرملة الشابة أصبحت ترتدي المايوه الأسود، حداداً على زوجها الميت. تلف شعرها بحجاب من الترتر، وتتمشى على الساحل وهي تتمايل. يمسك يدها الحفيد الطبيب، ويسير منتشياً منفوشاً كالديك، وهي تبربش بعينيها الناعستين من بين الرموش، وتفحص العجائز الجالسين تحت الشماسي.

صفحة من تاريخ مصر لم تدخل التاريخ

أشرقت الشمس منذ الصباح الباكر، فشعرت بنشاط وتفاؤل. منذ الطفولة وأنا أستقبل اليوم الجديد بسعادة غير مفهومة، كأن النوم يغسل كل ما مضى من ألم وحزن. تمتلىء حياتي منذ بداياتها الأولى بأحزان غامضة، فكأني عرفت الحزن وأنا في بطن أمي قبل أن أولد.

أثبت الطب أن الخلايا الجنينية تشعر بآلام الأم عبر جهازها العصبي في دور التكوين. تسمع نشيجها المكتوم وشهقاتها. تهتز مع ارتجاجات أحشائها الدفينة، ويسري الحزن إلى دمها عبر الحبل السري الممدود من الابنة أو الابن إلى الأم.

كانت أمي حزينة منذ ولدت وحتى ماتت مثل كل الأمهات في هذا العالم الذي يحكمه المال والسلاح والذكورية. يكفي أن يولد الجنين بعضو ذكري أسفل بطنه حتى يمتلك حقوقاً لا تملكها أمه ولا أخته التوأم.

لكني استطعت أن أتحدى هذا العالم المحكوم بمنطق أعوج، فكيف يمكن لعضو صغير في الجسم، عضو غير أساسي ـ لأنه إنْ قطع سهواً في عملية ختان فإن الولد يكبر ويعيش بدونه ـ كيف يمكن لهذا العضو الثانوي أن يضع القوانين والدساتير والشرائع والمواثيق والقيم في جميع مجالات الحياة، من العلم والأدب

والدين والأخلاق والثقافة والسياسة والاقتصاد والتجارة، إلى فراش الزوجية والجنس والحب والكره والنسب والإرث والولادة والموت.

بالأمس، ٢٠ شباط/فبراير ٢٠١٢ شاهدت برنامجاً في التلفزيون المصري لمدة ساعة حول الدستور الجديد. كان المذيع رجلاً، وكان الضيوف نصف دستة من الرجال، تحدثوا عن ضرورة تطبيق مبادئ الثورة في الدستور، أي: الكرامة والعدالة والحرية.

تحدثوا عن حقوق الأقباط والأقليات، عن حقوق العمال والفلاحين، وعن فئات الشعب وطوائفه، ولم ينطق واحد منهم كلمة حقوق النساء في الدستور. فتمنيت لو أستطيع أن أمد يدي إلى الشاشة وأصفعهم واحداً واحداً.

فتحت النافذة وتنفست الهواء المشبع بالدخان والتراب والضجيج. تأتي القاهرة في مقدمة مدن العالم تلوثاً وضجيجاً وتراباً ودخاناً، وقد سافرت إلى معظم بلاد العالم فلم أعانِ من التلوث كما أعاني هنا في مدينتي القاهرة المقهورة، حتى طوكيو وجدتها أنقى هواءً من القاهرة.

لكنني لا أفقد تفاؤلي الغريب غير المفهوم. أبتسم لليوم الجديد بقلب صافٍ بلون اللبن الأبيض. أدندن أغنية أحببتها منذ طفولتي، وأرقص على إيقاع لحن لا يضيع من ذاكرتي. أمارس الرياضة البدنية نصف ساعة كل صباح على شرفة البيت، وأذهب إلى النادي الرياضي مرتين في الأسبوع للتريض سيراً على القدمين لمدة ساعة كاملة والسباحة نصف ساعة.

ربما هي الرياضة التي تملؤني بالتفاؤل. أشعر أن جسمي خفيف ويعود إلى الشباب والحنين، إلى سعادة غامضة تشبه الحب الطفولي القديم.

أرشف شاي الصباح بلذة عارمة، ويمتد شعاع الشمس من النافذة إلى عظامي فيدفئها. أمد ساقيّ أمامي تحت الشمس وأغمض عيني مستمتعةً باللحظة الحاضرة الممتدة منذ الأزل وإلى الأبد.

من هو الفيلسوف الذي قال: «اللحظة الحاضرة هي كل شيء. اللحظة الحاضرة تلغي الموت لأنها هي الشيء الوحيد الحي».

فتحت عيني لأقرأ تاريخ اليوم، ٢١ شباط/فبراير ٢٠١٢

التاريخ ٢١ شباط/فبراير ١٩٤٦ لا أنساه رغم مرور ستة وستين عاماً. كنت في الخامسة عشرة من عمري تلميذة بمدرسة حلوان الثانوية في القسم الداخلي.

سهرت الليلة الماضية مع البنات نخطط للمظاهرة في الصباح، وما أن أشرقت الشمس حتى تجمعنا في الفناء، وكان عددنا بالمئات. كسرنا السلسلة الحديدية التي تغلق البوابة، وانطلقنا إلى الشارع نهتف بسقوط الإنجليز ومعاهدة صدقي – بيفن.

واليوم، وبعد مرور ستة وستين عاماً، خرج الآلاف من طلاب ثماني جامعات مصرية لإحياء ذكرى يوم ٢١ شباط/فبراير ١٩٤٦ الذي أصبح يوم الطالب العالمي.

انطلقت المسيرات الحاشدة من أمام مسلة جامعة القاهرة إلى مجلس الشعب مروراً بكوبري عباس، وهتفوا: يسقط يسقط حكم العسكر. ندّدوا بالمجلس العسكري وطالبوا برحيله عن السلطة، وتحقيق جميع مطالب الثورة ومنها إقرار قانون لمحاكمة قتلة الثوار، من الرئيس المخلوع حسني مبارك إلى رئيس المجلس العسكري المشير طنطاوي. رفع المتظاهرون صورة لوجه كامل مقسوم إلى نصفين أحدهما للرئيس المخلوع حسني مبارك، والآخر للمشير طنطاوي.

في ٢١ شباط/فبراير عام ١٩٤٦ قامت الشرطة بفتح كوبري عباس (بأمر من رئيس الوزراء وزير الداخلية آنذاك محمود فهمي النقراشي) عندما كان الطلبة يمرون من فوقه في المظاهرة المناهضة لاتفاقية صدقي ـ بيفن، المتعلقة بالاحتلال البريطاني لمصر، مما أدى لغرق ٢٣ طالباً في النيل. لكن المظاهرات استمرت وتجمع الطلاب بالآلاف في إضراب عام ضد سلطات الاحتلال البريطاني رداً على أحداث ٩ شباط/فبراير، وأدى الإضراب إلى التحام الطلاب مع العساكر الإنجليز في ميدان التحرير.

فتح الجنود الإنجليز النار على الطلاب، فحرق الطلاب أحد المعسكرات البريطانية. وامتدت الثورة الطلابية إلى أسيوط جنوباً والإسكندرية شمالاً، وسقط من الطلاب ٢٨ قتيلاً و٤٢٣ جريحاً، وتضامن مع طلاب مصر الشباب في سورية والسودان والأردن ولبنان وأعلنوا الإضراب العام. أصبح ٢١ شباط/فبراير هو يوم الطالب العالمي إحياءً لهذه الذكرى للنضال الطلابي.

في مظاهرات اليوم بعد ستة وستين عاماً هتف الطلاب المصريون:

قالوا علينا بلطجية واحنا طلبة جامعية

وده مفهومهم للحرية طلاب مصر بلطجية

وده مفهومهم للتغيير سجن صغير يبقى كبير

يسقط يسقط حكم العسكر.

محاكمة قتلة الثوار

القصاص القصاص، قتلوا إخوتنا بالرصاص

محاكمة المجلس العسكري على جرائمه

محاكمة مبارك وأعوانه والفلول

أول مطلب للطلاب الفلول بره الباب

الإفراج عن جميع المعتقلين

استعادة كل الأموال المنهوبة

إلغاء قانون المجلس العسكري

إطلاق الحريات السياسية

ضمان مجانية التعليم

كأنه لم يمضِ ستة وستون عاماً، وكأني أنا الفتاة الصغيرة التلميذة، أمشي وسط المظاهرة وأهتف: يسقط الملك، يسقط الإنجليز.

وكأن الزمن غير موجود.

كان أبي يحكي لنا عن ثورة ١٩١٩، وكان طالباً شارك في هذه الثورة التي أشعلها الطلاب من مختلف المدارس والمعاهد في مصر ضد الاحتلال البريطاني. انتشرت الثورة في جميع أنحاء البلاد، وشاركت فيها طالبات المدارس ومنها مدرسة السنية للبنات. كانت المسيرات تبدأ سلمية بالهتاف ضد الاحتلال حتى يطلق الجنود الإنجليز الرصاص الحي وتسيل الدماء، لذلك كوّن الشباب جهاز شرطة خاصاً أطلقوا عليه «البوليس الوطني» لحماية المتظاهرين والمتظاهرات من المندسين بينهم لتخريب المظاهرة وإشعال النيران في المباني، فيجد الإنجليز والحكومة الحجة لإطلاق النار واعتقال الطلبة.

لعب البوليس الوطني وتنظيم اليد السوداء دوراً في تحريك المظاهرات وتوزيع المناشير، واستمرت الثورة حتى تم الإفراج عن سعد زغلول. ثم صدر دستور ١٩٢٣ ببنود جديدة تحد من سلطات الملك، ولعب الطلبة دوراً كبيراً في الانتخابات التي فاز فيها سعد زغلول ثم تولّى رئاسة الحكومة، وصدر القانون رقم ٢٢ لسنة ١٩٢٩، الذي أصدرته وزارة محمد محمود باشا بضغوط من الإنجليز، للحد من حركة الطلبة ونشاطهم السياسي. وبرغم ذلك استمر الطلبة في نضالهم الوطني ضد الاحتلال البريطاني والملك، وقاموا بانتفاضتهم عام ١٩٣٥ وفرضوا على الأحزاب تكوين الجبهة الوطنية.

انفجر الطلاب في مظاهرات ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥ ضد التصريح البريطاني بعدم جدوى إعادة دستور ١٩٢٣ ودستور ١٩٣٠ لأن الأول لا يصلح للعمل، والثاني صدر ضد رغبة الأمة بالإجماع. ونادت المظاهرات بسقوط الوزارة، وأطلق البوليس الرصاص الحي على حشود الطلاب وهم يجتازون كوبري عباس، وفي

اليوم التالي ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر شهد الكوبري مظاهرات أكبر وسقط القتلى والجرحى من الطلبة، وتطور الكفاح الطلابي والإضرابات حتى تم إعادة العمل بدستور ١٩٢٣.

وشهد كوبري عباس بالجيزة عدداً من المظاهرات الطلابية، حتى ٩ شباط/فبراير ١٩٤٦. خرج الطلبة في مظاهرة ضخمة من جامعة فؤاد الأول في الجيزة، بالقاهرة، متوجّهين إلى قصر عابدين، فتصدى لهم البوليس وحاصرهم فوق كوبري عباس، وتم فتح الكوبري فسقط في النيل الكثير من الطلبة وغرقوا، كما أطلق البوليس عليهم النار وقتل وجرح أكثر من مائتي شاب، فيما عُرِف بمذبحة كوبري عباس، واضطر الملك إلى إقالة النقراشي وتشكيل وزارة برئاسة إسماعيل صدقي في ١٦ شباط/فبراير ١٩٤٦، وأعلن ٢١ شباط/فبراير ١٩٤٦ إضراباً عاماً ضد الاحتلال البريطاني.

وتطورت الحركة الوطنية الطلابية ضد الإنجليز والقصر حتى قامت ثورة ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢، وكان الطلاب والطالبات هم الذين مهدوا الطريق لهذه الثورة التى قادها تنظيم الضباط الأحرار، خاصة كتائب الفدائيين من الطلبة الذين شنوا حرب عصابات ضد القوات البريطانية في القنال عام ١٩٥١ وحتى حريق القاهرة في ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٥٢، فمات منهم من مات وحُبِس من حُبِس، ودفع الطلبة المناضلون من دمائهم وحياتهم ثمن ثورة ١٩٥٢، وقطف ثمارها ضباط الجيش، ومن حولهم.

وتعود بي الذاكرة إلى أيام الحزن والألم، حين كنت طالبة في كلية الطب، وقد تمت خطوبتي عام ١٩٥٠ إلى زميلي في الكلية أحمد حلمي، الذي أصبح عام ١٩٥٦ والد ابنتي الشاعرة والكاتبة الدكتورة منى حلمي. كان أحمد حلمي أحد زعماء كلية الطب في المظاهرات الوطنية، وقد سافر إلى القنال عام ١٩٥١ في كتيبة طلاب الطب، حاملاً سلاحه لقتال الإنجليز، ثم عاد ١٩٥٢ حزيناً مكسور القلب حتى مات. شهد مقتل أعز أصدقائه في القنال، بيد الإنجليز واليد الخفية في الحكومة المصرية

والقصر الملكي، وشهد الخيانة التي يرتكبها حكام مصر ضد الشباب المصري الفدائي، الذي يروي أرض الوطن بدمائه الطاهرة النقية.

هذه صفحة من تاريخ مصر لم تدخل التاريخ الرسمي بعد. يتم تزييف التاريخ المصري لصالح الحكام في الداخل والخارج، كما يتم تزييف تاريخ ثورة ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١١ بيد الثورة المضادة التي تحكم مصر اليوم.

ما أشبه الليلة بالبارحة

كنت في الخامسة عشرة من عمري، تلميذة بمدرسة حلوان الثانوية للبنات في القسم الداخلي، أعيش في عنبر كبير يشبه عنابر السجون، يضم ثلاثين سريراً من الصاج الصدئ ومن ضمنها سريري. ارتفعت أصوات البنات تهتف منذ الصباح الباكر: «الجلاء بالدماء».

قضينا ليلة الأمس ساهرات ونحن نعمل على تثبيت الحروف فوق صدورنا بالخيط الحريري الأحمر: لون الدم.

كان الشعب المصري، وعلى رأسه العمال والشباب الطلاب، يغلون غضباً ضد الاحتلال البريطاني والملك فاروق ورئيس الحكومة إسماعيل صدقي.

تشكلت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة بعد حادث كوبري عباس في الجيزة الذي أمرت الحكومة بفتحه، ليسقط في مياه النيل أعداد من الشباب المصري، من طلاب جامعة القاهرة بالجيزة. كان هؤلاء يسيرون في مظاهرة سلمية نحو قصر عابدين، مع غيرهم من طلاب الجامعات والعمال وبقية فئات الشعب المصري، لتقديم طلب الشعب إلى الملك فاروق بجلاء الجيش البريطاني عن مصر. وكان فتح الكوبري وغرق الشباب الجامعي، الفتيل الذي أشعل المزيد من الغضب الشعبي، وتمت الدعوة إلى إضراب عام يوم ٢١ شباط/فبراير تحت اسم يوم الجلاء.

شارك في الإضراب الموظفون والعمال والطلاب والفلاحون والحرفيون والمهنيون، ووجدت نفسي أسير بين الحشود، بين مئات الآلاف وأكثر، من رجال ونساء وأطفال ومن كل الفئات. سمعت طلقات رصاص تدوي، لكن الحشود ظلت تزحف دون توقف حتى قصر عابدين، وعرفت من بعد أن قوات الجيش البريطاني أرادت التصدي للمظاهرة وصوّبت الرصاص إلى صدور الشباب، فسقط منهم حسب ما نُشر فيما بعد ٢٥ قتيلاً و١٢٥ مصاباً. أصبح هذا التاريخ ٢١ شباط/فبراير هو اليوم العالمي للطالب المصري.

كنا نهتف: يسقط إسماعيل صدقي رئيس الحكومة. وكان إسماعيل صدقي خادماً للملك والإنجليز، من طبقة الأثرياء المصريين، المنتفعين والمرتبطين بالمصالح ورؤوس الأموال الأجنبية في مصر. وكان أيضاً يتملّق التيارات الدينية السياسية لقيام جبهة ضد الشعب المصري المقهور والغاضب، والذي يوشك على إعلان الثورة، في محاولة لإجهاض الثورة وتفتيت القوى الشعبية. تعاون إسماعيل صدقي مع بعض الأحزاب السياسية، التي تضم الطبقة الثرية الرأسمالية والإقطاعية وحزب الإخوان المسلمين الذي كان يعمل تحت اسم الدعوة للصلاح والتقوى وليس تحت اسم الحزب السياسي. وكشفت حقائق التاريخ أن الملك كان يتعاون في السر مع هذه القوى التي تعمل تحت راية الإسلام، بأمل أن يكون خليفة للمسلمين.

بعث الملك فاروق رسولاً إلى حسن البنا، المرشد العالم للإخوان المسلمين، يستشيره الرأي في اختيار إسماعيل صدقي رئيساً للوزراء. وبالطبع شعر زعيم الإخوان بالسرور والفخر لأن الملك يأخذ رأيه في مثل هذا الأمر المهم من أمور السياسة العليا.

كان الملك يعرف قوة الإخوان السياسية وصلتهم بالإنجليز أو صلة الإنجليز بهم، فالاستعمار البريطاني القديم مثل الاستعمار الأمريكي اليوم كان يفتح الطريق دائماً للتفاوض مع القوى الإسلامية والمسيحية، وغيرها من القوى السياسية، التي تصل إلى عامة الشعب في القرى والمدن، عن طريق الجوامع والكنائس والمشايخ والقساوسة، والأزهر والكنيسة القبطية وغيرها.

نرى اليوم خلال شباط/فبراير ٢٠١٢ كيف يلتقي الإخوان المسلمون بالمسؤولين الأمريكيين بصفة دائمة، ويتم التفاوض بينهم في السر والعلن، خاصة بعد أن استولى الإخوان على أغلب مقاعد مجلس الشعب، بسبب تعاونهم مع المجلس العسكري، الذي يحكم مصر منذ سقوط مبارك، وبعد تدبير انتخابات برلمانية متسرعة شكلية وغير سليمة.

منذ ستة وستين عاماً لم يكن الملك فاروق يختلف كثيراً عن المجلس العسكري، ولم يكن الإنجليز يختلفون كثيراً عن الأمريكيين، ولم يكن الإخوان يختلفون كثيراً عن الإخوان. إنها السياسة والمصالح المشتركة، وليس المبادىء.

بالطبع رحب المرشد العام للإخوان برئيس الحكومة الجديد إسماعيل صدقي، وفرح إسماعيل صدقي بتزكية الإخوان فتوجّه في اليوم التالي مباشرة لتأليف الحكومة إلى المركز العام للإخوان، ليترك بطاقة شكر.

رد له حسن البنّا الزيارة بزيارة، والشكر بشكر، ووقف المرشد العام في الجامعة وشكر الملك على تعيين إسماعيل صدقي، في الوقت الذي كانت المظاهرات الشعبية تهتف ضد إسماعيل صدقي، الذي كان يقتل ويسحل الشباب الثائرين كما يفعل المجلس العسكري اليوم.

اليوم يتصدّى الإخوان في مجلس الشعب وخارجه، لأي مظاهرة شعبية تخرج ضد المجلس العسكري، كما كانوا يفعلون مع أي مظاهرة شعبية تخرج ضد وزارة إسماعيل صدقي والملك والإنجليز.

استخدم الإخوان السكاكين لفض المظاهرات، كما استخدموا الآيات من القرآن لتأييد إسماعيل صدقي.

وسط حشود الطلاب والطالبات في إحدى المظاهرات سمعت زعيم الإخوان من الطلبة (ينادونه مؤمن) يخطب ضد المظاهرات والإضراب العام، رافعاً إسماعيل صدقي إلى مصاف الأنبياء، مردّدا الآية الكريمة (واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً).

وبعد أن عدت إلى البيت حكيتُ لأبي فقال ساخراً: «الإخوان مثل الشيخ أبو دقن (يقصد شيخ الأزهر) يتاجرون بالدين في وحل السياسة».

اليوم ١١ شباط/فبراير ٢٠١٢ أرى زعيم الإخوان يشيد بالمشير رئيس المجلس العسكري، ويعارض الإضراب العام الذي دعت إليه الثورة المصرية، قائلاً للشباب الثائر: أطيعوا أولي الأمر. الإضراب حرّمه الله لأنه يؤدي إلى خراب مصر.

أصبح الله مع الإخوان عام ٢٠١٢ كما كان معهم عام ١٩٤٦ وكما كان شيخ الأزهر يخطب عام ١٩٥١ بأن الله مع الملك المفدّى حفظه الله ذخراً للبلاد. ثم أصبح شيخ الأزهر يخطب بعد سقوط الملك بحياة الضباط الأحرار وعلى رأسهم جمال عبد الناصر.

كنت طالبة بكلية الطب حين تولى عبد الناصر الحكم. فرح الشعب المصري بالثورة لكن الفرح لم يستمر طويلاً، فهناك شيء في كرسي الحكم يُفسِد من يجلس عليه. يبدأ الحاكم مخلصاً للشعب ثم ينقلب عليه، وهي قصة متكررة في التاريخ. السلطة المطلقة تفسد صاحبها، وإن كان رئيس دولة أو رئيس عائلة أو قبيلة أو مؤسسة أو حزب. حتى الهزيمة الكبري عام ١٩٦٧.

تصوّرنا أن المحاكمات سوف تكشف فساد الكبار في الجيش والحكومة والقطاع العام، إلا أن ذلك لم يحدث، وتم الإعلان عن أحكام قضايا الإهمال، عام ١٩٦٨، في سلاح الطيران، اتّهم فيها صغار الضباط، وأصبحوا هم المسؤولين عن الهزيمة الكبري على الرغم من أنهم لم يكونوا إلا أدوات لتنفيذ قرارات الكبار في الجيش، مما أغضب الشعب المصري.

الطلاب والعمال بدأوا يخرجون في مظاهرات في ٢١ فبراير/شباط عام ١٩٦٨. وحشود من عمال المصانع الحربية بحلوان ومصانع أخرى، وحشود من طلاب الجامعات، خرجوا إلى الشوارع مطالبين بمحاكمة المسؤولين الحقيقيين عن الهزيمة، وارتفع سقف المطالب ليشمل الحريات العامة. وقد تصدّت لهم قوات الأمن، لكن

المسيرات استمرت واضطر جمال عبد الناصر إلى تشكيل وزارة جديدة يرأسها بنفسه وأصدر بيان ٣٠ آذار/مارس كما تم أُعيدت محاكمة كبار قادة سلاح الطيران.

اشتدت مظاهرات الطلبة ضد السادات عام ١٩٧١، الذي أعلن أنه عام الحسم. وتصدى السادات للمظاهرات بالضرب والسحل والسجن والتعذيب، لكن الغضب الشعبي والطلابي تزايد مع تزايد الفقر والغلاء والفساد والسيطرة الأمريكية الاقتصادية على مصر تحت اسم المعونة، حتى كانت انتفاضة الخبز الشعبية في ١٧ و١٨ كانون الثاني/يناير، بعد إعلان قرارات إلغاء الدعم وزيادة أسعار بعض السلع الضرورية للشعب مثل الزيت والجاز. وسقط العديد من القتلى والجرحى من الطلبة والعمال، واضطرت الحكومة إلى إلغاء قراراتها إرضاءً للجماهير. لكن السادات أصدر عام ١٩٧٩ لائحة بإلغاء اتحاد طلاب الجمهورية ومنع كل نشاط سياسي داخل الجامعات وتم تشكيل الحرس الجامعي لمطاردة الطلبة واعتقالهم تحت اسم الأمن الجامعي.

اغتيل السادات في ٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١ في عيد النصر، بعد أن أمر باعتقال ١٥٦٠ من المعارضين لسياسته. وكنت أنا واحدة ممن زج بهم في السجن، بعد أن نشرتُ مقالين في صحف المعارضة، انتقد فيهما سياسته التي أغرقت مصر في الفقر والقهر والتجهيل الإعلامي والتعليمي والثقافي، وتزايد تصاعد التيارات الدينية والفتن الطائفية، والخضوع المتزايد للهيمنة الأمريكية وإسرائيل.

اعتلى مبارك الحكم وأفرج عن المعتقلين (ومنهم أنا) بعد شهرين من اغتيال السادات، لكنه اتبع سياسة السادات ذاتها. بل اشتد الفقر والمرض والفساد والجهل والتبعية لأمريكا وإسرائيل، واشتد الاستبداد والقهر للطلاب بالحرس الجامعي، ومع ذلك لم يكف الطلبة والعمال عن التظاهر ضد حكم مبارك وضد العدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، والعدوان الأمريكي المتكرر على العراق، حتى كانت ثورة ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١١ التي بدأت بالشباب والطلاب ثم جذبت إليها كل فئات الشعب في كل المحافظات من أسوان إلى الإسكندرية مما اضطر مبارك إلى التنحي يوم ١١ شباط/فبراير ٢٠١١.

في ٢١ شباط/فبراير ٢٠١٢ خرجت حشود الطلاب من الجامعات المصرية للتظاهر ضد المجلس العسكري الذي يحكم مصر بعد مبارك.

يظل طلاب مصر وشبابها هم وقود الثورة، يدفعون دماءهم ثمناً لتحرير البلاد، ولا يخافون الطرد من العمل لأنهم لا يعملون بعد، ولا يخافون على أطفالهم لأنه ليس لهم أطفال بعد. إن دمهم يغلي بحيوية الشباب واندفاعهم وصدقهم وعدم المبالاة بالموت.

وما زال الطلاب والشباب يتظاهرون ويُقتل المئات منهم بنيران المجلس العسكري في شباط/فبراير ٢٠١٢، كما قُتِل الآلاف منهم بنيران مبارك في شباط/ فبراير الماضي.

ميدان التحرير في قلب مدينة لندن

أشرقت الشمس يوم السبت الماضي، ولم أدرِ إن كنت في ميدان سان بول في لندن أو في ميدان التحرير في القاهرة. يذوب الحلم في الحقيقة، ويختلط الواقع بالخيال. أعود طفلةً في العاشرة من العمر تحلم بالثورة، بالطيران فوق الحدود واجتياز البحار والأنهار. ترن في أذني الهتافات باللغة الإنجليزية فأندهش لحظة ثم أدرك أنني في ميدان سان بول في قلب مدينة لندن.

كانت أرض الميدان في يوم السبت ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١ مليئة بالخيام، وكأننا في ميدان التحرير أثناء ثورة كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير، وكان ينام تحتها المئات من الثوار والثائرات من الشعب الإنجليزى، الذين تركوا بيوتهم وأصبحوا يعيشون في الخيام على أرض الميدان.

نساء ورجال من كل فئات الشعب، ومن كل الأعمار والمهن والأشكال والألوان، من ذوي البشرتين البيضاء والسوداء، وما بينهما من درجات متعدّدة متدرّجة، من حمرة بيضاء إلى زرقة أو صفرة سوداء، من المهاجرين والمهاجرات أو من أهل البلد الأصليين. كان أغلبهم في عمر الشباب، وبعضهم عجائز ومرضى يسيرون على عكاز، أو يجلسون على مقعد متحرك ذي عجلات، لكن وجوههم تتألق بالحماس

والفرح تحت شمس الصباح، وأصواتهم تهتف للحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية والاقتصادية.

الهتاف في ميدان سان بول يشبه الهتاف في ميدان التحرير، والكلمات والمعاني والأهداف هي نفسها، الشعب الإنجليزي يتطلع إلى الحرية والعدالة مثل الشعب المصري وكل شعوب العالم، من كندا إلى أمريكا وأوروبا وأفريقيا وآسيا. من وول ستريت وبورصة نيويورك إلى بورصات العالم ومراكز الأوراق المالية والمضاربات والسرقات والنهب والقتل المقنّن المشروع تحت اسم الشرعية الدولية والمعاهدات الرأسمالية.

سألني صحفي إنجليزى من الجارديان: بمَ تشعرين وأنتِ وسط هذه المظاهرات التي تنادي بإسقاط الرأسمالية في لندن معقل الرأسمالية؟ فضحكت وقلت: أشعر بالفرح والفخر. لم أتصور أنني سأعيش لأشهد هذه الثورات الشعبية التي انطلقت من تونس ومصر ونقلت الثورة إلى بلاد العالم في الشرق والغرب.

تجمّعت من حولنا بعض شابات من الحركة النسائية الإنجليزية الجديدة. قالت إحداهن: لقد غيرنا اسم ميدان سان بول إلى اسم ميدان التحرير. وفعلاً رأيت الاسم الجديد بالحروف الإنجليزية على اليفط فوق المباني في الميدان في حي ويستمنستر، وأُزيلت اليفط القديمة التى تحمل اسم ميدان سان بول. سألت بدهشة: من قام بهذا التغيير، الحكومة أم بلدية ويستمنستر؟ فصاحت الشابات: نحن قمنا بتغيير اسم الميدان لتكون ثورتنا مثل ثورتكم في ميدان التحرير. لقد أصبح ميدان التحرير رمزاً عالمياً للثورات العظيمة السلمية ضد الرأسمالية والديكتاتورية والأبوية والاستعمار والحروب والعنصرية والصهيونية. فتساءلت: أنتم ضد الصهيونية أيضاً؟

رأيت أمامي واحدة من قيادات الحركة النسائية في إنجلترا منذ ستينيات القرن الماضي، اسمها سالما جيمس، وعمرها ثمانون عاماً، قالت: نحن نربط بين كل أشكال الظلم والقهر من الرأسمالية الإمبريالية إلى الصهيونية والعنصرية. كل هذه الأشكال

مترابطة وهي تعمل معاً ضد شعوب العالم وعلى رأسها الشعب الفلسطيني. نحن لا نفرق بين أشكال القهر الواقع على الفقراء والنساء والبيض والسود والمهاجرين.

سالما جيمس من أصل أمريكي، وأمها من أصل يهودي. لكن الحكومة الأمريكية طردتها خارج البلاد بسبب نضالها ضد الرأسمالية الجشعة والصهيونية العنصرية.

قالت: العدالة والحرية والصدق أهم عندي من القومية الأمريكية أو الدين اليهودي. فذكّرتني بالأستاذ الأمريكي نعوم تشومسكى الذي كرس حياته للدفاع عن العدالة والحرية، متجاوزاً قوميته وديانته اليهودية.

مساحة الميدان أقل من مساحة ميدان التحرير بالقاهرة، لكنه يقع بين قلعتين ضخمتين في مدينة لندن، بين كاتدرائية سان بول الشاهقة ومبنى البورصة الأعظم. قال أحد قيادات الشباب: اخترنا هذا الميدان معسكراً لثورتنا ضد أكبر رمزين للرأسمالية في بلادنا، البورصة أو «بيت المال»، والكاتدرائية أو بيت الرب «اللورد» الذى يحمي أصحاب المال والشركات الرأسمالية. وقد أغلق البوليس البورصة وأغلق أيضاً الكاتدرائية خوفاً من ثورتنا. تغلبت قوة الشعب الثائر على القوى الرأسمالية العريقة التي أفقرت ٩٩٪ من الشعب. شعارنا في هذه الثورة هو ١٪ من الشعب الإنكليزي يملكون كل شيء و٩٩٪ من النساء والفقراء والشباب والمهاجرين لا يجدون الضروريات.

أتحرك بينهم في الميدان، وأزور الراقدين تحت الخيام كما كنت أفعل في ميدان التحرير. أتطلع إلى اليافطة فوق الجدار حاملةً اسم ميدان التحرير بالحروف اللاتينية. ويلتقط شاب صورة لي وأنا أشير إلى اليافطة بدهشة: أنتم غيرتم اسم الميدان وليس الحكومة؟ قال الشاب: طبعاً نحن الشعب، الميدان يملكه الشعب وليس الحكومة، من حقنا أن نغير اسمه، إنه ميداننا وليس ميدان القديس بول.

فى حديقة هايد بارك (غير بعيد عن ميدان سان بول) كانت هناك دائماً ومنذ عقود أو قرون، منصة صغيرة في الركن الشهير المسمى «ركن الخطب» (سبيكينج

كورنر) يتجمع فيه بعض زوار الحديقة ليستمعوا إلى الخطب التي تتحدث عن فساد النظام الرأسمالى وضرورة إسقاطه. لكن هذه الخطب لم تكن تفعل شيئاً سوى تسلية بعض زوار الحديقة، وإشاعة الوهم بأن إنجلترا تتمتع بحرية الكلام والديمقراطية. وقد ألقيتُ خطبة في أول زيارة لي إلى مدينة لندن عام ١٩٦١ في هايد بارك قلت فيها إن الديمقراطية في ظل النظام الرأسمالى ليست حقيقية ولا تؤدى إلى تغيير النظام. ومنذ ذلك اليوم أصبحت أطلق على الديمقراطيات الرأسمالية اسم ديمقراطية هايد بارك.

منذ الطفولة سمعت أبي يقول عن البورصة إنها وكر الفساد المالى، وإنها وكر الإقطاعيين المصريين والاستعماريين الأجانب. وقد اختفت البورصة في مصر بعد ثورة ١٩٥٢ مع تحرر مصر من الإقطاع والاستعمار البريطانى، ولكنها عادت في عصر السادات مع الانفتاح الاقتصادي وسقوط مصر تحت هيمنة الاستعمار الأمريكي. واشتد الفساد المالي في عصر مبارك وأصبحت البورصة المصرية بؤرة الرأسمالية الجشعة والاستغلال، وأصبح المال محرك كل شيء. كل شيء يُباع ويُشترى بالمال عبر شبكة الإنترنت، بما في ذلك الضمير والحب والجنس والزواج والطلاق والأدب والفن والإعلام والفضائيات والأصوات في الانتخابات وتشكيل الأحزاب والجمعيات والتكتلات. أصبح كل شيء معروضاً للبيع والشراء في عالم السياسة والدين والأخلاق، وهبطت قيمة الإنسان والصدق إلى الصفر.

مذ ركبت الطائرة لأول مرة في حياتى عام ١٩٦١ لم أكف عن السفر إلى بلاد العالم. شاركت في كثير من المظاهرات العالمية ضد «الرأسمالية» الجشعة والأبوية غير الإنسانية في الشرق والغرب، من بومباي في الهند إلى بورت أليجري في البرازيل، إلى سياتل في أمريكا، إلى جوهانسبرج في جنوب أفريقيا، إلى برشلونة ومدريد وبروكسل وباريس وبرلين، حتى ميدان التحرير في القاهرة ولندن، وكان شعارنا المشترك «عالم جديد ممكن، بل ضروري». وأصبحت شبكة الإنترنت في خدمة الثورات وإسقاط الأنظمة الفاسدة والبورصات.

تحت الخيمة في ميدان التحرير

منذ «موقعة الجمل» بدأت أشعر بأن أي خيمة في ميدان التحرير هي وطني، وأن كل من فيها هم أسرتي. يهبط الليل والبرد وأنا جالسة تحت الخيمة أتحدث كأنني في بيتي، مع رجال ونساء أراهم لأول مرة، وشباب وشابات، وأطفال من كل الأعمار، كأنني ولدتهم في زمان ومكان لا أدري عنهما شيئاً. هذه الوجوه رأيتها في الحلم، أو في طفولتي، في المدرسة أو في الجامعة.

الدماء فوق الإسفلت كأنها دمي، يربطني بها حبل سري. رأيت هذا الدم فوق هذا الإسفلت منذ ستين عاماً أو أكثر. أنين الجرحى يذكرني بأنين أمي وجدتي في الليل، وهذه الرؤوس والعيون المربوطة بالشاش رأيتها من قبل. تسترجع ذاكرتي حياتي الطبية في مستشفى قصر العيني والمستشفيات الأخرى، في الريف والمدينة. والانتفاضات الشعبية ومظاهرات الطلبة والطالبات، على مدى السبعين عاماً الماضية، مذ كنت في العاشرة من عمري أخرج مع التلاميذ والتلميذات هاتفين: «يسقط الملك، يسقط الإنجليز. الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

أنتقل من خيمة إلى خيمة، كأنني أنتقل من غرفة إلى غرفة في بيتي. أصبحت مدعوة للمشاركة في الحوارات الدائرة تحت الخيام. ما أن أستقر في خيمة حتى يأتي

وفد من الخيمة المجاورة يطلبني لزيارتهم، من مختلف التيارات السياسية، اليسار واليمين والوسط، وحتى من الإخوان المسلمين؟

أمشي في الميدان يحوطني الشباب والشابات، ومنهن محجبات، عيونهم تلمع بريقاً وابتسامات مشرقة.

أصواتهم تتردد من حولي: «كان نفسي أشوفك ـ قرأت كتبك وأنا عندي أربعتاشر سنة ـ كتبك غيّرت حياتي ـ كتبك كلها في مكتبة أبويا في البيت ـ أمي قرأت كل كتبك ونفسها تشوفك».

رجل ملتحٍ يحمل المصحف يقول: «والله العظيم أنا أختلف معك في معظم كتاباتك، لكنّي أحترمك جداً لأنك لم تنافقي أحداً».

طفل يحمل علماً يشير إلى امرأة منقبة داخل خيمة: «ماما بتقول لحضرتك اتفضلي عندنا شوية».

امرأة تبتسم بما يشبه الدهشة، ورأسها ملفوف بحجاب متعدد الألوان، تقول: «مش مصدقة إني شايفاكي بعينيّ».

أمشي بينهم في ميدان التحرير وكأنني أمشي في نومي، ولا أكاد أصدق أن هذه هي مصر التي أحزنتني وأشقتني وكادت تقتلني.

كم حاولت الحكومات في عهد السادات ومبارك أن تعزلني عن الناس، أن تبعدني عن قرائي وقارئاتي، أن تصادر كتبي ومؤلفاتي، أن تستبعد اسمي من الكاتبات، ومن كل الأنشطة الأدبية والثقافية، أن تشوه سمعتي، وأن ترفع قضايا «حسبة» ضدي بتهمة الكفر والخروج عن الدين.

لم أعد أريد مغادرة الميدان، ولم أعد أريد العودة إلى بيتي.

أصبح ميدان التحرير وطني الذي كنت أبحث عنه منذ طفولتي.

أصبح البيت هو المنفى، والسجن البارد ذو القضبان الخفية، يعزلني عن دفء المشاعر الحقيقية.

كنت أخرج في الصباح من بيتي، دون تفكير، وأتوجه إلى ميدان التحرير، كأني ذاهبة إلى أهلي وبيتي. أقضي في الميدان ساعات عدة من النهار، أمشي على قدمي مع المتظاهرين والمتظاهرات، أتحدث وأتحاور، وآكل معهم دون أن أغسل يديّ، قبل الأكل وبعده ودون أن أسخن الخبز ليتحمّص، وأشرب الماء من زجاجة يشرب منها الجميع، وأقف في الطابور الطويل أمام دورة المياه في مسجد عمر مكرم، فلا أشعر بالتعب. ويغوص كعب حذائي في البرك الطافحة من المراحيض فلا أمتعض ولا أتأفّف.

تغمرني سعادة مجهولة لم تشعر بها تلك الطفلة في العاشرة من عمرها، وهي تجري في الغيطان الخضراء الواسعة وتسابق العصافير.

هل غيّرتني الحياة الجماعية الثورية في الميدان؟ هل عدت إلى طبيعتي الأولى؟ هل عثرت على حب حياتي المستحيل؟

تذكرت الأيام والليالي التي عشتها، على حافة نهر الأردن في الأغوار، عند الحدود بين الجيش الإسرائيلي المحتل ومواقع منظمة التحرير الفلسطينية.

كنت قد تطوعت طبيبةً، ضمن وفد الأطباء المصريين، لمعالجة المصابين من الفدائيين عام ١٩٦٨، بعد الهزيمة الكبرى في حزيران/يونيو ١٩٦٧.

كنت أنام في العراء وتحت رأسي قطعة طوب، أمضغ قطعة خبز مثل الزلط، أتغطّى بشوال من الخيش، وأشرب من حفرة في الأرض.

أسمع هدير الطائرات وأصوات الانفجارات، ثم يسود الهدوء. يغرق الكون في سكون غريب، ويتألق القمر فوق رأسي بضوء مبهر.

أسمع صوت أم الفدائي الشهيد تغني بصوت حزين، يشبه صوت أمي وهي تغني لي قبل أن أنام. روح ما هائم في الكون يعزف على العود لحن الحب القديم.

أغلق جفوني لأغيب في حلم الحرية المستحيل.

منذ الطفولة أحلم بالحرية على شكل الحب، وأحلم بالحب على شكل الحرية.

يقربني الحب من الموت. يصبح الموت شبيهاً بالحب، قريباً جداً وبعيداً، ممكناً جداً ومستحيلاً.

ثمانية عشر يوماً كالدهر

يمضي الوقت في ميدان التحرير بطيئاً وسريعاً على نحو غريب، نترقب كل لحظة سماع صوت مبارك يقول شيئاً. يبدو رحيله بعيداً مثل نجوم السماء، وقريباً جداً نكاد نلمسه بأيدينا، ونراه في عيون الملايين المتجمعة في الميدان، والأصوات ترج الأرض والسماء: «ارحل، ارحل. الشعب يريد إسقاط النظام».

كنت أمشي وأمشي ولا أكف عن المشي في أي اتجاه، مع حركة الكيان الضخم الأكبر من كياني، يحملني بقوة الدفع دون أن أحرك جسمي، كأن جسمي ذاب في الكتلة المتلاحمة المتحركة، تدفعها قوة أكبر من مجموعها، وأكبر من أعدادها البشرية. كأنها قوة غير بشرية.

أحد الفلاسفة من الزمن القديم، لا أذكر اسمه، حاول أن يجد تعريفاً لقوة الإله المعبود فقال: إنها قوة جموع الشعب المنظمة، المتجهة في لحظة معينة نحو هدف واحد. هذه القوة تقول للشيء كُنْ فيكون.

في كل خطوة أخطوها داخل هذه الجموع أكتسب قوة جديدة. وفي أعماقي ينمو الشعور الطفولي القديم بأنني قادرة على تغيير العالم أو عمل المستحيل.

* * *

هتفت بكل قوتي مع الملايين: «ارحل، ارحل». وانتظرت معهم، اليوم وراء اليوم، ثمانية عشر يوماً، لكنه لم يرحل. ظهرت صورته على الشاشة مرتين أو أكثر يقول شيئاً غير الرحيل.

شاب مفتول العضلات له شارب ولحية، بين أصابعه سبحة وفوق جبينه زبيبة، كان يصيح: «لا يمكن لمبارك أن يرحل إلا بإرادة الله». فتجمّع حوله بعض المتظاهرين، وطردوه خارج الميدان. كان واحداً من أمن الدولة متنكراً في زي رجل دين.

كنت أعود إلى بيتي آخر اليوم، أكاد أسقط من التعب، ولكن ما إن أصل إلى البيت حتى أفكر بالعودة إلى ميدان التحرير. تشدني قوة أكبر مني إلى هناك برغم الإعياء. رغبة أقوى من الموت تجذبني إلى الثورة وإن كانت الموت.

* * *

الشارع الذي أسكن فيه أصبح تحت سيطرة اللجنة الشعبية، وتطوّع عدد من السكان لحماية شارعنا من البلطجية.

كان مبارك يدافع عن بقائه في السلطة بنشر الجرائم والذعر وهو يقول: «أنا أو الفوضى». فاختفت قوات الشرطة والبوليس من الشوارع، وخرج البلطجية والقَتَلة من السجون يروّعون الأهالي. لكنّ الأهالي تجمعوا في كل شارع، ونظموا أنفسهم لحماية أنفسهم، رجالاً ونساءً وشباباً وأطفالاً.

رأيت ربات بيوت وأطفالاً يقفون في شارعنا، وفي أيديهم سكاكين مطبخ وأدوات حادة أخرى. تكونت من الأهالي فرق متعددة: فرقة للدفاع ضد البلطجية، وفرقة لتنظيم المرور، وفرقة لكنس الشارع، وفرقة لزيارة المصابين في مستشفى معهد ناصر على ناصية شارعنا، كان يُنقل إليه المتظاهرون المصابون في ميدان التحرير والشوارع والميادين الأخرى.

تكونت اللجان الشعبية في كل أنحاء مصر. وأصبح الشعب يحمي نفسه بنفسه،

وينظم حركة السيارات في الشوارع بدلاً من رجال المرور، ويقبض على البلطجية ورجال الأمن المتنكرين في ملابس مدنية.

تعاون السكان في كل مبنى وأضافوا للمدخل باباً حديدياً قوياً، ووضعوا الأسلاك الشائكة والمتاريس على مداخل الشوارع.

* * *

لم تحدث الفوضى التي توقّعها مبارك، بل شعر الناس بالأمان في بيوتهم وخارجها أكثر مما كانوا يشعرون في ظل النظام. أكثر الأمكنة أماناً كان ميدان التحرير، فقد تم تأمين مداخله كلها باللجان الشعبية والأسلاك الشائكة والمتاريس. لا يدخل أحد إلى الميدان دون تفتيش والتحقّق من شخصيته.

كنت أدخل الميدان من ناحية كوبري قصر النيل، فأجد عند المدخل عدداً من الشباب والشابات من لجان الأمن بالميدان، يبتسمون في سرور حين يرونني، ويهتفون قبل أن أظهر بطاقتي: «أهلاً يا دكتورة، اتفضّلي، نورّتي الميدان». يتعرّفون على وجهي، رغم استبعادي من الساحة الثقافية الحكومية في عهدي السادات ومبارك.

يوم ٢٨ كانون الثاني/يناير كان اسمه «جمعة الغضب». سقط فيه المئات من القتلى والآلاف من الجرحى برصاص الشرطة، والدهس بالسيارات في الشوارع وفوق الكباري ومنها كوبري قصر النيل وشارع قصر العيني وفي منطقة المتحف المصري، الذي اقتحمه البلطجية وسرقوه، برغم وجود قوات الجيش من حوله.

كان قرار مبارك قد صدر بحظر التجول من السادسة مساءً حتى السابعة صباحاً. لكن الشعب لم يحترم القرار وظلت الحشود تملأ الشوارع والكباري والميادين ليلاً ونهاراً.

انتصف الليل في الميدان واشتد البرد فقررت العودة إلى بيتي. رافقني ثلاثة من الشباب خارج الميدان، من ناحية كوبري قصر النيل، يبحثون لي عن تاكسي

يأخذني إلى شبرا. لم يكن هناك أي سيارة، فقررت العودة سيراً على القدمين. لم يتركني الشباب وأخذنا طريق الكورنيش وسرنا حتى ماسبيرو، ولم أشعر بالتعب بل بنشاط عجيب، مع الهواء البارد المنعش وأحاديث الشباب الثورية والنكتة التي رواها أحدهم وأضحكتني حتى الموت: «مبارك بعد أن مات التقى في الآخرة بالسادات وعبد الناصر. سألوه: سم واللاّ منصة؟ فأجاب: فايسبوك».

أجهدني الضحك وتوقفت عاجزة عن الاستمرار في المشي. وفجأة رأينا شاباً فوق موتوسيكل يتقدم نحوي ويسأل: حضرتك الدكتورة نوال؟

ولم يكن أمامي إلا أن أركب في المقعد خلفه، وجلس في المقعد الخلفي شاب من الثلاثة، حماية لي من السقوط، وعاد زميلاه إلى الميدان. وانطلق الموتوسيكل إلى بيتي وأنا متربعة فوقه (مثل الساندويتش) بين شابين من الثوار.

«فن المستحيل»

حوار بين نوال ومنى

أشرقت الشمس من خلال الغيوم صباح ٢٦ آذار/مارس ٢٠١٢

في الطريق من بيتي إلى المطار، كانت «منى» تقود السيارة وكان في عقلي يدور السؤال: ما هي الثورة يا منى؟

بالأمس جمعني لقاء مع مجموعة من شباب وشابات الثورة والاتحاد النسائي المصري. رأيت الحزن تحت الابتسامات، والأحلام الكبيرة تختفي تحت طبقة كالغيوم.

بوادر هزيمة؟ تعب يتسلل تحت يأس؟ هل تغلّبت قوى الثورة المضادة والتيارات السلفية؟ هل تردّدت كلمة «ما فيش فايدة»؟

انتفض المارد الراقد فى الأعماق: «يعني إيه ما فيش فايدة؟ كل شيء فيه فايدة حتى الفشل، ما فيش مستحيل».

الكلمات كالكهرباء اخترقت الغيوم، وأشرقت الوجوه بضوء الشمس.

توقفت السيارة وراء طابور من السيارات، وانطلقت التساؤلات: زحمة مرور؟

تنافس على محطات البنزين؟ انقلاب قاطرة لوري؟ مطاردة بلطجية النظام؟ القبض على واحد من الثوار؟ موكب أحد رجال الحكم الكبار؟

نجلس كالسجناء وراء الأبواب المغلقة داخل السيارة كالزنزانة.

ـ النظام ده لازم يسقط يا منى؟

ـ أنا حلمت امبارح إنه سقط.

ـ مجرد حلم يا منى.

ـ أعظم الأشياء تبدأ بالحلم.

ـ ما هي أعظم الأشياء؟

ـ لا أميل إلى كلمة «ما هي»، لا أهوى الماهيات: ما هي أعظم الأشياء؟ ما هي الثورة؟ ما هو الإبداع؟ ما هو الحب؟ ما هي الحياة؟ ما هو الموت؟ هذه أشياء تحدث لنا، نعيشها دون أن نعرف ما هي.

ـ يعني المعرفة غير مهمة؟

ـ المعرفة مهمة جداً لكنها محدودة بالعقل، أي بالزمان والمكان.

ـ كل شيء محدود بالزمان والمكان يا منى.

ـ إلا الجنون والأحلام الكبيرة.

ـ أعظم أنواع الجنون تصبح هي قمة العقل بعد النجاح. سقوط مبارك كان حلماً مجنوناً، واليوم هو واقع عادي.

ـ لا أحب كلمة عادي. لا يجذبني الشخص العادي. أحب المجنون.

ـ ما الفرق بين الحلم والوهم يا منى؟

ـ الحلم شجرة رأسها في السماء وجذرها ممدود في باطن الأرض، الوهم فكرة مجردة معلقة في الفضاء، مقطوعة الصلة بالواقع والحقيقة.

ـ الحلم يندرج تحت العلم والعقل المبدع المتمرد. والوهم يندرج تحت الخرافة والعقل الخانع المطيع.

ـ أجسام البغال وأحلام العصافير؟

ـ لهذا تحبين الثورة يا منى وليس السياسة؟

ـ السياسة هي فن الممكن والأحلام الصغيرة. إصلاح عيوب النظام عملية ترقيع. لكن الثورة هي فن المستحيل، تغيير النظام وخلق عالم جديد.

ـ الثورة خلاقة مبدعة مثل قصيدة الشعر. لماذا لا ترتقي السياسة إلى الشعر يا منى؟

ـ لأن النظام الحاكم يقوم على القوة والغلبة، السياسة مهنة في السوق.

ـ السياسي مثل المحامي والصحفي والإعلامي والحانوتي والطبيب والجزار. وهؤلاء يعملون حسب قانون التجارة: المكسب والخسارة والعرض والطلب. انظري إلى الصراع الضاري بين المرشحين على كرسي الرئاسة، ألا يشبه الصراع فى البورصة والسوق الحرة؟

ـ السوق الحرة ليست حرة، لأنها محكومة بالنظام نفسه، بالقوة والخداع وليس بالصدق والعدل.

ـ حرية السوق والسياسة هي حرية الأقوياء لاستغلال واستغفال الضعفاء.

ـ كلهم يغنون في سوق الانتخابات «با حبك يا مصر»، يغرقون الناس فى بحر الوعود الكاذبة، ويتكرر ذلك فى كل عصر وفي كل بلد.

ـ الخداع في بلادنا أشد.

ـ بسبب الجهل والتجهيل وليس بسبب الهرمونات أو الهوية أو القومية.

ـ لماذا يتخلى الثوار والثائرات عن الأحلام الكبيرة ويسقطون فى بئر الممكن؟

ـ بسبب خيبات الأمل المتكررة، والضربات المتلاحقة قبل التقاط النفس. بسبب الفشل، وراء الفشل، وراء الفشل.

ـ الفشل لا يقود إلى الهزيمة

ـ النجاح ليس إلا الانتقال من فشل إلى فشل دون فقدان الأمل.

ـ هذه عبارة جميلة يا مني.

ـ العبقرية هي صبر طويل واستمرار في العمل حتى النهاية.

ـ التوقف في وسط الطريق هو الخطر.

ـ لا أحب كلمة وسط. الثورة لا تعرف الوسط، والشعراء لا يعرفون الوسط. لا يعرف الوسط إلا الخائفون من السير حتى النهاية.

ـ في الاجتماع بالأمس مع الشباب والشابات قالت فتاة إنها سجلت حياتها في الثورة يوماً بيوم، لكنها فشلت في نشر كتابها، لأن الناشرين لم يتحمّسوا له.

ـ ولماذا لم تنشره على الإنترنت، قراء وقارئات النت أكثر من الذين يقرأون الكتب والصحف الورقية، أغلب الناشرين يحسبون كل شيء بمنطق الربح والخسارة، يدورون فى فلك الأسماء المشهورة، ولا يغامرون. أحلامهم صغيرة محسوبة بالأرقام.

ـ هل شارك الناشرون والتجار في الثورة؟

ـ الثورة تحتاج إلى المغامرة والشجاعة على اقتحام المجهول حتى الموت، وهذه صفة الشعراء والشاعرات وليس الناشرين. لم يتحقق الحلم الكبير وإسقاط مبارك إلا بالثوار والثائرات الذين واصلوا الثورة غير هيّابين من الرصاص والنار. كسروا حاجز الخوف الموروث منذ الأزل.

ـ الثورة غيرتني يا منى، أصبحت إنسانة أفضل مما كنت.

ـ اشرحي لي كيف.

- قبل الثورة بشهور كثيرة بدأت بكتابة رواية جديدة، وبلغت منتصفها تقريباً حين قامت الثورة. تركت الرواية لأعيش الثورة، وبعد أيام عدة أصبحت عاجزة عن العودة إلى حياتي السابقة، وأردت تغيير كل شيء، وليس نظام الحكم فقط. أصبحت حياتي داخل بيتي باردة، واكتشفت أن الشارع أيام الثورة أكثر دفأً من البيت، على الرغم من أن شهري كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير عز الشتاء. حين عدت إلى قراءة الرواية وجدتها باردة أيضاً، كأن واحدة غيري كتبتها في الماضي السحيق. ألقيتها بعيداً وبدأت كتابة رواية جديدة. بدأ القلم يمشي وحده فوق الورق بقوة الثورة، وسخونتها وطاقتها المبدعة المتفجرة من وراء الطبيعة والعقل والزمان والمكان.

كي تستمر الثورة

١ – بالطبع، سيكون للنساء العربيات دور أكبر وتأثير ومكاسب من التغيرات في المجتمعات العربية نتيجة الثورات الشعبية خلال العام ٢٠١١.

٢ – نعم، ستحصل النساء على حقوق أكثر من التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية المناهضة للقيم الطبقية الأبوية الموروثة من العبودية، والتخلّص بالتدرّج من العقلية الذكورية والتسلّط والاستبداد في الدولة والعائلة.

٣ ـ الحراك الشعبي تقوم به النساء مع الرجال. المرأة شاركت في الثورة في كل بلد، بدمها وحياتها وأولادها وبناتها وأحفادها وحفيداتها. نعم، تخلّصنا من رأس النظام الفاسد فحسب، لكن جسد النظام لا يزال يحكم من خلال العسكر والبوليس والإعلام والاستعمار الأمريكي الإسرائيلي، وبلاد النفط من السعودية إلى قطر.

٤ ـ تفرض المرأة وجودها وحقوقها من خلال الاتحاد والتنظيم والوعي. نحن نعيد تشكيل الاتحاد النسائي المصري الذي منعته سوزان مبارك، ويشترك فيه الشباب والشابات الذين صنعوا الثورة المصرية. وسوف نشكّل أيضاً الحزب الإبداعي الثوري كي تشمل الثورةُ العقلَ والفكرَ والتعليم، كما تشمل الدستور والقوانين والسياسة.

٥ ـ وصلت الأحزاب الدينية إلى مجلس الشعب في مصر من خلال انتخابات غير قانونية وغير عادلة، بل شبه مزورة، تحت اسم الديموقراطية. إنها جزء من خطة

الثورة المضادة في الداخل والخارج لإجهاض الثورة. وهذه الأحزاب الدينية تحاول حرمان المرأة من حقوقها الإنسانية لكن الصراع سيستمر ولن تهدأ الثورة، بنسائها ورجالها، حتي تحقّق كل أهدافها.

٦ ـ هذه الأحزاب الدينية تراوغ للقفز على السلطة، وهي تتشدّق بالديموقراطية والحرية والعدالة والكرامة والليبرالية أو الإسلام الليبرالي. وكل هذه التسميات ليست إلا شعارات مؤقتة للقفز على الحكم، لكن الشعب المصري كشف هذا الزيف ويواصل الثورة حتى النهاية.

٧ ـ المرأة مسؤولة عن تحرير نفسها بالعمل الجماعي النضالي الثوري مع كل الفئات المشاركة في الثورة، من الشباب والرجال والعمال والفلاحين والفلاحات وكل فئات الشعب الذين خرجوا إلى الشوارع بالملايين.

* * *

والرجل الثوري مثل المرأة الثورية يجب أن يحرّر نفسه بنفسه من الفكر الذكوري الطبقي الأبوي ومن العقلية الاستبدادية، وهذا يحدث من خلال المشاركة في الثورة على القيم القديمة في العائلة والدولة والمدرسة والشارع وفي كل مكان. إنه عمل يومي دائم وسلوك جديد في البيت والشارع، ينتج عن التغيير السياسي والدستوري والتعليمي والقانوني وليس التظاهر في الشارع فحسب. وعلى الثوار والثائرات أن يشكلوا المجلس الرئاسي الجماعي منهم أنفسهم كي يتسلّم السلطة من المجلس العسكري ومن الأحزاب الدينية.

على الثورة الشعبية أن تحكم نفسها بدستور جديد وقيم جديدة ولا تسمح لغيرها أن يسيطر عليها باسم الدين أو الجيش أو الشرعية الدستورية القديمة منذ نظام مبارك الذي سقط. وأكبر خطأ وقعنا فيه بعد إسقاط مبارك هو القبول بالمجلس العسكري ليحكم مصر. ويجب إصلاح هذا الخطأ سريعاً قبل نشوب الحرب الأهلية في مصر،

التي تخطط لها الثورة المضادة، لدفن الثورة وإعادة نظام مبارك بوجوه جديدة من العسكر والأحزاب الدينية والليبرالية المخادعة.

الأحداث الدامية التي حدثت في بورسعيد في الأيام الأولى من شباط/فبراير ٢٠١٢، وسقوط القتلى والجرحى بالآلاف من خيرة شباب مصر الرياضي، تؤكد أن الثورة المضادة بقيادة المجلس العسكري وأعوانه من التيارات الدينية، والذين قفزوا على مجلس الشعب، يخطّطون معاً للقضاء على الثورة المصرية الشعبية. لكن هذا لن يحدث لأن الملايين من الشعب، نساءً ورجالاً وأطفالاً، خرجوا إلى الشوارع ينادون بإسقاط حكم العسكر والدولة الدينية معاً.

النساء والثورة والأحزاب الجديدة

ما إن صدر القرار بتشكيل لجنة تعديل الدستور بعد سقوط مبارك، ووجدنا أن كل أعضائها من الرجال، حتى بدأنا في إعادة تأسيس الاتحاد النسائي المصري الذي حلّه الحكم السابق أكثر من مرة.

كان الحماس كبيراً من الشباب والشابات، وتكونت اللجنة التحضيرية، وأصدرنا البيان الأول الخاص بالاتحاد على الفيسبوك يوم ٢٨ شباط/فبراير ٢٠١١. واستمرت الاجتماعات والاتصالات بالمنظمات النسائية والشبابية للعمل معاً من أجل توحيد الحركة النسائية المصرية التي مزّقتها وزيرات ووزراء النظام السابق، وتم تنظيم مسيرة ٨ آذار/مارس في اليوم العالمي للمرأة، تصدى لها بلطجية الحكم وتحرّشوا بالشباب والشابات. لكن الحماس استمر، وتطور العمل لترتبط قضايا النساء بالقضايا السياسية والاقتصادية والثقافية.

اعترضنا منذ البداية على إجراء انتخابات رئاسية أو برلمانية قبل تغيير الدستور والقوانين لتتماشى مع أهداف الثورة. ولم تسفر لجنة تعديل الدستور عن شيء مهم، ولم يسفر الاستفتاء كذلك عن شيء مهم، بل لعبت هذه الإجراءات الشكلية الجزئية دوراً كبيراً فى بلبلة الرأي العام وتقسيم القوى الشعبية التى وحدتها الثورة.

«فرّقْ تَسُدْ» هو المبدأ الأساسي لأي حكم يتولّى السيطرة على الشعب، نساءً ورجالاً وشباباً، إذ أن هذا الحكم يتولّى تغييب الوعي أو تزييفه.

من البديهي أن وضع الدستور الجديد يسبق وضع القوانين الجديدة وهذا كله يسبق انتخاب مجلس الشعب الجديد، أو رئيس جديد. لكن البديهيات تغيب بفعل الإعلام والصحافة الحكومية والحزبية والشللية. يضيع الوقت والجهد في إقناع الشعب بقلب الأوضاع، وسرعة انتخاب الرئيس والبرلمان الجديد بالقوانين القديمة وبالدستور القديم، ويضيع الوقت في الدعاية لمرشحي الرئاسة والبرلمان.

تتم الاجتماعات غير المعلنة بين الحكومة ورجال الأعمال والمعارضة الشرعية (أصحاب السلطة والإعلام والصحف والإمكانات المادية الضخمة)، ويضيع الوقت في تصعيد قوى متخلفة تعمل لإجهاض الثورة الشعبية وتقسيمها. قوى سياسية واقتصادية تابعة للنظام السابق واللاحق تروّج للتساهل مع الفساد ونهب أموال الشعب تحت اسم التسامح والتصالح والرحمة، وتروّج للتيارات الدينية السياسية التي تتجاهل حقوق النساء وفقراء الشعب ممن يقومون بمسيرات تطلب أجوراً عادلة تتناسب مع الجهد والعرق.

* * *

ما هذه اللحى الغريبة الشكل التي أصبحت تطل علينا كل صباح في الإعلام والصحف؟ ما هذا الترويج لأفكار العصور الوسطى وخزعبلات استعباد المرأة والعامل والفلاح الفقير.

منذ التاريخ العبودي، ويسمّى علمياً «النظام الطبقى الأبوي»، ارتبط الاستغلال الاقتصادى للعبيد بالاستغلال الجنسي للنساء: كان العبد والأجير والمرأة ملكاً للسيد الرجل صاحب الأرض، وتم استخدام الأديان سياسياً لتثبيت القيم والنظم الأخلاقية المزدوجة التي تفرّق بين أخلاق البشر على أساس الجنس والطبقة والدين.

أصبح سكان العالم ينقسمون، كما قال أبوالعلاء المعري إلى قسمين: قسم لهم ذقون وليس لهم عقول، وقسم لهم عقول وليس لهم ذقون.

واليوم في القرن الحادي والعشرين تنتشر فى صحفنا وإعلامنا هذه اللحى الغريبة على الشعب المصري، المستوردة من بلاد الشرق والغرب والشمال والجنوب. يتساءل الناس: من ينفق على الدعاية لهذه اللحى في الصحافة والإعلام؟ ولماذا لا ينشرون الأعمال الأدبية القيّمة؟ كم من كتب قيّمة تظهر دون خبر واحد في الصحف أو الإعلام؟

صدرت لي رواية جديدة باللغة العربية ولغات أخرى لم أقرأ سطراً واحداً عنها في الصحافة المصرية والإعلام الحكومي وغير الحكومي. هل يسيطر على الإعلام والصحافة الحكمُ السابقُ الذي صادر كل ما يرفع الحجاب عن عقول الناس؟

بالطبع تلعب الأموال والمصالح، دوراً كبيراً فى الصحافة والإعلام، وفى تشكيل التكتلات والأحزاب السياسية الجديدة. في الاتحاد النسائي المصري الجديد ليس لدينا إعلام ولا أموال، وأغلب الأعضاء والعضوات، من الشباب والشابات، من خريجي الجامعات أو المعاهد، لم يحصل أغلبهم على عمل، فيعيشون على موارد صغيرة، تأتيهم من أعمال متفرقة.

هم بعيدون تماماً عن الكتل المتصارعة في الساحة السياسية والاقتصادية والإعلامية، ورفضوا أي تمويل أجنبى، واختاروا الطريق الصعب، وهو أن يموّلوا أنفسهم بأنفسهم.

لكن هذا الطريق يؤخرنا عن تحقيق أهدافنا، خاصة في هذا الجو الانتهازي السياسى، والسباق المحموم والهرولة للترشح للرئاسة والبرلمان، لتكوين أحزاب جديدة، تنبت فجأة، ويعلن عنها فى الصحف، بأسماء عضواتها وأعضائها، بالمئات أو الآلاف.. تضم نساءً ورجالاً، نشأوا وترعرعوا وأثروا من النظام السابق، منهم وزيرات ووزراء سابقون، صمتوا عن الفساد والظلم ونهب الشعب، صمتوا السنين الطويلة وهم يرفلون فى نعيم الأنظمة السابقة، ثم ظهروا فجأة بعد انكماش مؤقت.

انتظروا حتى هدأت الثورة الشعبية العارمة، ليعودوا من جديد إلى التكالب على السلطة والثروة، ويشكلوا الأحزاب السياسية في ظلام الليل.

نصحو في الصباح على الخبر العظيم: تمت ولادة الحزب الحاكم الجديد، ويضم بعض أسماء بارزة فى المعارضة الشرعية، وأسماء في الحزب الحاكم القديم. وزراء ووزيرات، رجال ونساء أعمال، وأصحاب ملايين أو بلايين، وبعض أسماء شباب وشابات لم يعرفوا الثورة إلا كلاماً وصراخاً فى الإعلام والصحف.

قرأت لائحة أسماء الحزب الجديد المرشح للحكم من قبل الإعلام والصحف. ومنحوه الصفحات الكبيرة والكثيرة والشاشات والإذاعات، ووصفوه بالحزب العظيم الديمقراطي الوطني الثوري المناضل الذى يعبر عن صوت الشعب كله والثورة المجيدة كلها. إنه صوت المصريين جميعاً الذين يعشقون مصر ويموتون من أجلها.

لم أقرأ فى قائمة أعضاء الحزب المنشورة اسماً واحداً من الشباب الذين رأيتهم في ميدان التحرير، أو الذين فقدوا عيونهم أثناء الثورة، أو فقدوا ذراعاً أو ساقاً، أو تم إيداعهم السجون. الذين دفعوا ثمن الثورة بأجسادهم وعيونهم وأرواحهم، أين هم؟ من نجح في إخفائهم واستبدل بهم شباباً آخرين، يلتقون ليلاً بالحكام الجدد والقدامى؟

إلامَ يستمر خداع الشعب المصري؟ بالطبع نحن نعرف أن الثورات الشعبية لا تتحقق أهدافها في شهور، وأن فلول الأنظمة السابقة قد تقفز عليها مع بعض الوجوه الجديدة الانتهازية، التي تشكل بعض شرائح المعارضة من كل التيارات الدينية السياسية الاقتصادية، يسار، يمين، وسط، أو غيره.

لا توجد مبادئ في الصراع السياسي على الحكم والثورة، لكن مبادئ الثورة المصرية لن تجهض، طالما أنّ في مصر رجالاً ونساءً لهم ضمائر حية، وإحساس بالمسؤولية الفردية والجماعية. نريد لأصحاب الضمائر أن يرفعوا أصواتهم عالياً

وينظموا أنفسهم. أنتم لا تملكون المال ولا السلطة ولا الإعلام ولكن المستقبل للصدق والعمل المخلص. هذا هو تاريخ الإنسانية الذي حارب الرق والعبودية حتى اليوم.

∞ ∞ ∞



حقوق المرأة من أخذها وكيف تستردّها؟

النساء والدولة وفضيلة الركوع

هناك علاقة تاريخية بين تركيع النساء لسلطة الرجال في العائلة، وتركيع الدول المستعمَرة (بالفتحة فوق الميم) لسلطة الدول الأقوى المستعمِرة، (بكسر الميم). الطاعة هي القانون الأزلي لفضيلة الخضوع والركوع. يمدح الرجل زوجته لأنها «مطيعة وديعة»، وتمدح أمريكا «مصر» لأنها دولة معتدلة وديعة، تطيع الأوامر، وإن أطاحت بالقانون والقضاء والشعب كله.

لم تتغير فضيلة الطاعة منذ عصر العبودية، تغيرت اللغة والكلمات فحسب. أصبح الخداع اللغوي عبر تكنولوجيا الإعلام مبهراً، وتحول الركوع إلى كبرياء مزيف تحت اسم الحب والصداقة والديموقراطية والانتخابات الحرة والسوق الحرة.

بعد الثورات الشعبية أصبحت هذه الكلمات سيئة السمعة.

هل يصدق أحد لعبة الانتخابات البرلمانية أو الرئاسية أو لجنة الدستور أو حكاية التمويل الأجنبي للجمعيات الأهلية؟

يقول السيناتور الأمريكي جون ماكين للحكومة المصرية: «اخبطي راسك بالحيط فنحن نملك القرار النهائي».

ويقول المجلس العسكري للشعب المصري: «اخبطوا راسكم بالحيط واصرخوا في المظاهرات، فنحن نملك إصدار القرارات».

ويقول الزوج لزوجته: «اخبطي راسك بالحيط، أنا أملك القانون والدين والشرف».

عملية الركوع أو السجود لا تحدث إلا في العلاقات بين الأسياد والعبيد، أفراداً أو جماعاتٍ أو دولاً. ويطغى جنون القوة المطلقة على منطق العدل والعقل.

تقترن الطاعة والخضوع بحركة الجسم، الانحناء الشديد حتى الركوع على الركبتين، أو السجود بالجبهة فوق الأرض.

في المعتقل يضربون المسجون حتى يسجد ويمرغ أنفه في التراب، ويقولون له: «قول أنا مره». أكبر إهانة للرجل أن يصبح امرأة حسب القيم منذ عصر العبودية.

أحد الكتاب الصحفيين في مصر، كتب يقول إنه ضُرب في السجن حتى فقد الوعي لكنه لم ينطق قط كلمة «أنا مره».

نشر هذا الكاتب الصحفي ثلاثة كتب عن قضية تحرير المرأة، واعتُبر رائد النساء المصريات بعد قاسم أمين.

في إحدى الندوات نهضت أستاذة جامعية، وقالت إن الله أمر المرأة بالطاعة، وإن ضرب الرجل لزوجته يتفق مع الآية القرآنية «واهجروهن في المضاجع واضربوهن»، وأن سجود المرأة لزوجها مشروع حسب الحديث النبوي «لو أُمرت المرأة أن تسجد لغير الله لأمرتها أن تسجد لزوجها». ونهض طالب شاب قائلاً: «إن عملية الضرب أو سجود المرأة موروث منذ عصر العبودية»، وصفقت له الطالبات.

هل يمكن لإنسانة تحترم نفسها، أن تطيع أمر شخص دون اقتناع، وإنْ كان والدها أو زوجها أو رئيسها في العمل أو رئيس الدولة؟ فما بالك أن تركع له أو تسجد؟

وهل تختلف كرامة الإنسان حسب الجنس؟

تفقد المرأة المصرية كرامتها وتقبل الضرب أو الركوع، بسبب الضغوط الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو القانونية أو الدينية أو الأخلاقية أو النفسية.

الدولة تفقد كرامتها أيضاً تحت الضغوط الاقتصادية أو العسكرية أو السياسية

لكن هناك نساء ودولاً ترفض الضغوط وتقاوم وتثور وتتحرّر.

الدولة المصرية فقدت كرامتها وإرادتها تحت حكم الاحتلال الأجنبي، حتى عام ١٩٥٦ وتحرير قناة السويس من قبضة الاستعمار البريطاني. لكن هزيمة ١٩٦٧ الكبرى، وقبول المعونة الأمريكية (مع الانفتاح الاقتصادي) في السبعينيات، أعادا مصر تحت نير الاستعمار الأجنبي، والخضوع للهيمنة الأمريكية الإسرائيلية، مع تصاعد التيارات الدينية الذكورية المعادية للنساء.

التصريحات النارية في الصحف والإعلام المصري أن مصر «لن تركع» لأمريكا ولن تسمح بسفر الأمريكيين المتورطين في قضية التمويل الأجنبي.

عبارة «لن تركع» لا تحدث بين الدول المتساوية أو بين الأفراد المتساوين، فالقانون يحكم بينهم، وليس الطاعة والركوع. يقاوم الضعيف (العاجز عن اتخاذ القرار) بالزعيق والكبرياء المزيّفين، ويتكلم القوي بصوت منخفض ثم يتخذ القرارات. وتأتي الطائرة العسكرية لتنقل الأمريكيين من مصر، برغم إرادة القضاء والشعب والثورة وكل الإرادات. تطيع الدولة الضعيفة وتركع، برغم القسم بأغلظ الايمان أنها: لن تركع.

قال لي أحد الصحفيين إن الشعب المصري يشعر بالعار والهوان بدرجة غير مسبوقة في التاريخ.

قلت له: المجلس العسكري والحكومة هم من ركعوا وتهاونوا في كرامتهم وليس الشعب المصري.

قال: أصحاب السلطة المستبدة لا يمكنهم الاعتراف بالضعف. إنهم يتكلمون ويتصرّفون كأنهم الأبطال الأسياد ونحن العبيد.

قلت: أنت أحسن حالاً من زوجتك، أليس كذلك؟ فأطبق صامتاً.

كان يضرب زوجته إنْ هددته بالخلع بسبب علاقاته بأخريات.

في إحصائية أخيرة جاءت «مصر» بين الدول المتقدمة جداً (رقم ٤) في ضرب الزوجات، وجاءت متأخرة جداً (رقم ١٩٠) في **معالجة تلوث البيئة.**

في ١٢ شباط/فبراير ٢٠١٢ كتب د. علي جمعة مفتي الجمهورية مقالاً في جريدة الأهرام جاء فيه: «إن الاسلام قرر المساواة بين الناس جميعاً، أما الآية القرآنية التي تقول (الرجال قوّامون على النساء) [النساء – ٣٤] فهي لا تتحدث عن جنس الرجال وجنس النساء بل تتحدث عن الزوج وزوجته، حيث جاء فيها (فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن) ولا يصح لأي رجل أن يفعل ذلك إلا بزوجته».

هل من المعقول أن تكون الزوجة المصرية أكثر المضروبات في العالم، وتأتي مصر في مؤخرة المستعمرات الجديدة عام ٢٠١٢ برغم حضارتنا العريقة؟

العضلات السياسية في مصر وانسحاب المرأة

نجحت الثورة التونسية في التخطيط لوضع دستور جديد يقرر المساواة الكاملة بين النساء والرجال، في الدستور والقوانين السياسية والاجتماعية، تحقيقاً لمبادئ الثورة: العدالة، الحرية والكرامة.

شعرت بالسعادة وأنا أسمع هذا الخبر خلال مشاركتي في مؤتمر عالمي في بلجيكا في ٢٤ أيلول/سبتمبر ٢٠١١، تحدثت فيه وفود من تونس وفلسطين ومصر وبلجيكا وبلاد أخرى. حضر المؤتمر حوالى ألف امرأة ورجل، ولم أشعر بالغربة وأنا جالسة فى مجتمع تتساوى فيه النساء مع الرجال، وتعلو أصوات النساء مثلما تعلو أصوات الرجال، وتتساوى فيه فلسطين مع كل البلاد، ويعلو صوت فلسطين مثل كل أصوات الدول.

بالطبع لا يمثل هذا المؤتمر الحكومة البلجيكية، فهي مثل غيرها من الحكومات، غرباً وشرقاً، تتقن الألعاب السياسية والانتخابية المفروضة في عالم تحكمه القوة وليس العدل أو الحرية أو الكرامة.

لقد نظم هذا المؤتمر حزب العمال في بلجيكا، وسألت مرافقي الشاب البلجيكى «بيرت»: هل حزب العمال يعني الحزب الشيوعي؟ فقال: «لا، لقد اخترنا أن نسمي حزبنا حزب العمال لندافع عن حقوق العاملين جميعاً وحقوق النساء. وقد انتقدنا

الأحزاب الشيوعية في بلجيكا وأوروبا لأنها تخلت عن قضايا العمال والنساء، ولم تعد تختلف كثيراً عن الأحزاب اليمينية. ذاب اليسار الأوروبي في اليمين وذاب في الأحزاب المسيحية المحافظة، وبدأ ينافق التيارات الإسلامية الصاعدة في أوروبا. المشكلة الطبقية تشبه المشكلة الأبوية، وهي مشكلة طغيان القوة على السياسة، القوة العسكرية الاقتصادية مع القوة العضلية الذكورية، كلتاهما تؤيدها العقائد السياسية والدينية. لهذا تم تجاهل قضايا النساء والعمال تحت حكم اليمين أو اليسار».

قلت لبيرت: وهل أنت من اليسار؟ فقال: «لم نعد نهتم كثيراً بالعنوان أو الهوية، فنحن نهتم بالعمل وسط العمال والنساء». وفعلاً لاحظت أن القاعة ممتلئة بالنساء والعمال والشباب من مختلف الفئات.

سألني بعض الشباب والشابات من تونس عن المرأة المصرية بعد الثورة فقلت: نحن نصارع قوى الثورة المضادة التي تضرب حقوق النساء والفقراء معاً. كنا في ميدان التحرير قوة موحدة، نساءً ورجالاً، ومن كل الفئات دون تفرقة، وكان لا بد من أن نستمر في ميدان التحرير حتى نكوّن المجلس الشعبي الثوري كما حدث عندكم في تونس.

قالت شابة تونسية: «نعم لقد كوّنا المجلس الشعبي الثوري في تونس الذي يراقب ويوجه الحكومة الانتقالية. الجيش في تونس يتولى حماية البلد من أعداء الخارج، وليس للجيش سلطة في إدارة البلاد كما هي الحال في مصر. مطالب ثورتنا تنفذها الحكومة الانتقالية تحت إشراف الثورة من خلال مجلسنا الشعبي الثوري، لهذا لم يحدث الانفصال بين التغيير السياسي والتغيير الاجتماعي، ونالت حقوق النساء والعمال والفقراء الاهتمام، وتم تغيير الدستور لتحظى المرأة التونسية بنصف المقاعد لأنها نصف المجتمع».

توقفت عن الحديث وأصابتني غصة، وتذكرت الغربة التي أشعر بها في أي اجتماع سياسي في مصر، سواء بعد الثورة أو قبل الثورة. فقط خلال أيام الثورة في

ميدان التحرير زالت غربتي، إذ كنت أجلس تحت الخيام مع نساء ورجال لا أعرفهم، مسلمين ومسيحيين، شباباً وشابات لم أقابلهم من قبل ولكني عشت معهم في سعادة وأمل كأنهم من أفراد عائلتي. بل إن عائلتي الصغيرة البيولوجية بدت أقل حميمية من هذه العائلة الإنسانية الكبرى.

لو أننا كوّنا مجلسنا الشعبي الثوري في ميدان التحرير قبل أن نتفرّق لما حدثت الردة في حقوق النساء والشباب والعمال والفقراء ولما قبضت على الحكم القوى الرجعية القديمة، المتشبّثة بكراسيها في كل أجهزة الدولة، أو القوى السياسية الانتهازية التي تتسابق للقفز على الحكم في أي لحظة.

قبل سفري بأيام حضرت أحد الاجتماعات السياسية الكبيرة في القاهرة التي تظهر فيها العضلات الذكورية، والسباق المحموم للفوز في حلبة الانتخابات، والتنافس على اقتسام كعكة السلطة والمال والإعلام. شعرت بالغربة في بحر من الذكور من ذوي الأصوات الخشنة الزاعقة والقبضات القوية التي تضرب الهواء وكل من يختلف مع أصحابها. لم يكن هناك إلا قلة قليلة من النساء أغلبهن محجبات صامتات، وإنْ تكلمت إحداهن فهي تقلد الرجال في الصراخ والضرب بقبضة اليد، أو تتكلم بصوت خجول ناعم بأمل التأثير الأنثوي على الذكور.

كان الموضوع يخص الوطن كله وليس نصفه فقط من الرجال. لكن الاجتماع انتهى إلى قرارات سياسية تتعلق بالانتخابات والأحزاب، ولا شيء عن القضايا الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والتعليمية والصحية الملحة في حياة الأغلبية الساحقة من الشعب المصري، نساءً رجالاً.

بل كان هناك اتجاه طبقي أبوي يلفظ مطالب العمال والفقراء بطرف لسانه قائلاً عنها إنها مطالب فئوية غير مهمة، أما حقوق النساء والأمهات والأطفال المشرّدين فقد اتفق الجميع على أنها من صنع الغرب أو من صنع سوزان وجيهان وليلي وموزة ولوزة، وغيرهن من زوجات الحكام ذوي القبضة الحديدية، ومن بنات حواء الآثمة التي أخرجت آدم والبشرية كلها من جنة رضوان.

أصبحت حقوق النساء تتراجع بعد الثورة، وبدأت النساء بالانسحاب من المعركة الضارية حيث تُنتهك السمعة والجسد، كما يُنتهك كل شيء تحت اسم حرية الانتخابات.

هناك شيء ينتهك سمعة الثورة المصرية التاريخية برغم أهدافها الإنسانية العليا ووسائلها السلمية المتحضرة. وعلينا أن ننقذ ثورتنا من براثن أعدائها، وأن نعيد الوحدة إلى صفوفنا، نساءً ورجالاً، وأن نربط القضايا السياسية بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والصحية.

لقد تخلت الأحزاب والعضلات السياسية في الحلبة عن كل هذه القضايا التي قامت من أجلها الثورة، وعادت إلى اللعبة القديمة منذ العهود الغابرة.

وعلى المرأة المصرية أن تتحلّى بالوعي والشجاعة، وليس بالكعب العالي والماكياج وصبغات الشعر، وأن تتوحّد صفوفها داخل الاتحاد النسائي المصري ليصبح لها قوة سياسية وصوت مسموع محترم.

على النساء المصريات أن يربطن قضية المرأة بقضية الوطن، وأن يدركن أن بعض الرجال أكثر وعياً وحماساً لقضية المرأة من نساء يضربن حقوق المرأة بالانضمام إلى أتباع أو تابعات سوزان مبارك، باعتبارها رائدة تحرير المرأة المصرية، والحقيقة أنها لعبت دوراً كبيراً في مصادرة الاتحاد النسائي الشعبي وتفتيت الحركة النسائية في مصر، وإحاطة نفسها بالمنافقين والمنافقات في المجلس القومي للمرأة.

لقد حوّلت زوجات الملوك والحكام في مصر والعالم العربي الحركات النسائية الشعبية إلى حركة قلة نخبوية عليا، من كبار الموظفين والموظفات في الحكومات.

من السهل الحديث عن الثورة وحقوق الفقراء والنساء، وكل الأحزاب والعضلات السياسية تضع هذه الحقوق في المزاد في الموسم الانتخابي لتحصل على أصوات النساء والفقراء، وما أن ينتهي المولد حتى يعود كل شيء كما كان.

ألمْ يتعلم الفقراء والنساء الدرس؟

المرأة ورفع الحجاب عن العقل

شهر مارس/آذار في العالم هو شهر المرأة، و٨ مارس هو يوم المرأة العالمي. تلقيت دعوات من مختلف البلاد للتحدث عن الثورة والنساء والإبداع. في باريس جمعني اللقاء بنساء عربيات وفرنسيات ثائرات، وبرغم الفارق الكبير بين وضع المرأة في بلادنا وبلادهم إلا أن الثورة الفرنسية، مثل غيرها من الثورات فى أوروبا وأمريكا، ومثل الثورة المصرية والثورات العربية الأخرى، برغم اختلاف الزمان والمكان. هذه الثورات لم تواكبها ثورة لتحرير العقل من الرأسمالية الذكورية، ولم يتم تحرير النساء في أي بلد. القهر الاقتصادي الجنسي الأبوي الديني والفلسفي يختلف في الدرجة فقط من بلد إلى بلد.

ساعدت الثورات الاشتراكية في بعض البلاد على خلخلة النظام الطبقي الرأسمالي، إلا أن العقل الذكوري، المسيحي أو الإسلامي أو اليهودي أو البوذي أو غيرها، ظل مسيطراً على الأنظمة الحاكمة والشعوب. حتى في النظام الشيوعي، في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، ظل العقل الذكوري الأبوي مسيطراً في الدولة والعائلة.

من السهل القيام بثورة سياسية، وإسقاط رؤوس الأنظمة الحاكمة، لكن الصعب هو تغيير العقل والثقافة والفلسفة، والعلاقة بين النساء والرجال.

في ظل أنظمة اشتراكية قد تتحقق العدالة الاجتماعية نوعاً ما بين فئات المجتمع. يتمتع الرجال الفقراء، من الطبقات الدنيا، بحريات اجتماعية ودينية وأخلاقية أكثر من النساء من الطبقات الأعلى. وتظل قوانين العائلة كما كانت في الأنظمة العبودية.

أمامنا في مصر طريق طويل وشاق لتحرير النساء والأطفال من السيطرة المطلقة للرجال، لكن الثورة ستستمر وسوف تتغير قوانين الأسرة وينتهي عصر النظام الأبوي، كما ينتهي عصر الرأسمالية أيضاً.

لن أشارك في الانتخابات الرئاسية المقبلة فى مصر، كما أنني لم أشارك في الانتخابات البرلمانية السابقة، التي تم إجراؤها ضد إرادة الشعب المصري، والتي أدت إلى وجود مجلسي شعب وشورى لا علاقة لهما بالثورة وأهدافها الأساسية.

لن أشارك في لعبة انتخابية وسياسية، يتم فيها تغييب إرادة الشعب المصري من أجل إجهاض الثورة المصرية، والعودة بنا إلى النظام القديم بوجوه قديمة أو نصف جديدة.

السلطة الحاكمة في مصر اليوم «عسكرية سياسية مدنية ودينية» هي المسؤولة عن إجهاض الثورة. تعاونوا معاً من أجل حماية مصالحهم المرتبطة بمصالح النظام السابق.

تعاونوا معاً من أجل قتل الثوار والثائرات منذ ٢٥ كانون الثاني/يناير حتى اليوم، وتشويه سمعتهم، وضربهم فى السر والعلن.

ها هم رجال النظام السابق ونساؤه، يسيطرون على أغلب المناصب الجديدة والقديمة، في الدولة والحكومة والإعلام والبوليس والجيش وفي كل مكان.

ها هي المحاكمات تؤدي إلى لا شيء، ولم يُعاقَب أحد من الذين قتلوا الشباب ونهبوا ثروات البلاد.

ظهرت من جديد وجوه رجال ونساء تعاونوا سنين طويلة مع النظام السابق. ضربوا الحركة النسائية المصرية، وفتتوا جهودها، ومنعوا تكوين الاتحاد النسائي المصري، لتصبح زوجة الحاكم هي بطلة تحرير النساء، يعاونها أعضاء المجلس القومي للمرأة، الذى يُعاد تشكيله اليوم بوجوه قديمة ونصف جديدة، من أجل إجهاض الحركة النسائية الثورية التي تشكلت في ميدان التحرير، من الشباب والشابات معاً.

تم صنع أبطال وبطلات للثورة لم يشاركوا فيها، ولم يصبهم خدش واحد فى أجسادهم، ولا شعرة واحدة في رؤوسهم التي طيرها الهواء، في أي مظاهرة، في أي شارع.

يظهرون على الشاشات بمنتهى الأناقة، ويتشدّقون بكلمات الثورة.

ظواهر سياسية وإعلامية تم صنعها. رجال ونساء استفادوا قبل الثورة وبعدها، منهم رؤساء وزارات أو رؤساء مؤسسات بالدولة أو الهيئات الدولية، أو وزراء ووزيرات عملوا مع النظام السابق، وصمتوا على الظلم والفساد طويلاً، وأثروا ثراءً فاحشاً، وأصبحوا اليوم القيادات في الحكومة والإعلام وتحرير النساء.

وتم إبعاد الشباب والشابات الذين صنعوا الثورة، وشاركوا فيها، ودفعوا ثمنها من دمائهم وعيونهم وحياتهم ومستقبلهم.

أصبح هؤلاء الثوار والثائرات في السجون يُحاكمون ويُعذّبون، أو في المستشفيات يُعالجون من إصابات بالغاز والرصاص الحي. حُرموا من عيونهم أو أذرعهم أو أرجلهم، وحُرقت قلوبهم وقلوب أمهاتهم وآبائهم وإخوتهم وزملائهم وزميلاتهم في الثورة.

تم صنع انتخابات للبرلمان والشورى، ضد إرادة الشعب وضد أهداف الثورة. ويجري الآن الإعداد لانتخابات رئاسية لا تقل خداعاً عن الانتخابات البرلمانية، لتعيين رئيس جديد لا يقل استبداداً عن الرئيس السابق، يتلقى الأوامر من القوى المسيطرة في الداخل والخارج.

أصبح السباق في انتخابات الرئاسة يشبه السيرك أو البورصة. المرشحون يتنافسون على العرش حتى الموت. هذا هو التكالب على السلطة والثروة؟

كيف تجري انتخابات جديدة من دون دستور جديد؟ بدهية لا تحتاج إلى فقهاء في القانون، بل إلى ضمير حي يرفض الخداع والمراوغة للإبقاء على النظام القديم والمصالح المشتركة.

يتقاتلون في الانتخابات الرئاسية بهذه الشراسة؟ هل تهمهم مصالح الشعب إلى هذه الدرجة؟

أغلبهم تجاوز الستين أو السبعين، وأصبحوا مخضرمين في لعبة السياسة. هل السلطة مغرية إلى حد تجاهل الضمير والمنطق؟

انتخابات تُعرف نتائجها مسبقاً من وراء الأبواب المغلقة؟

نحن في حاجة إلى ثورة جديدة، ترفع الحجاب عن العقل المصري، وتحررنا، نساءً ورجالاً، من الجهل والتجهيل الذي نعيش فيه.

المرأة والجنس، الثورة والدستور

في الستينيات من القرن الماضي، صدر كتابي «المرأة والجنس» ويتضمن حقائق طبية تؤكد أن الشرف لا علاقة له بالعذرية.

كانت كلمة «العذرية» من المحرمات في مجال الطب والعلم، فكيف تُنشر على الناس في كتاب، بلغة عربية بسيطة، يفهمها الأطفال من البنات والأولاد في المدارس الابتدائية.

لسوء حظ السلطة الحاكمة المصرية أنني دخلت كلية الطب، وعرفت حقائق علمية لا يمكن السكوت عنها. وكيف لأي ضمير حي أن يسكت عن جرائم قتل البنات تحت اسم الشرف؟ وكيف يمكن لطبيب أو طبيبة أن يسكتا وهما يريان أمام أعينهما أطفالاً يتعذبون أو ينزفون حتى الموت تحت اسم عمليات الطهارة أو الختان.

صدرت الأوامر من السلطة الحاكمة حينئذ بإعدام الكتاب. لكن الكتاب ظل حياً تقرأه الأجيال المصرية والعربية، جيلاً بعد جيل، خمسة أجيال. وكم من أم وأب في مصر وخارجها قالا لي: «كتابك أنقذ ابنتنا من القتل».

تم اليوم إدانة جريمة فحوص العذرية وإيقافها، ويرجع الفضل إلى النساء المشاركات في الثورة منذ كانون الثاني/يناير ٢٠١١، وشجاعة «سميرة إبراهيم» وأبيها.

كم من أب يسكت، خوفاً من الفضيحة، إن تعرضت ابنته لما يمس العذرية، أو يقتلها، وإن كانت المجني عليها؟

جرائم الشرف وفحوص العذرية كانت تجري للبنات من قِبَل رجال العائلة في العصر الطبقي الأبوي منذ قرون، أو بواسطة رجال البوليس والسجون، ولا يعلم عنها أحد إلا الفتاة الضحية. تشعر بالعار فتسكت، ويسكت أهلها خوفاً من الفضيحة.

كلمة «العذرية» خرجت إلى العلن والنور بفضل الثورة المصرية، وسقطت عنها هالة التقديس والتحريم وشبح الدنس والعار.

نجحت الثورة في فضح القانون الأخلاقي الفاسد، كما فضحت الفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وأصبح الشرف هو الثورة ضد الكذب والفساد، ولم يعد للعذرية علاقة بالأخلاق.

صادرت الحكومة المصرية كتاب «المرأة والجنس»منذ نصف قرن وأكثر، وانتشر رجال البوليس والعسكر يجمعونه من المكتبات والأسواق. وأعلنت وزارة الصحة ونقابة الأطباء، ومشيخة الأزهر، أنه كتاب ضد الدولة والدين. ولأن كل ممنوع مرغوب، أقبل الآباء والأمهات على قراءة الكتاب لمعرفة الحقائق الطبية الخفية. لكنهم كانوا ـ من شدة الخوف ـ يقرأونه بعيداً عن أعين بناتهم وأولادهم. وكانت البنات والأولاد يقرأونه بعيداً عن أعين الآباء والأمهات، من شدة الخوف أيضاً.

درستُ علوم الطب لسوء حظي، وطاردتني الحكومات المصرية خمسة عقود. عرفت مضار عمليات الختان للبنت والولد، وعرفت أن ثلاثين في المائة من البنات يولدن بدون عذرية بيولوجية، أو بأنواع مختلفة من غشاء البكارة لا تنزف ليلة الزفاف.

كنت ألاحظ الداية تغرق البشكير بدم دجاجة بدلاً من دم العروس، وأسمع الهمس بين النسوة الكبار. فعرفت أن العالم كاذب مزدوج الوجه، في القرية والمدينة

والمدرسة والبيت والشارع. عالم قبيح يظلم الأطفال وخاصة البنات، وبالأخص الفقيرات والخادمات، والمولودات بدون أب أو أم.

منذ العاشرة من عمري حلمت بالثورة لتغيير العالم القبيح.

كانت البنت من عمري تُساق بالقوة والضرب إلى عريس من عمر أبيها أو جدها، ولولا صمود أمي الثائرة لتزوجت في العاشرة من عمري رجلاً فظاً يملك قطعة أرض مزروعة «تين برشومي»، ومنزلاً من دورين يشبه دوار العمدة. وكدت أتزوجه لأشبع من التين البرشومي اللذيذ، لولا أمي وحلم طفولتي.

كنت أرى نفسي محلّقة في السماء، أجتاز البحار والأنهار إلى عالم ليس فيه ظلم، ولا تزويج البنات الأطفال بالضرب، ولا طفلة تُذبح لأنها لم تنزف ليلة الزفاف، ولا رجال قلوبهم فظة ولهم شوارب وذقون كثيفة الشعر، ولا عائلة تفضل الولد على البنت، ولا مدرسة تفضل التلميذة الغنية على التلميذة الفقيرة، ولا عمدة ينهب الفلاحين ويضربهم بالكرباج، ولا ملك، ولا إنجليز يسرقون محاصيل القطن، كما يقول أبي وجدتي الفلاحة.

كانت كلمة «ثورة» تعني «الكفر». ننشد في المدرسة هذه الكلمات الثلاث «الله، الوطن، الملك»، كانت الثورة تعني الكفر بالثلاثة معاً، وفي وقت واحد، دون فصل أحدهم عن الآخر.

وكان الأب يملك السلطة المطلقة في القانون، ويبيع ابنته الطفلة لرجل عجوز نظير مبلغ من المال يسمونه المهر، ويطلق زوجته التي خدمته نصف قرن ليتزوج طفلة في العاشرة، ويجمع بين أربع زوجات في وقت واحد، يطلّق منهن ما يشاء، ويتزوج ويطلق دون سبب، إلا نزوته ومصلحته الخاصة، دون اعتبار لمصلحة الأسرة المقدسة.

في المدرسة كتبت قصة من الخيال بعنوان «مذكرات طفلة اسمها سعاد» وعاقبني المدرس بصفر، وتقرير سيىء يتهم فيه «خيالي» بالجنون والكفر والشطط والتطرّف.

الكلمات الأربع (الجنون، الكفر، الشطط، التطرف) تصف بها الحكومات المصرية أي خيال إبداعي يثور ضد الظلم والإهانة.

تخيّلاتنا وأحلامنا كانت تُعاقب. وعرفت السجن والمنفى وتشويه السمعة وقضايا الحسبة بسبب الخيال وحلم الطفولة.

يندرج حلم الطفولة في دفاتر السجن تحت اسم: «قلب نظام الحكم».

إذا قالت الملايين المتحدة في نَفَسٍ واحد: «نريد إسقاط النظام» يتحول الحلم إلى ثورة ويسقط النظام.

الوحدة هي قوة الشعب أو أي مجموعة مقهورة. ولا يمكن أن يتحرر العمال دون اتحاد عمالي قوي، وبالمثل لا تتحرّر النساء، دون اتحاد نسائي قوي يوحد صفوفهن ويدافع عن حقوقهن.

لجنة وضع الدستور الجديد يجب أن يكون نصفها نساء حسب وجودهن في المجتمع، والدستور الجديد يجب أن يشمل هذه المبادئ الأساسية:

١- جميع المواطنين لهم الحق في الكرامة والعدل والحرية والسعادة والإبداع والخيال دون حدود.

٢- المساواة الكاملة بين المواطنين في الدولة والأسرة بصرف النظر عن الدين أو الجنس أو الطبقة أو العرق أو الطائفة أو غيرها.

٣- جميع القوانين تكون مدنية بما فيها قانون الأسرة، ولها مقياس أخلاقي واحد، تسري على الجميع بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو الطائفة أو الطبقة.

٤- النساء نصف المجتمع لذلك يجب أن تشكّل النساء نصف أي مجلس نيابي أو تشريعي أو تنفيذي أو قضائي أو غيره.

فتاة ثائرة في ميدان التحرير

رأيتها تمشي فى الميدان، جسمها ممشوق صلب كجذع شجرة، ورأسها مرفوع كأنه يحمل قرص الشمس، أو كأنها إلهة العدل «معات». شعرها مجعّد يحوط رأسها كالأسلاك، لا يلمسه أحد حتى يتكهرب، وبشرتها سمراء بلون الطمي المحروق. رموشها معفّرة بالتراب نافرة كالأشواك، وعيناها سوداوان تطلقان رصاصة على من يتجرّأ ويتحرّش.

اسمها ليس فيه التاء المؤنثة «فجر بنت فردوس»، ولدتها أمها فى السجن مع ظهور الشفق، ومع هالة الضوء المقبلة قبل الشروق.

لو قال عنها أحد «أنثى» تسقط فوق وجهه صفعة دون أن ترفع يدها، ولو نطق كلمة «حريم» تصيبه ركلة دون أن تحرك قدمها. تطل من روحها جاذبية خارقة، لا أنثوية ولا ذكورية، ومزيج من القوة والرقة وذكاء الفطرة. تبكي لأدنى سبب وتقتل في لحظة غضب.

عمرها خمسة وعشرون عاماً. هرب أبوها مع فتاة لعوب بعد أن حبلت بها أمها. فقتلته الأم ودخلت السجن وابنتها جنين في الرحم. وكان عمرها خمسة أعوام حين خرجت من السجن مع أمها وأخيها الرضيع. اغتصب السجّان أمها ثم أخرجهم الثلاثة

إلى الشارع، ولم يكن لأخيها شهادة ميلاد، وملأت أمها استمارة باسم «أب وهمي» في سجل المواليد. وأصبحت ترعى أخاها أثناء غياب أمها في الشغل.

تخرج الأم في السادسة صباحاً لتعود في السابعة مساءً. يبكي أخوها من الجوع حتى ينام، وترضعه أمه حين تعود. جف ثدياها من التعب وقلة الطعام، فأصبح يشرب اللبن المغشوش من السوق الحرة. يبكي طول الليل من المغص والإسهال، وتحوطه أخته بذراعيها وتبكي معه.

مرضت الأم ولزمت الفراش، وخرجت ابنتها إلى الشغل. كانت في الرابعة عشرة وأخوها في التاسعة، وأصبحت تنفق على أمها المريضة وأخيها التلميذ. اشترت له عجلة ليذهب إلى المدرسة، وأعطاها مخدومها «الأستاذ الدكتور» سلفة لتشترى العجلة وتسدّدها على أقساط.

يوم العيد كانت منحنية تدعك المرحاض، حين أحاطها الدكتور من الخلف بذراعيه، كأنه أبوها الحنون. ضربته بالشلاليت واللكاكيم، وعضّته بأسنانها الحادة فى أعز ما يملك، فانزلق فوق السيراميك المبلّل وفشل في اغتصابها.

عادت زوجته الأستاذة الدكتورة من السفر في اليوم التالي، فروت لها ما حدث. صفعتها الدكتورة وطردتها.

اشتغلت «فجر بنت فردوس» في بيوت كثيرة، في الزمالك والجيزة ومصر الجديدة. وأدركت أن الأسياد الكبار يخونون زوجاتهم في الخفاء، وتكتم النساء السر خوفاً من عقاب الله وحفاظاً على الأسرة المقدسة.

علّمت نفسها القراءة والكتابة والحساب، وادّخرت لتشتري الكتب والروايات إذ كانت تحب الأدب. ثم تزوجت «محمد» الذي أمضى في السجن ثلاث سنوات بتهمة سياسية، ولم يكن له إيراد بعد الفصل من عمله. ضمته إليها بحنان الأم والأخت والزوجة، وتولت وحدها مسؤولية الإنفاق والشغل داخل البيت وخارجه، حتى سجائره لم تحرمه منها، وكذلك «البسبوسة» والكتب التي يحب قراءتها.

يوم ١١ شباط/فبراير ٢٠١١ تنحّى مبارك عن الحكم وبلغت هي الرابعة والعشرين. بلغ أخوها التاسعة عشرة، فأدخلته الجامعة واشترت له دراجة «فسبا» بدل العجلة.

شاركت هي وزميلتها «خديجة» في الثورة منذ بدايتها في ٢٥ كانون الثاني/ يناير، ولم تعطّلها المظاهرات عن عملها في بيت الزوجية وبيوت الطبقة العليا.

تأخّرت في الليل يوم تنحّى مبارك، فسألها زوجها:

ـ اتأخرتي ليه؟

ـ كنت في ميدان التحرير.

ـ المظاهرات للرجالة مش للحريم.

ـ أنا مش حريم يا محمد.

ـ طبعا بقيتِ الراجل وأنا الحريم.

ـ الناس كلها في التحرير يا محمد.

ـ أنا قلت ما فيش مظاهرات، فاهمانى؟

فتحت الباب لتخرج، فشدّها من ذراعها وصفعها بعنف. ردت له الصفعة وقالت:

ـ إنت طالق يا محمد.

ـ الراجل هو اللي بيطلق يا حمارة.

ـ تبقى مخلوع زي «مبارك».

شاركت زميلتها «خديجة» في غرفتها بالشرابية.. بعد أن تنتهي من الشغل تذهب إلى ميدان التحرير، وتعود إلى الغرفة لتقضي الليل أو تبيت مع أمهات الشهداء في الخيام، أو في مستشفى الميدان. تساعد الممرضات في تطهير جروح المصابين والمصابات، أو تغسل الملابس والفوط، وتنظف الأرض من الدم والشاش والقطن.

أول كل شهر تذهب إلى بيت أمها، تناولها مصاريف البيت والدواء، وتترك لأخيها مظروفاً فيه نفقات الجامعة ومصروفه.

يوم المظاهرة النسائية قاتلت ضد البلطجية من العسكر والبوليس، تضربهم بالشلاليت واللكاكيم إن تحرشوا بالبنات والأطفال.

عادت إلى بيت أمها تلك الليلة، أنفها ينزف، وكان أخوها نائماً. في الصباح سمعته يقول: شباب الثورة دول عملاء بيقبضوا من أمريكا، والشابات دول عاهرات.

فغضبت وقالت: «دول أطهر ناس في البلد».

ارتفع صوت أخيها بالشتائم، وسمعت أمها تبكي في فراشها.

ـ مافيش مظاهرات.. أنا قلتها كلمة

قالت: الكلمة كلمتي أنا.

ـ عشان كده دايرة على حل شعرك.

ـ الدايرة على حل شعرها دي هي اللي بتدفع مصاريفك.

وخرجت وصفقت الباب خلفها.

في الليل سمعتها صديقتها تنشج بصوت مكتوم:

ـ أمي اتعذبت كتير يا خديجة، كان نفسي تفرح بابنها في أواخر عمرها.

رأيتها بالأمس تمشي في ميدان التحرير.

صافحتني بيد قوية، فتذكرت يد جدتي الفلاحة في طفولتى.

«مش عارفاني يا ضكطورة؟ أنا فجر بنت فردوس، قريت كتبك وعمري خمستاشر سنة».

الدستور، النساء، والخوف من الموت

لا يقوم بالثورة إلا إنسان، امرأة أو رجل، كسر عقدة الخوف من الموت. لكننا نتربى منذ الولادة على الخوف من الموت. فكيف نتخلّص منه؟

في طفولتي كنت أرى عزرائيل يتمشّى في الظلام على شكل رجل يشبه الضبع، عيناه من نار ومخالبه من حديد، يشبه الشيطان. وسمعت جدتي الريفية (أم أبي) تقول إن عزرائيل يأتي في الليل ليقبض أرواح الناس. أحياناً كنت أراها في منتصف الليل جالسة منتصبة في فراشها في حالة تحفّز وترقّب. أسألها لماذا لا تنام؟ فتقول: «عشان عزرائيل لما ييجي يلاقيني صاحية يمشي ويروح لحد تاني يقبض روحه». ثم أسمعها تضحك بصوت مكتوم، وتخفي فمها بيدها وتقول: «اللهم اجعله خير يا رب».

كانت تخاف الضحك مثل الموت، وتعتبره شراً سيأتي حتماً، فتدعو الله أن يجعله خيراً.

في المدرسة كان مدرّس الدين يقول لنا إن الله لا يحب الفرحين، فما بال البنت التي تضحك بصوت مسموع؟ وما بال البنت التي ترقص على الموسيقى وتغني؟ كان ذلك في الأربعينيات من القرن الماضي، ولم يكن الحجاب مفروضاً

على البنات في المدارس، وكان أبي وأمي يشجعانني على تعلَّم الموسيقى والرقص والغناء والرياضة البدنية.

تربيت في أسرة تحب المرح والضحك والأدب والشعر والموسيقى، حتى أشعار أبي نواس وبشار بن برد وجدتها في مكتبة أبي، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري وغيرها مما كان مُحرّماً في المدارس. وأدخلني أبي كلية الطب مع الرجال. كان يؤمن أن اختلاط الجنسين في المدارس والجامعات واجب وصحي للأخلاق.

بعد أن كبرت ودرست تاريخ الأديان اكتشفت أن الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى حرّمت الضحك على النساء وحرّمت عليهن أيضاً الكتابة أو الإبداع. وبعد أن درست الطب النفسي أدركت العلاقة بين شجاعة الإبداع وكسر الخوف من الموت، وعلاقة السعادة أو اللذة أو الضحك بالإبداع.

أمضيت بعض سنوات عمري في دراسة وتدريس العلاقة بين الإبداع والتمرد والثورة. يؤدي الخوف إلى الكبت الفكري النقدي. ويؤدي الكبت إلى كتمان الرغبة في الإبداع والفرح والضحك. ويؤدي كل ذلك إلى كبت الرغبة في مقاومة التمرد على السلطة الظالمة والثورة عليها.

منذ نشوء العصر العبودي تم تخويف العبيد والنساء من التمرّد والثورة على الظلم القائم في القوانين والدساتير ونظم التربية والتعليم.

هناك مخاوف كثيرة يتربى عليها الأطفال، منها الخوف من عقاب السلطة الحاكمة في المدرسة والعائلة والدولة. وترتبط هذه المخاوف بالخوف من الموت ومن العقاب بعد الموت، والحرق في النار.

تحرّرتُ من المخاوف الطفولية عبر السنين، وأدركتُ أن الخوف من الموت وهم كبير، لأن الموت غير موجود، أو على الأصح حين أموت لا أكون موجودة لأشعر بالخوف.

من أجل النجاة من عقاب السلطة يتعلم الأطفال طاعة الأوامر جميعها، في البيت والمدرسة والحكومة والدولة.

الطاعة أصبحت الفضيلة التي يتحلى بها النساء والعبيد. الطاعة هي السم القاتل للعقل النقدي، أي الإبداع، أي التمرد، أي الثورة، منذ الولادة حتى الموت.

سمات الطاعة والخنوع على وجوه الكثيرين والكثيرات. يكفي أن ننظر إلى الموظفين في الحكومة المصرية منذ عصر فخامة رمسيس الأكبر الأول حتى عصر فخامة الرئيس الأخير.

للجسد الخانع المطيع لغة مألوفة، انكسار العين أمام صاحب الأمر، انخفاض الصوت، التلعثم أو اللجلجة أو الثأثأة، مع العبارة التاريخية «حسب توجيهات السيد الرئيس».

ألا تذكرون هؤلاء الموظفين من درجة وزير (أو أكثر) الذين كانوا يرددون هذه العبارة كأنما هي صلاة يومية.

وجيش الموظفين في الحكومة من الملايين الذين يعيشون ويموتون دون أن يرف جفن النظام الحاكم، هذا النظام الذي ارتعدت فرائصه حين سمع هدير الملايين «يسقط النظام؟».

هؤلاء الموظفون تربوا من الطفولة على الخوف من نقد صاحب الأمر، فما بال نقد المأمور. يقول الواحد منهم حين تسأله: لماذا قبلت الهوان والظلم؟ لماذا لم تتمرد يا أخي؟

فيقول لك : «أنا كنت العبد المأمور». يقولها بذل وهوان دون خجل أو حياء.

حين يولد له طفل يسميه عبد المأمور أو «العبد»، أو تصغير كلمة عبد «عبيد»، وإن وُلِدت له بنت سماها «عبيدة»، وكم من أسماء في بلادنا مشتقة من كلمة العبودية.

هؤلاء الموظفون المطيعون المؤدبون أمام رئيسهم ينقلبون أسوداً أو ضباعاً كاسرة أمام مرؤوسيهم. ترتفع العين المكسورة إلى السماء، ويرتفع الصوت عالياً إلى جعير الجعّارة.

وجوه النساء الموظفات في الحكومة لا تختلف عن وجوه الموظفين، وإن كانت عيونهم أكثر انكساراً، خاصة الزوجات منهن. وجوه الواقفات في طوابير الجمعية للحصول على الفراخ لا تختلف عن وجوه الواقفات في الطوابير للتصويت في الانتخابات. البشرة الشاحبة المتخمة بالشحم المتراكم، بالخوف المتراكم من المجهول، من الموت أو المرض، من الفصل من وظيفة الحكومة، من ورقة الطلاق تأتي بغتة بالبريد، من الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة..

سألني صحفي: لماذا لم تنجح النساء في الانتخابات إلا نسبته واحد في المائة مع أن أغلبية الطوابير كانت نساء؟

فقلت: بسبب الخوف من الموت والضحك.

ضحك الصحفي وسألني: وما العلاقة بين هذا وذاك؟

قلت: الضحك يشجع على التمرد والثورة ضد كل المخاوف، حتى الموت.

النساء خرجن من بيوتهن بأمر الرجال للتصويت للرجال خوفاً من الرجال، وليس للنساء برنامج حزبي ولا اتحاد نسائي، ولا بند في الدستور ينص على حقوق النساء اللاتي يشكّلن ٥٠ في المائة من المجتمع. كل هذا ممنوع بالقانون والشريعة.

وسألني الصحفي: «وماذا تريدين من بنود جديدة في الدستور؟ فقلت: أريد بنداً يشجع الأطفال والبنات والأولاد على السعادة والضحك والإبداع والخيال الجامح غير المحدود، وعدم الخوف من الموت.

المرأة المصرية وأمر الله؟

قرأت في «المصري اليوم» بتاريخ ١٩ نيسان/أبريل ٢٠١١ مانشيتاً يقول: «بيان حريمي غاضب ضد استبعاد السيدات من حركة المحافظين».

تنم لغة المانشيت عن التهكّم والسخرية من النساء اللائي رفعن شعارات الثورة: «العدل، الكرامة، الحرية» واعترضن على أن يكون كل المحافظين الجدد من الرجال. وإذا كان عندنا نساء وزيرات فلماذا لا تكون المرأة محافظة؟ سؤال بديهي لا يدعو إلى السخرية.

أين راحت أخلاق الثورة الرفيعة التي عشناها في ميدان التحرير؟ هل تهكّم أحد على امرأة تنام تحت الخيمة على الرصيف في البرد والمطر وتنزف دمها من أجل العدل والكرامة والحرية؟ هل يعقل أن تتخلّى المرأة بعد الثورة عن كرامتها وحريتها وحقها في العدل والمساواة في جميع المسؤوليات والحقوق؟

لكن يبدو أن الفكر الثوري الجديد بدأ يتراجع باسترداد النظام السابق بعض أنفاسه المقطوعة، وأتباعه من عصابات غريبة، خرجت فجأة من أوكار غامضة، ترتدي عباءات وعمائم متلونة ملتوية، بلحى سوداء وبيضاء وحمراء. تدّعي الحديث بكلام الله والرسول، وتصوب سهامها ضد مبادىء الثورة «الحرية والكرامة والعدل» بين جميع المواطنين، بصرف النظر عن الدين أو الجنس أو الطبقة أو العرق أو غيرها.

يظهر عداؤهم للمرأة أكثر من غيرها. يرمقونها بازدراء واشتهاء، ويعتبرونها جنساً آخر تُغطّى أو تُعرّى للتحرّش والاغتصاب، أو على الأقل للسب والقذف والتهكّم والسخرية.

في الجريدة نفسها وفي اليوم نفسه كان هناك مانشيت كبير بعنوان «قوانين الهانم». كاتب المقال ينتهز فرصة سقوط النظام الفاسد ليضرب أي حق حصلت عليه المرأة والطفل والأسرة خلال الأربعين عاماً الماضية.

برغم فساد الأنظمة الحاكمة استطاعت النساء المدافعات عن العدل والكرامة والحرية (والرجال المتقدمون المناضلون) مواصلة العمل لرفع الظلم الواقع على المرأة والأم والطفل والأسرة المصرية.

هذا النضال لتحرير المقهورات والمقهورين قديم في التاريخ المصري قدم العبودية والحكم الفرعوني المستبد. فالاستبداد في الدولة غير منفصل عن الاستبداد في العائلة، وسلطة الحاكم المطلقة امتداد للسلطة الأبوية المطلقة في البيت.

يحمل الحاكم المستبد لقب «رب العائلة»، وقد حمل السادات هذا اللقب بالإضافة إلى الرئيس «المؤمن». ويستغل الاستبداد السياسي الدين لتدعيم السلطة المطلقة لرئيس الدولة ورب العائلة. يصبح الرئيس هو الرب والأب، السيد الأعلى صاحب الأمر. ويختلط الأمر على الناس البسطاء.

يصبح أمر رب البيت والدولة هو أمر الله. ويتنكر الحاكم خارج البيت وداخله في ثوب رجل الدين. لا يعرف الناس من منهم مندوب الله على الأرض؟ رمسيس الأول أو الثاني أو السادات أو مبارك أو شيخ الأزهر أو زعيم الإخوان المسلمين أو السلفيين أو الصوفيين أو الخمينيين أو الطالبانيين أو الوهابيين أو الحنبليين أو الحنفيين أو الشيعيين أو السُنيين، أو غيرهم في السعودية وباكستان وأفغانستان والصومال ونيجيريا وغيرها.

كل منهم يدّعي أنه الوحيد الذي يعرف أمر الله، وهو العالم الوحيد الذي اختاره الله لينقل أمره إلى البشر دون الآخرين.

ينتهز كاتب المقال فرصة الثورة ضد فساد العهد السابق ليضرب حقوق المرأة والطفل والأسرة لصالح حزبه الديني السياسي، ويعود بنا إلى العصر التوراتي والحكم الإلهي. فتشْ عن المرأة، إنها أصل الخطيئة التي أغوت زوجها البريء الساذج بأكل الثمرة من شجرة المعرفة.

كانت المرأة أكثر علماً ومعرفة من زوجها؟ السادات سيطرت عليه جيهان، ومبارك سيطرت عليه سوزان. وأصدرت الهوانم قوانين غريبة غربية مستوردة لهدم الإسلام والأخلاق والأسرة الآمنة المستقرة والأطفال السعداء، وكأن المحاكم لم تمتلىء بالأسر المفكّكة التعيسة، وبالمطلقات البائسات الدائخات جرياً وراء حقهن المسلوب، ولم تمتلىء الشوارع باللقطاء وملايين الأطفال المشردين.

الظاهرة الخطيرة التي تهدد المجتمع، عُرِفت باسم «أطفال الشوارع»، ونتجت أساساً عن الفوضى الأخلاقية والجنسية للرجال والأزواج، التي يدعمها ويشجعها القانون الشرعي والوضعي السائدان. يمكن للرجل منهم أن يخدع فتاة بالحب، أو يغتصبها بالقوة في الخفاء، أو يتزوجها بعقد رسمي أو عرفي، ثم يهرب من المسؤولية قانوناً وشرعاً، ويقع العقاب على الأم وطفلها فقط.

على مدى السنين والقرون دأب أصحاب الضمائر من النساء والرجال في بلادنا على تغيير هذه القوانين الجائرة المتعسّفة المتحيّزة للذكور لمجرد أنهم وُلِدوا ذكوراً. هذه القوانين التي تفكّك الأسرة المصرية، وتهدر حقوق النساء الاقتصادية والاجتماعية، مع إهدار كرامتهن وعزة نفسهن.

القوانين الجديدة في العقود الأخيرة التي حاولت رفع بعض الظلم عن ملايين الأطفال والأمهات لم تكن من صنع الهوانم زوجات الحكّام، بل هي نتيجة الجهود النضالية الإنسانية المتراكمة لأصحاب الضمائر من نساء مصر ورجالها على مدى

السنين والقرون. لكن كاتب المقال يتجاهل هذه الجهود الشعبية، ويدفنها ويدفن أصحابها وصاحباتها في التاريخ، ويسلط الأضواء على «حريم» الحكّام الهوانم ليضرب أزواجهنّ الرجال.

المعركة أساساً سياسية اقتصادية حول السلطة والثروة بين رجال ذكور يتصارعون على العرش، يدخلون فيها الهوانم حين يشاؤون ولأغراض لا علاقة لها بحماية الأسرة المصرية أو حماية الأخلاق أو حماية الدين وأمر الله، أو أي شيء من الشعارات المرفوعة في حلبة الصراع الانتخابي.

نحن نحتاج إلى رفع الوعي لدى الناس ليدركوا الخداع السائد لذوي الصوت العالي في الصحف والإعلام. ومثل هذا الخداع الفكري يمكن أن يجهض مبادىء الثورة المصرية الرفيعة، ويوجّه المعركة نحو المرأة والأطفال المقهورين بدلاً من توجيهها إلى الكبار من رؤوس الدولة الفاسدين المستبدين، وأرباب العائلات من الأزواج والآباء الأكثر فساداً واستبداداً.

لا بد أن تشمل الثورة الشعبية العظيمة نظام الحكم الفاسد في الدولة والعائلة في آن، ولا يمكن تحقيق الحرية والكرامة والعدل في الاقتصاد والسياسة والأحزاب والانتخابات الرئاسية أو البرلمانية، دون تحقيق الحرية والكرامة والعدل في البيوت والمدارس ومؤسسات التعليم والتربية والأخلاق.

يكتب هذا الكاتب وأمثاله في الأحزاب الدينية السياسية، ويقول إن قوانين الهوانم شاذة تتصادم مع ثوابت الشريعة، وتضرب في الصميم ثوابت وأركان الأسرة المصرية، وثوابت الأخلاق، وتتناقض مع خصوصية الشخصية المسلمة والمصرية، مما أدى إلى اختلال العلاقات الاجتماعية وانهيار الأسرة وزعزعة استقرارها. هذه قوانين جيهان وقوانين سوزان التي خربت الأسرة واستنسخت ما لم يأمر به الله تحت اسم «حق المرأة».

يتعجّب الكاتب من القوانين التي استحدثتها الهوانم، والمخالفة للدستور

والقانون اللذين يحظران أي تمييز بسبب الجنس، والتي تعمل على الدخول في دوامات عنصرية تهدد المجتمع وتنذر بخطر مستطير.

المفروض أن قوانين الأسرة يختص بها الرجال فقط من العلماء الثقاة والمؤسسة الدينية الرسمية الأزهر، بعيداً عن تدخلات النساء والناشطات الأنثويات المندفعات بدوافع عنصرية لإقرار ما لم يأمر به «الله». ألا يستخدم هذا الكاتب كلمة «الله» ليضلّل الرأي العام؟

من المعروف أنني عارضت بشدّة رجال الحكم وزوجاتهم الهوانم منذ الملك فاروق مروراً بالسادات حتى مبارك. كما أني أرى أن فساد الحكام لا ينفصل عن فساد عائلاتهم من الزوجات والأبناء والبنات. لكني أعارض أيضاً وبشدة هذا الخداع الإعلامي السائد تحت اسم «أمر الله».

كرامة المرأة وكرامة الوطن في الدستور الجديد

جاءتني فتاة حائرة، تقدم للزواج منها شاب من التيار السلفي يعتبر اسمها ووجهها عورة، لكنه يدافع عن كرامة مصر ويرفض المعونة الأجنبية. سألتني: «هل أتزوّجه لأنه يحترم كرامة الوطن أم أرفضه لأنه يهدر كرامتي؟».

لا يواجه الرجل مثل هذه الحيرة لأن كرامة الوطن لا تتناقض مع كرامة الرجل في الفكر الديني السائد، ولأن اسم الرجل أو وجهه ليسا عورة، فهذه إهانة له. فلماذا لا تكون إهانة للمرأة أيضاً، وهي إنسانة مثله لها كل الحقوق الإنسانية؟

أين المساواة والعدالة والكرامة التي نادت بها الثورة المصرية؟

المفروض أن الكرامة لا تختلف من إنسان إلى إنسان. الكرامة هي حق لجميع المواطنين بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو العرق أو الطبقة أو غيرها.

قلت لهذه الفتاة: «لوكنتُ مكانك فلن أتزوج رجلاً يعتبر اسمي ووجهي عورة وإن كان بطلاً وطنياً. إن كرامة المرأة لا تنفصل عن كرامة الوطن».

تحيرت الفتاة وقالت: أريد أن أتزوج.

فقلت: اختاري رجلاً يحترم كرامتك.

قالت: لم أجده.

قلت: لا تتزوجي لمجرد الزواج.

قالت: أخاف من كلمة عانس.

قلت: يمكنك حذفها من قاموسك.

* * *

لماذا انخفضت كرامة المرأة المصرية مع تصاعد التيارات السياسية الدينية؟

لماذا يمدحون رجلاً يتشدّق بكرامة الوطن على الرغم من أنه يدوس على كرامة النساء؟

ينسى الرجال كرامة النساء وحقوقهن في حلبة المنافسات على كراسي الرئاسة والمزايدات السياسية والانتخابية؟

* * *

من هي اللجنة التي ستضع الدستور الجديد أو العقد الاجتماعي الجديد؟

هل تمثل لجنة الدستور الشعب المصري بكل فئاته؟ والنساء نصف الشعب، فهل يكون نصف أعضاء اللجنة نساء؟

هل يمكن لمجلس ٩٩ في المائة من أعضائه رجال أن يمثل الشعب؟

إذا جاء أغلب أعضاء لجنة الدستور من التيارات التي لا تساوي بين كرامة المرأة وكرامة الرجل، فسوف يكون هذا الدستور غير عادل، وبالتالي غير دستوري. لأن الدستور إنْ لم يقم على العدالة والمساواة بين المواطنين جميعاً، بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو الطبقة أو غيرها، فإنه يكون دستوراً أعرج لا يستحق اسم «دستور» ولا يستحق اسم «عقد اجتماعي».

بعض الناس يقولون: «العدالة شيء، والتوافق بين القوى السياسية والدينية

السائدة شيء آخر. لذلك تضيع حقوق النساء تحت اسم التوافق. وتحت اسم التوافق تتسرّب الديكتاتورية والعنصرية والطبقية الأبوية إلى الدستور».

يقولون: «النساء أغلبية عددية، لكنهن أقلية من حيث القوة السياسية. والقوة هي التي تحكم وليس العدل».

إذن فلن تمثل لجنة الدستور الشعب المصري كله، ولن تنتج عقداً اجتماعياً جديداً أو دستوراً عادلاً يساوي بين النساء والرجال.

* * *

هل غيرت الثورة المصرية الثقافة القائمة على إهدار كرامة المرأة؟

في مقاله بجريدة الأهرام في ١٣ شباط/فبراير ٢٠١٢ كتب د. محمد بديع، المرشد العام للإخوان المسلمين: «إننا نسعى لبناء الدولة الديموقراطية الحديثة القائمة على أسس المواطنة ومبادئها وسيادة القانون والحرية..... والمساواة بين جميع أبناء الأمة بلا تمييز على أساس العرق أو اللون أو الدين.......».

لم يذكر مرشد الإخوان التمييز على أساس الجنس. لماذا؟ هل سقطت سهواً؟ أم أنه يعتبر كلمة العرق تعني الجنس؟ أم أن مبدأ المساواة بين الرجال والنساء غائب في فكر الإخوان المسلمين؟

وفي جريدة الأهرام بتاريخ ١٢ شباط/فبراير ٢٠١٢، كتب د. علي جمعة مفتي الجمهورية: «إن الإسلام قرر المساواة بين الناس جميعاً، أما الآية القرآنية التي تقول (الرجال قوامون على النساء)، [النساء/٣٤]، فهي لا تتحدث عن جنس النساء وجنس الرجال، بل تتحدث عن الزوج وزوجته، حيث جاء فيها (فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن) ولا يصح لأي رجل أن يفعل ذلك إلا بزوجته.

هذا كلام المفتي، ومعناه أن المساواة في الإسلام تكون بين الناس جميعاً، نساءً

ورجالاً، إلا في حالة الزوجة وزوجها. وهذه تفرقة كبيرة تُهدر فيها كرامة المرأة لمجرد أنها تزوجت.

وضع الزوجة المصرية، في الواقع، أدنى من وضع الماشية. ترتفع قيمة البقرة في الريف عن قيمة الزوجة، وثمن الخادمة قد يرتفع عن ثمن الزوجة. وقد يمتلك الرجل بقرة واحدة وأربع زوجات يشتغلن أكثر من البقرات.

يتسرّب هذا المعنى إلى الثقافة العامة والتعليم في المدارس والتربية في البيوت. تصبح كرامة الزوجة، أو النساء بصفة عامة، مهدورة.

* * *

كثير من الصحفيين والكتاب يتهكّمون على المرأة، كنوع من التسلية.

كان توفيق الحكيم يفخر بأنه عدو المرأة. ولم يكف أنيس منصور عن إهدار كرامة النساء في عموده اليومي بجريدة الأهرام.

في جريدة الأهرام، بتاريخ ١٨ شباط/فبراير ٢٠١٢، في دنيا الكاريكاتير، وتحت عنوان: «إقبال ضعيف جداً في انتخابات الشورى»، يصور الكاريكاتير زوجة مرعبة الشكل، ضخمة الجسد كالفيل، شعرها أسود غزير منكوش، تمسك بيدها اليمنى أداة حديدية، وتمسك باليد الأخرى زوجها الضئيل الجسم، أمامه حلل يغسلها، وزوجته تكاد تسحله وتقول له: «شورى إيه؟ الشورى هنا شورتي وبس».

هذه الصورة تكذب على الناس، لأن الزوج، في الواقع والقانون والشرع والعرف، هو الذي يحكم العائلة كلها، ومن ضمنها زوجته، ويضربها إنْ لزم الأمر، ويطلقها بإرادته المنفردة حين يشاء، ويتزوج امرأة ثانية وثالثة ورابعة إنْ أراد. فلماذا يصوّرون المرأة كأنها هي الطاغية في حين أن الرجل هو الطاغي؟

الثقافة السائدة قائمة على الأكاذيب وقلب الحقائق، وإهدار كرامة النساء.

يكفي أن نمشي في الشارع، لنسمع من الصبيان سيل الشتائم تنهمر على رؤوس الأمهات، وانتهاك حرمة أعضائهن الحميمة، ولنسمع الباعة الجوّالين يقسمون كل لحظة بالطلاق بالثلاث.

لكن الثورة قامت ورفعت شعارات: «الكرامة والعدالة والحرية»، والمفروض أن تسري هذه المبادئ على النساء، نصف المجتمع، وأن تصبح هذه المبادئ هي أساس الدستور الجديد وكل القوانين الجديدة العامة والخاصة، بما فيها قانون الأحوال الشخصية.

هذه هي الوسيلة الوحيدة لخلق مجتمع أفضل، وأسرة أقل تعاسة، وامرأة لا تنفصل كرامتها عن كرامة الوطن.

رسالة من امرأة لم تؤمن بقضية المرأة

أكتب لكِ يا دكتورة نوال لأول مرة. كنت لا أعرف شيئاً عن قضية المرأة، وأظن أن المرأة ليس لها قضية على الإطلاق.

نشأت في أسرة ميسورة إلى حد ما، ودرست في الجامعة مثل أخي، وتخرجت واشتغلت وتزوجت وأنجبت ثلاثة أطفال. بلغت الأربعين من عمري ولم أشعر في حياتي بأي مشكلة لكوني امرأة، وكنت أسمع من يقول إن نوال السعداوي تخلق مشكلة من لا مشكلة، وأنها تقلد الغرب، أو غير ذلك من الاتهامات، وبالتالي لم أهتم بقراءة كتبك أو أي شيء عنك. وإن جاءت سيرتك أشارك الآخرين في الهجوم عليك، وإن رأيت صورتك في برنامج بحثت عن برنامج آخر. وأحياناً أقرأ الهجوم عليك في الإنترنت فأوقن أنك تستحقين هذا الهجوم.

لكن اشتراكي في ثورة كانون الثاني/يناير ٢٠١١ لعب دوراً في تغيير أفكاري.

بالنسبة للوطن والوطنية أو حب الوطن، تصورتها كلمات إنشاء جوفاء وأغاني تذاع في المناسبات بلا معنى. لكنها في أيام الثورة تجسدت أمامي دماءً تُراق، وعيوناً تُفقأ، وأرواحاً تُزهق، لزملاء وزميلات لي، يسيرون إلى جواري في الشارع. وبدأت أدرك فساد نظام الحكم وجبروته وقسوته على الشعب، خاصة الفقراء والضعفاء، الأطفال والنساء، والأقليات مثل الأقباط.

بدأت أشارك في المواقف والتظاهرات الاحتجاجية للنساء وأفهم كم تعاني النساء والبنات، وكم يتعذّبن لكونهن إناثاً.

فهمت قضية الأقباط قبل أن أفهم قضية النساء. رأيت الكنائس تُحرق وشباب الأقباط يُسحلون بعربات الجيش في ماسبيرو. وأصبحت أشارك الأقباط مشاعرهم وأنادي بتحقيق المساواة بصرف النظر عن اختلاف الأديان.

ثم بدأت أمشي في مسيرات النساء وتولّدت لديّ مشاعر جديدة تجاه المرأة التي سحلها الجنود، والفتيات اللاتي تعرّضن لكشوف العذرية في السجون العسكرية.

ثم بدأت أدرك التفرقة على أساس الطبقة، وكيف كانت مظاهرات العاطلين عن العمل والعمال الفقراء تُضرب بالرصاص الحي دون رحمة باعتبارها مظاهرات فئوية وليست مظاهرات الطبقات الأرقى من المتعلمين وشباب الفايسبوك.

بدأت أتغير جذرياً وبدأ عقلي يتغير. وأدركت أنني، وإن كنت أستاذةً متعلمة، جاهلةٌ بقضايا متعددة، وعلى رأسها قضية المرأة برغم كوني امرأة.

وبرغم مشاعري الأنثوية الرقيقة كنت شديدة النفور والقسوة على الخدم والفقراء، وكنت ضمن الأغلبية المسلمة أشعر بنفور من الأقباط، ولا أصادقهم إلا للضرورة في العمل أو السفر.

ما قدمته النساء والأقباط للثورة حتى اليوم جعلني أؤمن بقضيتهم، وأنا لن أهدأ حتى تتحقق أهداف الثورة «الكرامة، العدالة، الحرية» للمواطنين جميعاً دون تفرقة على أساس الدين أو الجنس.

لا يحق للرجل أن يضرب إلا زوجته

هل إن نقد أفكار مفتي الجمهورية المصرية، د. علي جمعة ممنوع؟

لقد نقدت فكرته عن «حق الرجل في ضرب زوجته» التي جاءت في مقاله بجريدة الأهرام بتاريخ ١٢ شباط/فبراير ٢٠١٢ في عدد من مقالات لي نشرتها منذ ذلك الحين. وكان الرقيب المصري في الجرائد السائدة يقص هذه الفقرة بالذات من مقالي، ولا أدري لماذا؟

هل أصبح ضرب الزوجات مباحاً لأن التيارات الإسلامية السلفية وغير السلفية طغت على البرلمان والإعلام والحكم في الداخل والخارج؟

هل أصبح الرقباء على الصحف ينافقون القوى الجديدة الحاكمة بعد الثورة كما كانوا ينافقونها قبل الثورة؟

ها هي كلمات الأستاذ الدكتور مفتي الديار المنشورة في جريدة الأهرام ١٢ شباط/فبراير ٢٠١٢:

«إن الإسلام ساوى بين الناس جميعاً، أما الآية القرآنية التي تقول (الرجال قوامون على النساء) [النساء/٣٤] فهي لا تتحدث عن جنس النساء وجنس الرجال

بل تتحدث عن الزوج وزوجته، حيث جاء فيها (فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن) ولا يصح لأي رجل أن يفعل ذلك إلا بزوجته».

ماذا نفهم من كلمات المفتي؟ نفهم بوضوح شديد أنه يصح للرجل أن يضرب زوجته. فأين هي المساواة التي قررها الإسلام بين الناس جميعاً والتي ذكرها المفتي في بداية الفقرة؟ وهل المساواة تسري على كل الناس ما عدا الزوجات؟ أو هل الزوجات من فصيلة أخرى غير الإنسان؟

أنا أطلب من الدكتور المفتي أن يجيب عن تساؤلاتي، وهذا حقي في أن أتلقى رداً على أمر مهم جداً مثل هذا؟ وهل هناك أهم من أن الرجل يحق له أن يضرب المرأة لمجرد أنها تزوجته؟

وإذا كانت هناك مساواة فعلاً بين الناس فلماذا لا يحق للمرأة أن تضرب زوجها إن أخطأ في حقها؟

أم أن الضرب حق مطلق للزوج وحده، مثل حق الطلاق وتعدد الزوجات والنسب، وغيرها من الحقوق التي ينفرد بها الرجال لمجرد أنهم وُلِدوا ذكوراً وليس إناثاً؟

تملك الزوجة حق خلع زوجها أو تطليقه لكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا عن طريق المحكمة والقاضي، ولا بد أيضاً أن تتنازل عن جميع حقوقها. أما الرجل الزوج فهو يطلق زوجته كما يفرقع أصابعه، دون محكمة أو قاضٍ أو أي شيء، إلا زيارة مأذون وتسجيل ورقة الطلاق وإرسالها لزوجته بالبريد التي لا تعرف شيئاً عن هذا الطلاق، ويتزوج أيضاً دون علمها، ودون إرادتها. هذا ما يسمونه قانون الزواج الشرعي؟!

هذه التفرقة الشرعية على أساس الجنس تخالف جوهر الإسلام والأديان والدساتير والمواثيق المحلية والدولية؟

نحن نعرف أن الشريعة في أي دين ليست هي العقيدة.

الشريعة من صنع البشر ويجب ألاّ تتعارض مع جوهر العقيدة.

جوهر الإسلام مثلاً، والأديان كلها ، هو المساواة بين الناس فكيف يمكن للشريعة البشرية أن تخالف جوهر العقيدة؟

لماذا لا يكون هناك حوار موضوعي في بلادنا حول حقوق الزوجة الإنسانية وحقوق الأم؟ كيف يمكن أن يكون عقد الزواج عقد عبودية يبيح للرجل ضرب زوجته أو تطليقها دون إرادتها، بإرادته المنفردة، أو الزواج عليها بامرأة أو أكثر؟

هل يحق للزوجة أن تفعل المثل بزوجها؟

سؤال لم يرد عليه أحد. وقد يرد بعض الرجال ويقولون إن الشريعة لا تساوي بين الزوج وزوجته. لكننا نرفض هذا المنطق، لأن الشريعة ليست هي العقيدة أو الدين.

تتغير الشرائع حسب الأنظمة السياسية الحاكمة. ولكل نظام سياسي أو حزب ديني تفسيره للدين وأحكام الشريعة التي يضعها القائمون على السلطة في الدولة أو البرلمان أو الحزب أو الجماعة المسيطرة.

المرأة أيضاً تفضّل أن تشرب من كوب نظيف

قال الرجل لزوجته حين ضبطته مع زوجته الأخرى: «تعدد الزوجات من حقي حسب شرع ربي، والجنس مثل الطعام والشراب». فقالت زوجته: «سأفترض معك أن تعدد الزوجات شرع ربك، وأن الجنس مجرد ضرورة مثل الشراب. فإن كان الأمر كذلك فأنا أفضل أن أشرب من كوب نظيف».

لم يعرف الرجل كيف يرد على زوجته. كلامها عين العقل، فالمرأة تشعر بالقرف من زوجها إن مارس الجنس مع امرأة أخرى. فما بالنا بأكثر من امرأة؟ إنها تشعر بالغثيان إن اقترب منها في الفراش، أو لامست يده صدفةً يدها.

يستعين الرجل بربه الأعلى ليبرر علاقاته الجنسية المتعددة، ثم يظن أن زوجته راضية، ولا يفهم حقيقة مشاعرها. تعودت المرأة منذ نشوء العبودية أن تخفي مشاعرها تحت المساحيق المزيفة، وأن تقابل زوجها بابتسامة بدلاً من صفعة أو بصقة في وجهه.

تخاف المرأة أن تفقد زوجها، مورد رزقها، إن كانت فقيرة، وتخاف كلام الناس إن كانت ثرية، وتخاف عقاب الله إن كانت مؤمنة بالله. تخاف الوحدة، تخاف الحرمان من أطفالها، وكل أنواع الردع الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية والأخلاقية والأدبية والثقافية. أقل ما يقولون عنها إنها ليست أنثى طبيعية، يعني أنها

مسترجلة شاذة، وليست زوجة صالحة، يعني أنها نشاز. ليست الأم المثالية، وليست المرأة الفاضلة. إن كانت كاتبة فهي تكتب فضائح وليس أدباً مبدعاً، وإنْ كانت ناشطة سياسياً فهي خائنة للوطن، تتعاون مع الأعداء في الخارج، أو على الأقل تقسم صفوف الجبهة الشعبية. تخلق أكذوبة اسمها قضية المرأة، تستوردها من الغرب والكفار أو الاستعمار والصهيونية.

أما زوجها الذي ينتقل في الفراش من امرأة إلى امرأة فهو رجل طبيعي، مؤمن بالله والوطن، رجولته قوية وتساوي أربعين حصاناً. لا يلوث الرجل تعدد علاقاته الجنسية، لأنه ليس وعاءً مثل الأنثى أو كوب ماء، وليس عود كبريت يشتعل مرة واحدة فقط. الرجل لا يعيبه إلا جيبه، إن امتلأ جيبه بالمال فهو طاهر شريف وإن كان زير نساء.

هذه القيم المزدوجة غير الأخلاقية التي تحكم العالم، يؤمن بها أغلب الرجال من جميع الأديان والجنسيات والأحزاب والتيارات السياسية. حتى زعماء اليسار من كارل ماركس إلى ستالين وفلاديمير لينين، تصوروا أن الرجل لا تلوثه التعدّدية الجنسية، أما المرأة المتعدّدة فهي مثل كوب قذر يرفض الرجل أن يشرب منه.

دخلت التاريخ مقولة «لينين» للسيدة «روزا لوكسمبورج» حين وصفت الجنس بأنه مثل الطعام والشراب. قال لها: «لو كان هذا صحيحاً فأنا أفضّل أن أشرب من كوب نظيف». هذه العبارة تم ترديدها على لسان الكثيرين من الأبطال في الروايات الأدبية، في الغرب والشرق.

أرسطو فيلسوف العقل في اليونان (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م) تصوّر أن العبودية أمر عادل تتطلبه طبيعة العبد وطبيعة المرأة. اندرجت النساء والعبيد ضمن الحيوانات والأشياء، وأصبحت الازدواجية الأخلاقية سائدة في ظل النظام العبودي حتى اليوم، تجعل الأسياد عاجزين عن إدراك حقيقة العبيد كبشر مثلهم، وتجعل الرجل عاجزاً

عن إدراك حقيقة المرأة كإنسانة مثله، تشعر بما يشعر به، وتنفر منه إن عاشر نساءً غيرها في الفراش.

حتى يومنا هذا لم تندرج حقوق المرأة ضمن حقوق الإنسان في الشرق والغرب.

يمارس الرجل تعدّد الزوجات منذ عصر العبودية دون أن يدرك ما تشعر به زوجته. فإن فعلت ما يفعل اتهمها بالفسق، دون أن يدرك فسقه. والخطورة في أن ينغمس صاحب السلطة في الفساد لمجرد أنه صاحب السلطة، ثم يبرر ذلك سياسياً أو دينياً أو بيولوجياً.

كانت التعدّدية الجنسية للرجل والمرأة طبيعية في المجتمعات القديمة قبل نشوء العبودية، ثم اكتشفت المرأة الزراعة والكتابة والأخلاق والإنسانية. سبقت المرأة الرجل في إدراك المسؤولية تجاه المستقبل، إذ كان الرجل يعيش يوماً بيوم، لا يدرك المستقبل أو المسؤولية تجاه الأطفال، ويمارس الجنس مع المرأة دون أن يدرك دوره في إنتاج الأطفال، ودون أن يدرك الأبوة.كان يتصور أن قوى السماء هي السبب في ارتفاع بطن المرأة بالجنين.

أدركت المرأة مسؤوليتها تجاه أطفالها، تحملهم في رحمها وتلدهم من جسدها وتحتضنهم وتطعمهم وتعلّمهم. وتطوّرت مشاعر الأمومة والمسؤولية الإنسانية قبل مشاعر الأبوة بسبب جهل الأب دوره في عملية الإخصاب.

كان الرجل البدائي يغتصب بناته ويأكل أولاده، وكافحت الأم آلاف السنين لتهذب الرجل وتطوره ليصبح إنساناً وليس ذكراً، وساعد في ذلك اكتشاف علم الأمبريولوجى أو علم الأجنة وعملية الإخصاب.

أدرك الرجل دوره في صنع الجنين، وبدأ يتعرّف إلى أبوته. وتطورت الأبوة عبر آلاف السنين، لكنها لم تصل بعد إلى الإحساس الكامل بالمسؤولية والإنسانية مثل الأمومة.

وكان طبيعياً أن تصبح الأم هى الإلهة المقدسة، فهي التي تصنع المستقبل، وهي

التي تحمي الأطفال من أن يفترسهم الرجال، وهي التي صنعت الحضارة والإنسانية والعلم والفلسفة والمعرفة، ثم أشركت الرجل معها في كل الأنشطة والمناصب، بما فيها منصب الألوهية. ظهر في التاريخ الآلهة الذكور إلى جانب الإلهات الإناث، وهناك لوحة خالدة في مصر القديمة تصور الإلهة الأم «نون» ضخمة الجسم يخرج من بطنها عشرات الآلهة ذكوراً وإناثاً.

أصبح الرجال في الحضارات الإنسانية القديمة متساوين مع النساء في جميع نواحي الحياة العامة والخاصة، في مصر القديمة والعراق وسورية وفلسطين واليونان وغيرها. تغلّبت الطبيعة والفطرة فانعدمت الفروق بين البشر. وشغلت النساء والرجال المناصب في الدولة والدين والقضاء والطب والهندسة، لكن المرأة الأم سبقت الرجل في اكتشاف المعرفة.

«حواء» سبقت زوجها «آدم» في اكتشاف شجرة المعرفة، وسبقت الإلهة «إزيس» زوجها أوزوريس في الفكر والنظام، وسبقت الإلهة «معات» الرجال في الحكم بالعدل، أما «أثينا» في اليونان القديمة فكانت إلهة الحكمة. والأمثلة كثيرة في التاريخ على تفوّق النساء على الرجال في العقل والحكمة والمسؤولية الإنسانية والعدل والحرية.

علينا قراءة التاريخ لنعرف كيف نشأ النظام العبودي الطبقي الأبوي، وكيف انقلبت الأمور فأصبح الرجل مسيطراً بقوة السلاح وليس بالحكمة أو العدل. ضاعت حقوق الأم الأكثر معرفة والأقوى ضميراً وإنسانية، وامتلك الأب وحده الشرف والنسب والمال والسلاح والسلطة المطلقة في الدين والدولة والعائلة.

أصبح الرجل يشرّع القوانين ويقرّر القيم المزدوجة والكيل بمكيالين في كل شيء، من قمة السلطة في الدولة والجيش إلى غرفة النوم. أعطى الرجل لنفسه حريات متعددة في كل المجالات بما فيها السياسة والجنس، وألزم المرأة بالوفاء له، وأعطى نفسه حرية خيانتها.

حكمها بقانون الاحتباس، وألبسها حزام العفة ولم يلبسه هو، وانطلق يعربد مع النساء خارج الزواج وداخله دون مسؤولية تجاه الأطفال والأسرة.

هنا بيت الداء. لقد انفصلت «المسؤولية» عن «القوة» منذ نشوء العبودية. وكلما زادت «قوة» صاحب السلطة انكمشت «مسؤوليته». ومن هنا نشوء الديكتاتورية والاستبداد في الدولة والأسرة، ومعها قانون الحصانة للحكام في مجال السياسة، وللأزواج في مجال الجنس.

أصبحت الزوجة تشرب من كوب غير نظيف كل ليلة دون اعتراض أو امتعاض.

«لم تكن أمي ميتةً دائماً»

رسالة من شاب في ميدان التحرير

أكتب هذه الرسالة إليكِ، من تحت خيمة بميدان التحرير، فقد تركت البيت بعد جنازة أمي. سألني أبي: هل حزنت؟ فحملقت في وجهه صامتاً. عيناه فيهما بريق لم يكن موجوداً، يحاول إخفاءه بتقطيبة غائرة بين حاجبيه. في المساء أكل أبي بقايا صينية البطاطس التي صنعتها أمي - كان يقول عنها أنها ماهرة في الطبخ - ثم خرج كعادته ليشتري سجائره والأهرام المسائية. عاد بعد منتصف الليل دون الجريدة، ورمقني بكراهية لأني سألته عنها، ولأني لم أكن نائماً حين عاد متأخراً تفوح منه رائحتها.

سألته أثناء الفطور عنها، فانفعل زاعقاً: تتجسّس على أبيك يا ولد؟

قلت: أنا لا أتجسّس عليك، أنا أعلم ما يحدث؟

قال أبي غاضباً: أنا غير مسؤول أمامك عن أعمالي. مفهوم؟

لم يفزعني صوته الزاعق كما كان يفزعني في طفولتي. قلت: لكنك مسؤول أمام أمي؟

رمقني بنظرة كارهة وقال: أمك ماتت؟

قلت: لم تكن ميتةً دائماً؟

صمت لحظة طويلة، ثم سألني إن كانت أمي قد عرفت؟ قلت إنها كانت تعرف منذ سنين؟

أمي لم تصرّح لي بشيء. كانت صامتة، يتراكم الصمت في جسدها على شكل ورم في الصدر، يزداد حجمه بالتدريج، ولا يظهر في صور الأشعة ولا المعامل الطبية.

قال لي: ألم تكن أمك مريضة؟

قلت له: أيحق لك خداعها وهي مريضة؟

قال غاضباً: قلت لك لا تحاسبني يا ولد. أنا حر؟

قلت: لماذا لا أحاسبك يا أبي؟ هل أنت فوق المحاسبة مثل فخامة الرئيس؟

ثم هل تنفصل الحرية عن المسؤولية؟

قال: أنت شاب صغير السن، ولم تصبح رجلاً بعد.

قلت له بغضب: إذا كانت الرجولة تعني الكذب والخداع فأنا لا أريد هذه الرجولة.

قال أبي: مؤسف أن يكون ابني بهذه العقلية.

صمت أبي طويلاً ينفث الدخان من أنفه، ويتطلع إلى صورة أمي فوق الحائط داخل الإطار الأسود، ورأسها ملفوف بحجاب أسود. حصلت على وسام الأم المثالية. قضت حياتها تطبخ وتغسل وتصلي وتصوم وتقرأ القرآن. ولدت في ١٩٧٢ وماتت في ٢٠١١.

عاشت تسعة وثلاثين عاما. تخرّجت في كلية العلوم بامتياز، ودفنت شهادتها بعد الزواج وتفرغت لأربعة من الأولاد.

سألني أبي: هل أنت متأكد أن أمك عرفت؟

قلت: نعم متأكد.

لم يسألني كيف تأكدت، فقلت بعد صمت طويل:

حين كنت تتأخر كل ليلة حتى الفجر كانت أمي تبكي.

اندهش أبي. اشتد البريق في عينيه، وكأنها مفاجأة سارة لم يتوقعها، ثم سألني باهتمام: هل كانت أمك تبكي فعلاً؟

ارتدي أبي ملابسه وفتح الباب ليخرج إلى عمله كعادته كل صباح، وقال لي قبل أن يخرج: اهتم بدروسك يا ابني. كلنا سنموت.

قلت له صارخاً بغضب: لا أريد أن أراها. لن أراها طول حياتي. مفهوم؟

رد أبي هادئاً بارداً: ستكون هي أمك يا ابني. ولا بد أن تراها. مفهوم؟

لم أعد أعرف طعم الأكل أو النوم. فتحت درج أبي فعثرت على صورتها واقفة تحت الشمس. شعرها طويل غزير - تبدو فتاة مراهقة - وعيناها مغلقتان في مواجهة الضوء. قرّبت الصورة من عيني لأراها أكثر، فتسلل إلى أنفي عطر رخيص، يذكرني بأول امرأة في البيت السري، حين كنت تلميذاً بالأولى ثانوي.

مزّقت الصورة ورميتها في المرحاض، كرهت عطور النساء الرخيصة. والآن أسألك يا طبيبتي النفسية: هل يمكن لابن أن يكره أباه؟ حين يكون الأب مجرماً أليس من الطبيعي أن أكرهه؟ وتسألينني ما جريمة أبي؟

أقول لك: إنه خدع أمي وهي لا تملك أي قوة.

ليس المهم أنها عرفت أو لم تعرف، المهم أنها تعرضت للخديعة. وهل هناك جريمة أكبر من أن يخدعك شخص تحبينه وتخلصين له؟

الخداع نوع من القتل البطيء للإنسان. مكافأة الإخلاص بالخديعة تسبب الحزن للإنسان فيمرض، وقد يفقد المنطق. يسقط في بئر من الصمت والشك، أخطره الشك في نفسه، وليس في الشخص الآخر المخادع؟

لهذا، يا سيدتي، كرهت أبي، وإن خدعتني حبيبتي فسوف أكرهها، وأهجرها بالطبع. ولكن قبل أن أهجرها سوف أصفعها على وجهها.

هل تظنين يا طبيبتي أنني يمكن أن أصفع أبي على وجهه؟

حين تشتد الكراهية ربما لا أصفعه، وإن قابلته وجهاً لوجه ربما لا أعرفه. هذا يحدث لي دائماً مع كل شخص يخدعني، أقول عنه إنه غير موجود وأستريح من عناء الانتقام. وأتفرغ لدراستي لأتخرج وأشتغل وأصبح رجلاً لا يخدع أحداً. الرجولة عندي تعني الصدق، والصدق قوة عارمة تكسبني القوة على العمل بكل جهدي لأكون ما أريد أن أكون.

أريد أن أكون كاتباً، أعبر عما يجول في عقلي، لهذا أكتب إليك هذه الرسالة. كنت أكتب لنفسي في الليل لأتخلّص من الحزن. لم أعرف لماذا كنت حزيناً منذ طفولتي. أحياناً كنت أرى أمي تبكي في الظلمة، أسمع أنينها الخافت مثل لفحات هواء، لهذا السبب لا أريد رؤية المرأة الأخرى رأيت وجه أمي قبل أن يحملوها إلى القبر، بشرتها بيضاء بلون الكفن، وجفونها وارمة من طول البكاء. فوق صدغها كف أبي محفورة، دائرة داكنة اللون، غائرة في اللحم. أكان يصفعها في الظلمة دون أن أسمع؟

نعم سيدتي الطبيبة، قررت ألا أرى المرأة الأخرى طول حياتي، وإنْ حدث ورأيتها فسوف أصفعها وأصفعها، حتى تصنع يدي فوق صدغها حفرة في اللحم.

أذاكر دروسي يا سيدتي، وسوف أتخرج بتفوق ثم ألقي الشهادة العليا في وجه أبي. سأكتب رواية أمي وكل الأمهات المصريات. أتذكرين حين التقينا في ميدان التحرير منذ أيام، قلت لك سأصبح عضواً في الاتحاد النسائي المصري على الرغم من أنني رجل، رأيتك تضحكين وسمعتك تقولين: «الصدق لا يفرّق بين الرجل والمرأة».

أهي بشائر مستقبل أفضل؟

دق جرس التليفون في بيتي في بداية العام الجديد ٢٠١٠، وجاءني صوت صديقتي منذ أيام الدراسة، وهي واحدة من القليلات طويلات العمر، ذوات النفس الطويل. وقفت هذه الصديقة إلى جوارى في الملمّات، تفرح بأي بادرة أمل، أو نقطة ضوء في الخضم المظلم. قالت صديقتي:

الجرانيل بقت شبه بعض يا نوال، حكومة ومعارضة، المانشتات الحمرا والزرقا والخضرا والسودا والصفرا، صفايح حبر وفضايح، سياسة ودين وجنس، وجوه مكرّرة مكرّرة، زعماء فكر وسياسة ودين وأدب وفن، كلهم شبه بعض. الطاعة والولاء والنفاق، السهر بالليل مع السلطات والخيرات، وفي الصبح يلبسوا بدل المعارضة والنضال. كلامهم شبه بعض، العلم والإيمان ومحاربة الفقر والاستعمار. كلهم ضد الفساد، طبعاً الفاسدون أكثر حرباً ضد الفساد من غيرهم غير الفاسدين. حاجة تلخبط يا نوال. لكن فيه أصوات جديدة بدأت تساندك وتؤيد أفكارك، مش الشتيمة إياها والاتهامات اللي شاعت عنك سنة ورا سنة. بشائر خير مع السنة الجديدة.

صديقتي مختلفة عن الآخرين، لا تبتهج بالأخبار السيئة عني، وتبحث دائماً عن كلمات طيبة وأخبار مفرحة. إنها صديقة عمري. لا يعرف أحد اسمها، وليست

مشهورة ولا تريد أن تكون. تربطنى بها صداقة منذ الطفولة، أقوى من روابط الدم والرحم والعرق أو الدين أو الجنس أو الجنسية. رابطة الإنسانية العليا فوق كل الروابط والهويات.

قرأت لي صديقتى عبر التليفون بعض ما نُشر في بداية كانون الثاني/يناير ٢٠١٠.

كاتبة شابة جديدة اسمها نادين البدير، ليست من مصر يا نوال. من السعودية! تصوري؟ أكثر شجاعة من الكثيرات هنا. أصبحنا أكثر تخلفاً من كل البلاد العربية، بما فيها بلاد الخليج. تدافع عن الصدق والحرية والعدل بجرأة جديدة، واتهمتها بعض الوسائل الإعلامية بأنها تشبهك في أفكارها. ردّت عليهم وتساءلت: ما الغلط؟ قرأت كتاباتك وهي مراهقة فانفتحت عيناها على حقائق مهمة وأخطاء نكتبها يومياً ونعدها أمراً عادياً، بينما هي أقسى اضطهاد للإنسان.

ما السبب الذى يدعو الرجال لمعارضة كاتبة مثلك؟ هل يخشون أن تتمرد نساؤهم وبناتهم، فأطلقوا عليك مسميات مريبة حتى خشيت النساء من الموافقة على أفكارك المتقدمة، على الرغم من أنها في صالح حرياتهن؟ تقول إنها لم تعد تجد حركة نسوية في مصر أو البلاد العربية، وإن حدث وحصلت المرأة على قانون ما فيكون غالباً بسبب الضغط الخارجي الذي يفرض على الأنظمة العربية والخليجية تغيير واقع نسائها.

وظهرت الوزيرات بطريقة مفاجئة في بلدان لا تزال المرأة فيها ممنوعة من الخروج من المنزل إلا بإذن. ثم تختم مقالها قائلة: حركتك وأفكارك تبشر بدلائل عهد حريات نسوية جديدة، ستتبعها مجموعات كبيرة، تفخر بانتمائها إلى صفوف تلميذاتك، كما تفخر هي حين يأتي ذكر اسمك مع كل حديث أو نقد لها.

أليست هذه بشائر مستقبل أفضل يا نوال؟ بعد هذا الصمت الطويل للنساء

المصريات والعربيات عن أعمالك؟ أخيراً نطقت امرأة شابة وكسرت حاجز الخوف.

يقولون عنك إنك عدوة الرجل، لكن ها هو رجل يكذبهم، سأقرأ لك ما يقوله المخرج السينمائي المصري، أسامة فوزي، حين سألته المحررة عن أكثر الشخصيات التي أثّرت في تكوين شخصيته. أول من ذكرهم هو أنت. حين قرأ كتابك «الأنثى هي الأصل»، تنبّه إلى أشياء كثيرة ونوع جديد من المنطق أجابت عن تساؤلات كثيرة داخله، واهتمامات بالإنسان والأدب والفلسفة وعلم النفس، فكنت علامةً فارقةً في حياته.

أليست هذه بشائر لمستقبل أفضل؟ نادراً ما يُنشر عنك في الصحف والإعلام مثل هذه الكلمات الإيجابية. تعودتِ على الهجوم يا نوال أو على الأقل تجاهل أعمالك. وحين أقرأ الصحف أو أفتح التليفزيون أجد الحوارات معك والأحاديث عنك سلبية، تفي بغرض واحد هو تشويه صورتك لدى الرأي العام، ولكن «لا كرامة لنبي وسط أهله». لقد تعرض أصحاب الفكر الجديد لكل أنواع الأذى. هذه هي ضريبة الفكر الحر والإبداع يا نوال.

* * *

لماذا يتم سحل المفكرين المبدعين من الرجال والنساء في كل زمان ومكان؟ لماذا تفزع السلطات الحاكمة في الدولة والعائلة من الفكر المبدع الحر؟ لماذا تشعر التيارات الدينية السائدة بالرعب من أي فكر جديد يرفع الحجاب عن العقول؟ ما سر عدائهم للعلوم والفنون؟ ما أسباب تخلّف المسرح والسينما والنقد الأدبي في مصر والعالم العربي؟ ما أسباب تخلف المرأة المصرية بالذات وعودتها إلى الأفكار العبودية والنقاب؟

أتهدف الردة السياسية والدينية إلى قهر المرأة والفنان معاً؟ كلاهما لا يملكان

الأسلحة التي تحمي الدولة والمؤسسات الدينية: الجيش، البوليس، المال، الإعلام، الثقافة والتعليم. هذه القوى السائدة في كل بلاد العالم، تترابط وتتحد ضد من ينشد مستقبلاً أكثر عدلاً وحريةً وصدقاً. الفن الصادق بطبيعته ينشد العدل والحرية، والمرأة الصادقة بالمثل تنشد العدل والحرية. أخطر شيء يحدث للمرأة هو حجاب العقل، الذي يجعلها تدافع عن نظام يقهرها ويسلبها حريتها. هذه هي العبودية في أقسى صورها، حين يقف العبد ضد نفسه للدفاع عن الظلم، وحين تتحول المرأة المقهورة إلى قاهرة لذاتها، حين تعتبر كيانها كله عورة يجب أن تختفي تماماً سوى عين واحدة أو نصف عين.

هذا العالم أليس فيه دولة واحدة فيها عدالة اجتماعية وديموقراطية حقيقية؟ تختلف نسبة العدالة والديمقراطية من دولة إلى دولة، حسب درجة الوعي وقوة التنظيمات الشعبية، نساءً ورجالاً وأطفالاً، حتى الأطفال في حاجة إلى تنظيم أنفسهم ضد القهر الطبقي الأبوي. نحن لا نزال نعيش في ما يشبه الغابة عالمياً ومحلياً، تفترس الدولة الأقوى عسكرياً غيرها من الدول الأضعف. ألا نقرأ أخبار الحرب الدائرة في كل مكان؟ غزو العراق؟ إبادة الشعب الفلسطيني؟ اغتصاب موارد الشعوب بواسطة الاستعمار القديم والجديد؟ المذابح في كل مكان؟ الفقر والجوع يتضاعفان خاصة عند النساء والأطفال.

وفي الأسرة الصغيرة، ألا يقهر الرجال نساءهم وبناتهم حسب العرف والشرع والقانون؟ ألا يقف القانون مع الأب لمجرد أنه رجل ضد مصلحة الأطفال والأسرة؟

* * *

يوم الخميس ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩ قرأنا في الصحف هذا الخبر:

«أعلنت المحكمة الإدارية العليا بمجلس الدولة حق الولاية الكاملة للأب

المطلّق على أبنائه، ومن ثم أحقية الأب في ممارسة الولاية التعليمية على أبنائه بصفته ولي الأمر الطبيعي عليهم».

هكذا حسمت المحكمة الجدل المثار حول من له حق الولاية على أبناء المطلّقين.

هذا الحكم يعني أن الأب الذي طلّق زوجته ليتزوج بأخرى أو لسبب آخر أقل أو أكثر سوءاً، وبصرف النظر عن كفاءة الأب أو مستواه التعليمى أو استقامة أخلاقه، فإن له الحق في نقل أبنائه من مدرسة إلى مدرسة واختيار نوع التعليم لهم دون أي اعتبار لرأي الأبناء أو رأي أمهم الحاضنة لهم، وإن كانت هذه الأم أفضل خُلُقاً وأكثر كفاءة وأعلى تعليماً وأكثر رعايةً واهتماماً بمصلحة الأسرة والأبناء من أبيهم، فهي لا تملك حق الولاية التعليمية عليهم لمجرد أنها امرأة.

ألا يُعتبر هذا القرار قانوناً عنصرياً ومنافياً للعدل؟ لأنه يميز الرجل على المرأة بسبب النوع أو الجنس، وبالتالي يتنافى مع الدستور المصري ومع كل مواثيق حقوق الإنسان الدولية؟

هذا مثل واحد على الظلم الواضح للأطفال والنساء في ظل القانون المصري. المفروض حسب المنطق والعدل، أن تكون الولاية في الأسرة للأصلح، وليس للرجل لمجرد أنه وُلِد من بطن أمه ذكراً.

ثم ينكرون أن للطفل قضية، وينكرون أن للمرأة قضية، ويصفون المدافعات عن حقوق النساء بالشذوذ والاسترجال أو الإباحية والكفر أو التآمر مع الغرب والأعداء ضد الوطن والدين.

وبرغم ذلك هناك أمل كبير.

سيكون المستقبل أفضل وأكثر عدلاً وحرية. الأمل قوة دافعة لا مثيل لها، والأجيال الشابة الجديدة بدأت تعبر عن نفسها بشجاعة، نساءً ورجالاً، في مصر والسعودية وكل البلاد العربية.

علينا أن نساند كل من ينطق بكلمة صدق.

في الحرية والديموقراطية

الجدل قمة الفضائل... علموا أطفالكم الجدل

ثلاث خواطر خطرت لي في الفترة الأخيرة:

الخاطرة الأولى

أصبح لقب الإعلامي أو الإعلامية هو اللقب السحري الذي يمنح صاحبه الحق في امتلاك الحقيقة السحرية واختيار من يملكونها من الشعب، أو الحكومة، أو المجلس الثوري، أو المجلس العسكري، أو غيرهم. يكفي أن يحمل الفتى أو الفتاة، كاميرا، وبضع «لمضات» ضوئية وكلامية، حتى تقع في حبه القلوب والعقول.

تدخل إلى أحد البيوت الراقية أو الشعبية « فتاة» من حاملات الكاميرا السحرية فينتهي الأمر بأن يصبح «الزوج» وجهاً تلفزيونياً أو مرشحاً مُحتمَلاً أو عريساً متصابياً. ويصل بالبريد إلى الأم وأولادها ورقة الطلاق.

ويدخل الفتى حامل الكاميرا السحرية إلى المجتمع المصري الراقي والشعبي، فينتهي الأمر بأن يصبح الفتى هو سقراط مصر وصاحب الرؤية التي لا يراها أحد.

أصبح وجود المرشّحين والمرشّحات في الانتخابات، أو في الحقيقة والواقع، مرهوناً بإحدى الفتيات أو أحد الفتيان من حاملي الكاميرا. يمكن للكاميرا أن تخلق من العدم مرشحاً مُحتمَلاً، ويمكن للكاميرا أن تنقل من الحياة إلى العدم رجلاً أو امرأة.

الخاطرة الثانية

قامت الثورات الشعبية في كل بلاد العالم منذ نشوء ما يُسمّى «الحكومة» في التاريخ. تدّعي كل حكومة (من أمريكا إلى إسرائيل والهند واليابان وبريطانيا وفرنسا وقطر والسعودية وغيرها) أنها ديموقراطية، لكن الديموقراطية الحقيقية تعني أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، بمعنى إلغاء الحكومة. هذه بديهية. لماذا تغيب البديهيات عن عقول الناس في الشرق والغرب، ويصدقون حكومتهم حين تعلن عن بدء انتخابات ديموقراطية؟

تبدأ ضجة الانتخابات في كل بلد بالطريقة نفسها والنتيجة نفسها: حكومة جديدة تتشكّل من أحزاب مختلفة أو غير مختلفة، مسيحية ديموقراطية أو إسلامية ديموقراطية أو اشتراكية ديموقراطية أو، أو.. تحمل الحكومات أسماء ديموقراطية سياسية مدنية أو دينية مختلفة، لكنها في النهاية تقود إلى نتيجة واحدة، وهي استغلال الشعب وتضليله إعلامياً وتعليمياً لصالح القلّة الحاكمة.

يقولون إن الديموقراطية الأمريكية أو البريطانية أو الفرنسية هي ديموقراطيات عريقة، وإن الانتخابات عندهم حرة. لكن الثورات الشعبية الأخيرة من وولت ستريت في نيويورك، إلى سان بول في لندن، إلى باريس (وغيرها من المدن في تلك البلاد)، تؤكد أن الديموقراطية أكذوبة كبيرة من صنع الحكومات الرأسمالية الأبوية العسكرية البوليسية، مثل غيرها من الكلمات البرّاقة الرنّانة، مثل السوق الحرة والصحافة الحرة والانتخابات الحرة، وحقوق الإنسان وحقوق النساء، وحقوق المهاجرين والفقراء. كلها كلمات برّاقة خادعة لا تغير من أسس النظم الحاكمة.

لماذا لم تتغير أسس الحكم الرأسمالي الأبوي في العالم القائم على القوة وليس على العدل، برغم كثرة الانتخابات الحرة، وكثرة البرلمانات والأسواق الحرة، وكثرة الصحف الحرة، والإعلام والفضائيات، والمدارس والجامعات، وتوالد الأحزاب الدينية الجديدة كما تتوالد الأرانب؟

لماذا تصاعدت وتنمّرت القوى اليهودية اليمينية والمسيحية والإسلامية والسلفية بكل مذاهبها، في كل بلاد العالم، من إسرائيل إلى أمريكا وأوروبا والعالم العربي بما فيها تونس ومصر؟

لقد قامت مظاهرات الملايين من الناس في العالم كله حتى داخل أمريكا نفسها، ضد جورج بوش (الأب والابن) اللذين أشعلا الحروب، ونهبا البترول وقتلا الملايين في العراق. ومع ذلك لم يُحَاكم أحدهما ولم يُدَنْ. وهما يعيشان في رغد وهناء وأمن وسلام حتى اليوم.

تُقتل الشعوب وتُنهب ثرواتها، من العراق إلى فلسطين إلى ليبيا مؤخراً، وغيرها في كل أنحاء العالم، تحت أسماء خادعة برّاقة من الديموقراطية إلى حقوق الانسان إلى حماية الشعب من حاكمه الدكتاتور: القذافي، أو صدام حسين، أو ياسر عرفات الإرهابي، أو عبد الناصر الشيوعي، أو بشار الأسد الذي يقتل شعبه، أو غيرهم، على الرغم من أن جورج بوش، الأب أو الابن، قتل أضعاف أضعاف ما قتله أي واحد من هؤلاء الحكام. فالحاكم منهم كان محلياً، يقتل داخل بلده فقط، لكن الحاكم الأمريكي هو حاكم عالمي يقتل خارج بلده في كل بلاد العالم. ومع ذلك لم يُحاكَم جورج بوش أو غيره من السفاحين، ولم يُحاكم باراك أوباما على مساندته الدائمة للحكومة الإسرائيلية لقتلها الفلسطينيين، برغم اندلاع المظاهرات في بلاد العالم ضد إسرائيل ودفاعاً عن حقوق الشعب الفلسطيني.

الخاطرة الثالثة

يبلغ عدد شعوب العالم اليوم سبعة بلايين إنسان، وعجزت هذه الشعوب حتى اليوم، برغم الثورات المتكررة والانتفاضات المستمرّة، عن تغيير أسس الحكم في العالم، القائمة على الظلم والقهر لصالح القلّة الحاكمة.

لماذا؟

في رأيي أن المشكلة تكمن في التعليم الأساسي للأطفال والتلاميذ.

يخدم التعليم والإعلام نظام الحكم كما يخدمه البوليس والجيش. يسيطر البوليس والجيش على الأجسام، يضربها أو يحبسها أو ينفيها، أما التعليم والإعلام فيتولّيان السيطرة على العقول بمنعها من التفكير النقدي المبدع، وتدريبها منذ الطفولة على الطاعة خوفاً من نار الآخرة أو عقاب الدنيا الذي تنفّذه السلطة في البيت والمدرسة والدولة. يصبح النقاش أو الجدل من الشيطان، والطاعة من الإيمان والأخلاق الحميدة.

يكبت العقل منذ الطفولة القدرة على التفكير النقدي، خاصة نقد أصحاب السلطة في الأسرة والدولة والدين، ويصبح الجبن أو النفاق سيد الأخلاق ومصدر الأمان في الحياة الخاصة والعامة.

يعجز العقل عن رؤية التناقضات في الأقوال والأفعال، وبالتالي يعجز عن رؤية الظلم أو أسباب الفقر والمرض، ويتصوّر أن هذا هو القدر أو أمر الله.

لهذا يصبر الشعب في عمومه (عقوداً وقروناً) على الظلم والقهر، نساءً ورجالاً، وإن تمردت الأقلية من النخبة الواعية وجرت وراءها الأغلبية المقهورة في ثورة ضد النظام الحاكم، تظل أغلبية العقول خائفة مترددة، وسرعان ما تسيطر عليها الطبقة الحاكمة الجديدة بعد الثورة، عسكرية أو مدنية أو دينية. لهذا تم إجهاض أغلب الثورات في التاريخ، حتى تقوم ثورة ثانية تحقق بعض المكاسب للشعب، ثم يتم إجهاضها لتقوم ثورة ثالثة وهكذا.

قد تتغير وتتحرّر بعض القوانين السياسية أو الاقتصادية نتيجة للثورات، إلا أن نظم التعليم والإعلام تظل دون تغيير ودون تحرّر. إنها المعقل الأخير الذي يتمسّك به النظام الحاكم، معقل التحكّم والسيطرة على «العقول» عن طريق غرس فضيلة «الطاعة» في العقول، واعتبار «الجدل» رذيلة، مع أن الجدل قمة الفضائل.

علّموا أطفالكم الجدل والتفكير النقدي.

الله مع مَنْ؟

في ربيع عمري أصبح شعري أبيض بلون الثلج. يتوقف الناس في الطريق ويهتفون دهشةً: سبحانك يا رب، شعرها أبيض وهي شابة صغيرة! تمص النساء الشفاه حسرةً على الشيب المبكر، وتبحلق عيون الرجال إلى سحر التناقض بين النقيضين: ربيع الجسد الغض الأنثوي يحمله رأس ذكوري شاب شدة الفكر (كلمة «فكر» في اللغة السائدة العامية تعني نقيض الفكر أي غياب العقل أو الجنون).

لجنة القصة في المجلس الأعلى للفنون والآداب (المجلس الأعلى للثقافة اليوم) كان يرأسها توفيق الحكيم. رأسه أبيض مثل رأسي، ويكبرني بنصف قرن. بشرته مشدودة خالية من التجاعيد، ويفيض شباباً وحيويةً أكثر من أعضاء اللجنة الشباب، الذين يبدون إلى جواره كهولاً عجائز. شعرهم أسود غزير يتفجر ذكورةً وشباباً وعنفواناً، لكنه يتناقض مع بشرتهم المرتخية المتهدّلة الشاحبة، وكلماتهم وأصواتهم وحركاتهم الشائخة. كل ما فيهم شاحب شاخ قبل الأوان، إلا يوسف إدريس المنافس الوحيد بينهم لتوفيق الحكيم في الحيوية والإقبال على الحياة. لكن توفيق الحكيم كان يتفوّق دائماً فى الاستحواذ على الانتباه، بما يملك من وجود أخّاذ، وحديث ممتع جذّاب.

يضحك توفيق الحكيم مثل الطفل الشقي، ويحملق فينا بعينيه اللامعتين

المشاكستين ويسأل: «هو ربنا رأسمالي وإلاّ شيوعي؟». هذه الأسئلة المشاكسة، تغضب المتديّنين من الماركسيين أو الإخوان المسلمين أو المسيحيين أو الليبراليين، ويسعد بها الآخرون الباحثون في علوم الفلسفة والتاريخ ونشوء الكون.

كان ذلك فى نهاية الستينيات من القرن العشرين، وكان عبد الناصر لا يزال على قيد الحياة بعد هزيمة ١٩٦٧. تدفعه الحماسة الشعبية إلى الاستمرار، مثل زجاجات دم جديد تحقن فيه ذؤابة الحياة، القائد انهزم وشاخ قبل الأوان، حتى تهاوى في ٢٨ سبتمبر/أيلول ١٩٧٠ وقرّر الوداع.

كانت «منى» طفلة تحاورني بتلقائية الأطفال الذكية البسيطة. الإبداع هو البساطة والتلقائية الطفولية، وأسئلتها تشبه أسئلة توفيق الحكيم عن ربنا: «هل هو يساري أو يميني؟». سألتني يوم هزيمة ١٩٦٧ بعد أن رأت الزعيم المهزوم فوق الشاشة: هو ربنا مع عبد الناصر وإلاّ مع إسرائيل؟

منذ عشرين عاماً سألت أمي السؤال نفسه بعد نكبة ١٩٤٨: هو ربنا مع فلسطين وإلاّ مع إسرائيل؟ وكان خطباء الجوامع يرددون كل جمعة بأن الله مع المسلمين ضد الأعداء الكفرة في إسرائيل.

في كل الهزائم الكبرى والصغرى يتكرر السؤال على لسان الأطفال والكبار: يا ترى ربنا معانا وإلاّ معاهم؟

بعد هزيمة العراق عام ١٩٩١ سألتني منى: لماذا يقحمون الله في المعارك الحربية؟ هل هناك علاقة بين الحرب العسكرية والدين؟

نوال: وهل هناك علاقة بين الاقتصاد والدين؟ أو السياسة والدين؟ أو الأخلاق والدين؟ أو الجنس والدين؟ أو الحب والدين؟

منى: هذا يتوقّف على مفهوم الدين؟ إذا كان الدين يعني العدل والحرية والصدق فهو يرتبط بكل ما في الحياة من اقتصاد وأخلاق وجنس وحب. لأن الحياة لا تكون حياة إنسانية، وليس غابة، إنْ لم تقم على العدالة والحرية والصدق.

نوال: هذا صحيح نظرياً، لكن الواقع غير ذلك. فالدين في بلاد العالم يقوم على الكتب الدينية المختلفة. الدين اليهودي يقوم على كتاب التوراة، والدين المسيحي يقوم على كتاب الإنجيل، والدين الإسلامي يقوم على كتاب القرآن. وهكذا، تختلف هذه الكتب في كثير من الأمور العامة والخاصة، ويغرق التاريخ بالدم في حروب دينية لا تتوقف، وهي حروب حول الأرض وموارد الحياة لكنها تتم تحت اسم الله. كل جماعة من دين أو مذهب معيّن تدّعي أن الله معها، والحقيقة أن الله ليس مع أي منهم.

منى: أتقصدين «الله» بمعنى العدل والحرية والصدق والحب والسلام والجمال والإبداع؟

نوال: طبعاً. هذه المعاني الإنسانية الرفيعة ترمز إلى الله، فالله رمز.

منى: من هي الجماعة أو من هو المجتمع الذي حقّق هذا الرمز؟ إن العالم غابة كبيرة يغيب فيها العدل والحرية والصدق والحب والسلام. وعندي سؤال: أترين فرقاً بين الدين والعلم؟

نوال: يمكن القول بصفة عامة إن العلم هو ما نعرفه، والدين هو ما لا نعرفه. ومع تقدّم العقل البشري يتحول كثير من قضايا الدين إلى مجال العلم.

منى: معنى ذلك أن الأشياء التي نكتشفها تنفصل عن الدين وتصبح من العلم؟

نوال: نعم. مثلاً هطول المطر من السماء كان يدخل ضمن ميدان الدين، بل كان للمطر إله يصلي الناس له أيام الجفاف. وقد دخل المطر ضمن العلم وعرفنا أسبابه، ويمكن بالعلم إنزال المطر لري الأرض في أوقات كثيرة، قليلة المطر.

منى: أترين فرقاً بين الدين والفلسفة؟

نوال: هناك فرق بالطبع، وهناك تشابه. يتميز الإنسان بعقل متطوّر عن الحيوان، ويميل إلى التأمّل في الكون والناس والحياة. نحن نتأمل الأشياء التي لا نستطيع

إخضاعها للعقل أو للمعرفة العلمية، فالعلم لا يفسّر كل ما نراه حولنا حتى الآن، وربما يفعل ذلك في المستقبل. هناك مجالات كثيرة لا تزال غامضة، منها العقل ذاته. لم يكتشف علم الطب مثلاً إلا جزءاً صغيراً من المخ الإنساني، لا يزيد عن الخُمس. يعتمد الدين على الإيمان منذ الطفولة، ويغزو الدين الوجدان أو العاطفة، ما يسمّى القلب. لكن الفلسفة تفكّر في الكون بالعقل والبرهان، إنه البرهان على أشياء نحس بها ولا نعرفها.

منى: ما الفرق إذن بين الفلسفة والعلم؟

نوال: الفلسفة فرع من العلم، لكنها تعتمد أيضاً على الحدس. تقترب الفلسفة هنا من الفن في الاعتماد على ما يُسمّى الحدس، الشعور واللاشعور معاً، الوعي واللاوعي، العقل الظاهر والعقل الباطن في آن.

منى: قد يسبق حدس الفلاسفة في اكتشاف حقائق علمية قبل العلماء. مثلاً الفيلسوف اليوناني ديموقريطس سبق علماء الذرة بألفي عام في اكتشاف أن المادة تتكون من ذرات، وما هو أصغر من الذرة. وأيضاً الفيلسوف «إريستارك» سبق العالم «كوبرنيك» بألفي سنة في اكتشاف أن الأرض تدور حول الشمس، وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض.

نوال: أنت شاعرة وكاتبة مبدعة، يمكنك بالحدس والخيال أن تفكري في أشياء تصبح حقيقية فيما بعد. هذا هو جوهر الإبداع فى العلم والفن والفلسفة وكل شيء.

منى: تقصدين الخيال العقلي وليس الخيال الخرافي؟

نوال: نعم. الخيال العقلي هو جوهر الإبداع في أي شيء، وهو ينبع من أجزاء المخ العميقة غير المعروفة بعد. مثلاً أنت تفكرين اليوم في فكرةٍ ما ليست حقيقية، لكنها بالحدس يمكن أن تكون حقيقية غداً. هذا هو جوهر الخيال العقلي الذي يقود إلى الحقائق الجديدة في العلم والفن. ويختلف عن الخيال الخرافي غير المرتكز على الحدس، أو أي جزء من العقل الظاهر أو الباطن.

منى: هناك من يعتقدون أن الفلسفة بدأت في اليونان القديم وليس في مصر القديمة؟

نوال: هذه وجهة نظر أوروبية متحيّزة لنفسها، وبسبب غزو أوروبا لبلادنا وسبقها في النهضة العلمية والفكرية، ولأننا تخلّفنا وأصبحنا نهمل دراسة تاريخنا القديم ونعتمد على دراسات العلماء الغربيين.

رؤية تعليمية للنهوض بالعقل المصري

قرأت في صحف اليوم ٢٨ نيسان/أبريل ٢٠١٠ تصريحاً لوزير التعليم الأستاذ زكي بدر والمفتي الدكتور علي جمعة، يعلنان فيه تغيير مناهج التربية الدينية بالمدارس، ويوافقان على تدريس مادة جديدة هي «التربية الأخلاقية». وهذا خبر مهم يدعو كل أصحاب وصاحبات الرأي لتقديم اقتراحاتهم وأفكارهم لتطوير التعليم والأخلاق في بلادنا، منذ الطفولة المبكرة إلى جميع مراحل العمر.

هذه المهمة الملحة الضرورية لا تخص دار الإفتاء أو وزارة التعليم وحدهما، بل هي مهمة كل امرأة ورجل وطفل وطفلة لإبداء الرأي. لا بد أن نسمع آراء الصغار قبل الكبار في ما يتعلق بالتعليم، خاصة في المراحل الأولى، والمدارس الابتدائية والثانوية. وهي مهمة المفكرين والمفكرات، من مختلف الفنون كالرسم والشعر والموسيقى، والعلوم الطبيعية كالطب والفيزياء، والعلوم الإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع والفلسفة والأخلاق وغيرها.

إنها الفرصة المتاحة الآن للنهوض بالعقل المصري، الذي تعرّض للضمور والجمود، تحت معاول الردة الداخلية والخارجية، السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، إلى الحد الذي أصبح يهدد، ليس ظهورنا على مسرح

القرن الحادي والعشرين فحسب، بل وجودنا من أساسه. وقد زالت من قبلنا شعوب وإمبراطوريات، تفتّتت من الداخل بسبب تدهور التعليم، وضمور عقل الأمة.

في ما يلي ملخص بعض أفكاري عن تطوير التعليم في مصر:

١- يتم تغيير مناهج التعليم كلها، بحيث يقوم التعليم على مفهوم العدالة والمساواة الكاملة بين المواطنين والمواطنات، بصرف النظر عن أية اختلافات سياسية أو جنسية أو دينية أو طبقية أو اجتماعية أو عائلية أو غيرها.

٢- تأكيد مفهوم «المساواة والعدالة» بدلاً من مفهوم «التسامح» أو «تقبّل الآخر» لأن التسامح أو تقبّل الآخرين لا يعني المساواة، بل يعني أن طرفاً أعلى وأقوى يتنازل ويتسامح ويتقبّل الطرف الآخر الأدنى والأقل قوة. وهو مفهوم مذهبي نشأ في التاريخ لتفضيل ملّة على ملّة أو عقيدة على عقيدة.

٣- مادة التربية الأخلاقية في المدارس تقوم على المبادىء الإنسانية العامة: الحرية، العدل، المساواة، الصدق، الإخلاص، الوفاء بالعهد، عدم التعصب، وعدم التفرقة بين البشر. الكفاءة والجهد والإبداع هي أسس النجاح والترقي وليس القرابة وصلات الرحم ووساطات السلطة الحاكمة في الدولة والعائلة.

٤- لا تُدرَس الأخلاق من منظور عقيدة معينة أو مذهب أو دين أو حزب أو أي قوة سياسية أو دينية أو جنسية أو غيرها، بل تُدرَس الأخلاق على أساس المساواة الكاملة بين المواطنين والمواطنات، وبصرف النظر عن أية اختلافات.

٥- يتم الربط بين الخاص والعام، والفن والعلم، والعقل والوجدان، والعلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، وبناء الشخصية الفردية المتكاملة دون الفصل بين روافد المعرفة، ودون الفصل بين أجزاء الكيان الإنساني الواحد: الجسدي والنفسي والروحي والعقلي.

٦- سد الفجوة بين التعليم النظري والواقع العملي المعاش، وإعداد التلاميذ والتلميذات ليكونوا دعائم المستقبل الأفضل، والقيادات الأصلح لبناء المجتمع

المصري المستقل داخلياً وخارجياً، والأقدر على تحقيق الاستقلال والحرية الفردية والجماعية، والتنمية الاقتصادية المستقلة والاجتماعية الشاملة.

٧- إلغاء فكرة «الحصانة» في جميع المناهج التعليمية، لأي شخص، مهما ارتفعت مكانته السياسية أو الدينية أو الاقتصادية أو غيرها، بحيث يصبح الجميع سواسية أمام الدستور والقانون، ويتربّى التلاميذ والتلميذات منذ الطفولة على شجاعة النقد الموضوعي البنّاء لأي شخص، وليس الخوف من السلطة أو الحفظ عن ظهر قلب والطاعة العمياء.

٨- إرساء مفهوم مراجعة النفس عند الخطأ أو الشك، وأن الخطأ أو الشك شيء طبيعي في كل إنسان، وهو جزء من الطريق للوصول إلى الصواب أو اليقين. وأن الصواب أو اليقين لا يكون مائة في المائة، فهناك دائماً مساحة للشك وعدم الاكتمال. التعليم الجيد يقوم على تنمية العقل الإبداعى للطفل والطفلة، وعلى القدرة على تغيير الواقع عبر الخيال والقدرة على التنبؤ بمستقبل أفضل.

٩- تشكيل لجنة من كل الاتجاهات السياسية والاجتماعية والدينية، ومن كل التخصصات العلمية والفنية والإبداعية، من الرجال والنساء، ومن مختلف الأعمار، للجلوس معاً ووضع خطة تفصيلية لتطوير مناهج التعليم العلمية والفنية والدينية وغيرها، في المراحل الابتدائية والثانوية.

١٠- ترشح المنظمات الحكومية وغير الحكومية، والهيئات العلمية والفنية والدينية المختلفة، والأحزاب والجمعيات القائمة والتي هي تحت التأسيس، والبرلمان، أعضاء وعضوات هذه اللجنة الموسّعة، ثم يتم انتخاب ثلاثين عضواً وعضوة منها. ويشارك في اجتماعات هذه اللجنة وزراء التعليم والثقافة والإعلام وغيرهم من المسؤولين عن التعليم والإعلام.

١١- تُطرح الخطة عبر أجهزة الإعلام والتعليم للمناقشة، ثم تُقدم للبرلمان لإصدار قانون جديد للتعليم في مصر.

إبداع أم تقليد؟

ينتمي الإبداع الفكري إلى «المعارضة» في كل زمان ومكان. الإنسان المبدع يشعر بالموت إن نافق السلطة الحاكمة المتسلطة، أو نافق المعارضة إنْ تحولت هي نفسها إلى شكل من التسلط الفردي، أو إلى شلل منغلقة على نفسها وغير ديموقراطية. منذ عصر العبودية حتى اليوم يتشرّب العقل (الوعي واللاوعي) الخضوع للسلطة المستبدة، والتمرد عليها في آن. انقسم الإنسان إلى شخصين اثنين: أحدهما يخضع ويطيع ويستسلم، والثاني يعارض ويتمرّد ويثور.

إن ازدواجية الشخصية هي النتيجة الطبيعية لازدواجية القوانين في الماضي والحاضر، في السياسة والاجتماع والأخلاق والأديان والأعراف والتقاليد والقيم المادية والروحية. انقسم الروح كما انقسم العقل والجسد، وانفصل كل منهما عن الآخر. حلّق الروح في فضاء المثالية الضبابي، وهبط الجسد إلى قاع المادة الصلب. وأصبح العقل معلّقاً مذبذباً بين السماء والأرض، بين الخضوع والتمرّد، بين الحكومة والمعارضة، بين الكذب والصدق، بين الخيانة والأمانة، في الحياة العامة والخاصة.

يمكن للإنسان أن يظل شريفاً محترماً في الحياة العامة، وهو خائن غير محترم في حياته الخاصة. يمكن لرئيس دولة مثل بيل كلينتون أن يخون زوجته ويظل مخلصاً للدستور والوطن، ويمكن لجورج بوش أن يدمر شعب العراق ويظل بطلاً قومياً،

ويمكن لمناحم بيجن أن يدمر شعب فلسطين ثم يحصل على جائزة نوبل. ويمكن لرئيس عربي أو أفريقي أن يخون شعبه، ثم يموت زعيماً مرموقاً، يمشي في جنازته رؤساء العالم.

الانفصام في الطب النفسي (يسمونه الشيزوفرينيا) يصيب بعض الأفراد، لأسباب تتعلّق بمشاكل فردية أو عائلية. لكن الانفصام مرض العالم البشري كله منذ نشأة العبودية. يؤكد التاريخ هذه الحقيقة، ولا يعرفها أغلب أطباء النفس في العالم، بسبب عدم دراستهم التاريخ، والانفصام في التعليم الطبي بين الطب الوقائي والطب العلاجي، وانفصال الصحة النفسية عن الصحة الجسدية، عن الصحة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية.

يقوم العلم والتعليم في العالم الغربي والشرقي على الانفصام بين العقل والروح والجسد، بين العلوم الطبيعية كالطب والكيمياء، والعلوم الإنسانية كالأدب والسياسة والتاريخ. ويقوم علم التاريخ مثل علم السياسة والأخلاق على إخفاء الحقائق الإنسانية قبل نشأة العبودية، وقبل نشأة القيم المزدوجة في المجتمع، وارتفاع السيد الحاكم فوق السماء، وهبوط العبد المحكوم تحت الأرض، ومن تحته زوجته وما يملك من ماشية وأولاد وبنات، ما سُمّي باسم: «الفاميليا» في اللغات القديمة.

يلعب المبدع دوراً رائداً للقضاء على القيم المزدوجة. الازدواجية تعني الكيل بمكيالين، أي الظلم والتفرقة بين البشر لأسباب سياسية أو دينية أو عائلية أو عرقية أو جنسية.

يفتح المبدع الطرق الجديدة، ولا يمشي مع الآخرين في الطرق الممهّدة القديمة. يمشي في طرق وعرة لم يمهّدها أحد. يمشي وحده تماماً يضرب في الظلمة، ولا يسانده أحد إلا عقله الذي ينشد الحرية والعدل. وقد يلعنه الجميع لكنه يمضى في طريقه.

يمضى المبدع وحده في الطريق الصعب، ولا ينشد الجوائز أو يخاف العقاب.

يبحث عن التحرّر من القيود، وعن معرفة جديدة، وهي صعبة دائماً. هي مدفونة في بطن الأرض، جوهرة ثمينة لم يُعثر عليها بعد. قد يجدها في حياته، وهذا نادر، فيموت فرحاً، وقد يموت في الطريق إليها، فيموت فرحاً أيضاً.

فالطريق الجديد هو فرح المبدع ولذة الحياة، وليس الفوز بكرسي الرئاسة أو البرلمان، أو الحصول على الوسام الوطني. فرح المبدع لا يعني غياب الحزن أو الألم أو الإحساس بالفقدان. يفقد المبدع أعز ما يملك إلا العقل الخلاّق، الذى يقضي على كل الأحزان وكل المفقودات أو المفقودين.

المبدع لا يحصل على جائزة، لأنه لا يتقدم للحصول على جائزة. جائزته الوحيدة هي السير في طريق جديد، اكتشاف المجهول واستشراف المستقبل.

ليس للمبدع سلطة إلا سلطة الإبداع. لا يطيع ولا يخضع إلا لعقله، وما ينتج عنه من عمل أدبي أو فني أو علمي أو فلسفي أو اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو تاريخي أو أي مجال آخر.

الإبداع ليس له مجال واحد بل يشمل أيضاً العلاقات الإنسانية: الصداقة والحب والزواج، والزمالة في العمل الثقافي والاجتماعي والسياسي.

يهدف الإبداع إلى القضاء على الظلم وتحرير النفس والآخرين. الملايين من النساء والمقهورين يوقظهم الإبداع. الأغلبية الصامتة تنطق. تفقد الخوف واليأس. تتمرّد وتثور وتغيّر أسس النظام.

ليس للإبداع سقف أو حدود. بعض الناس يجعلون من المعارضة معبوداً جديداً بأمل الخلاص من معبود قديم. والمعارضة حين تجلس على العرش تصبح أكثر تسلّطاً وبطشاً؟ هل وُلِدت أحزاب المعارضة من رحم السلطة الحاكمة؟

هل تصبح المعارضة ديموقراطية بقرارٍ جمهورى؟ كيف تكون في بلادنا ديموقراطية إذا كان النظام السياسي والثقافي والتعليمي والديني يقوم على الديكتاتورية؟

الدكتاتورية منذ العصر الفرعوني نرضعها منذ الولادة. كل مؤسسة صغيرة أو كبيرة يتسلط عليها فرعون، من الأسرة إلى الدولة إلى البرلمان إلى الأحزاب المعارضة والشلل الأدبية والسياسية. الشعب كله يرضع الدكتاتورية منذ الولادة حتى الموت.

الدكتاتورية أسلوب حياة ينخر في الشخصية المصرية، ويحول المرأة أو الرجل إلى مسخ إنسان، ممسوح الوجه مثل القرش الممسوح. مثل الموظف في الحكومة، ومثل الزوجة فى بيت الطاعة.

الديموقراطية أسلوب حياة لا بدّ من أن تبدأ في البيت. الأب الدكتاتور ينتج أسرة من العبيد. والأسرة المقهورة هي نواة الشعب المقهور. والديموقراطية السياسية لا يمكن أن تحدث دون ديموقراطية اجتماعية وثقافية وتعليمية، تغيّر شخصية المرأة والرجل.

الديموقراطية تحتاج إلى تغيير شخصية النساء والرجال قبل تغيير الدستور، لأن الإنسان هو الذي يغيّر الدستور وليس العكس.

ولو أن المعارض الجديد، أو المرشح الجديد للحكم القادم من وراء المحيط، قد تشرّب الديموقراطية منذ الطفولة (إنْ كان هناك ديموقراطية منذ الطفولة)، فهل يتحوّل إلى دكتاتور عاجلاً أو آجلاً؟ هل تعزله الطبقة ذاتها التي حملته إلى كرسي العرش إنْ هدّد مصالحها الراسخة في صلب النظام الرأسمالي الأبوي الدكتاتوري؟

السؤال الوارد الآن: كيف يمكن إرضاع الشعب كله الديموقراطية إذا كان لبن الأم مسمّماً بالخنوع للدكتاتورية؟

هذا هو التحدي. هذا هو الإبداع، هذا هو الطريق الصعب الجديد، وليس السير في طريق المطار الممهّد منذ مائة عام لاستقبال المرشح الجديد.

الدنيا كده

خاطرة

حرّكت رأسي بعيداً عن جسده الممدّد فوق بلاط الحمام، ومددت يدي لأغطي المسافة بيني وبينه، التي تزداد اتساعاً، وحرّكت شفتيّ أحاول أن أناديه. اسمه يهرب من ذاكرتي، وكل شيء يهرب بعيداً. لا تصل يداي إلى البشكير المعلّق بجوار البانيو. يبتعد البشكير ومعه البانيو، وجسده الممدّد على البلاط يبتعد. أفتح فمي لأتنفس، لأنادي على ابنتي النائمة في الغرفة المجاورة. كانت طفلة بالأمس، كم سنة مرت؟ كنت في ربيع العمر، أنام وأحلم وأصحو وأنا أغني.

أحاول النهوض وتغطية جسده العاري. العري الكامل مخيف. منذ الطفولة أخافه. العري، العورة، ويدي معلّقة في الفضاء، بشرتها مجعدة وعروقها نافرة تعلوها بقع. أخفيها وأبتلع الحزن. كانت بالأمس ناعمة ملساء، أتركها في يده، يلامسها بشفتيه، ويربّت عليها بحنان الأم. أمد يدي لأغطيه، كي لا تراه العيون عارياً. كنت أظنه مختلفاً عن الناس، لا عورة له. لا شيء فيه يخجلني. لم تتعلم عيناي الرؤية، بل النظر فقط، ولم أملك القدرة لأرى جسده العاري. كم عاماً في فراش واحد، ولم أرَه قط.

تقاطيع وجهه غاصت في عمق رأسه، فلا تكاد تتعرّف إليه. رجل غريب لم تره

من قبل، لم تَرَ إلا الوحمة السوداء بحجم حبة التوت تحت حاجبه الأيسر. بشرته بلون البشكير الأبيض، يشبه وجه أبيها بعد موته، والعورة أيضاً مشابهة. مرة واحدة فقط لمحتها، في لحظة خاطفة تشبه ومضة برق. كان راقداً على ظهره، وشخيره خافت منتظم مثل الساعة. أبعدت رأسها بسرعة. كانت في السابعة من عمرها، لا تستطيع النظر إلى عورة أخيها الأصغر. فكيف تنظر إلى رجل كبير، يتخفّى المخيف تحت شعر العانة الكثيف.

أرادت أن تزحف بجسدها على البلاط. أرض الحمام مبلّلة بسائل ليس ماء. لا تقوى على فتح عينيها، ولا تستطيع رؤية الدم. هل انزلق فوق البلاط وهو يستحم؟ لم تكن قدمه تنزلق، وإن انزلقت لا يسقط، وإن سقط ينهض في لمح البصر دون خدش. كم سنة مرت منذ ليلة الفرح الحزين؟ لم تعرف عدد السنين. كانت تحزن لموته في الحلم، وأصبحت تحزن في الصباح لأنه لم يمت.

* * *

أحاول أن أكتب عنها وعنه. وجهي ناحية الكومبيوتر، وظهري إلى الحائط، وأصابعي تتحرك فوق الحروف ببطء. ضوء شاحب يتسلّل من شقوق الشيش الساعة السادسة صباحاً. ومدينة القاهرة في تموز/يوليو تنفث الصهد في الصباح، تتنفس دخاناً ملوثاً، وتنز عرقاً مسمّماً، له رائحة يأس أسود .

إنه صيف العام ٢٠١١! هل أجهضوا الثورة؟

مات كل الأصدقاء والصديقات. سكتة في القلب مفاجئة، جلطة في المخ مباغتة، موت الابن أو الحفيد في الثورة، طعنة في الظهر من صديق، خيانة زوجية، خيانة الوطن. وتتوالى المآسي وتتنوع، ويزداد الإيمان بالقدر الغدّار، الواحد القهّار، المدينة القاهرة وحكومتها الطاغية.

تجاوز حدود العمر الافتراضى. هل ورث جهاز مناعة ضد الفناء؟ أهو الحامض الوراثي والجينات؟ أم أن الموت حيوان يهرب من الشجعان؟ أصبحت الشجاعة رذيلة والطاعة فضيلة، وأصبح الجوعى والمرضى والمعوّقون يرقدون على الأرصفة أمام البرلمان. وشباب بلا عمل عاطلون، وعمال من العمل مطرودون، وأمهات مطلقات بأطفال يرضعون، وبيوت فوق سكانها تسقط وهم نائمون، يحلمون بيوم القيامة ولقاء الرحمن الرحيم.

بالأمس كان. مرت ثماني عشرة سنة بجرة قلم في لمح البصر. في الساعة نفسها السادسة صباحاً، انفتحت البوابة الضخمة العتيقة. أزيز حديدها الصدىء يشبه الأنين، وعمرها ألف عام وأكثر، منذ الجوارى والعبيد وسلاسل الحديد.

خرج الشاب يحمل صرّة ثيابه تحت إبطه، لا شيء في ملامحه يلفت النظر، إلا الوحمة السوداء تحت حاجبه. قامته متوسطة، ولونه وسط بين البياض والسمرة، ويضع على عينيه نظارةً طبيةً سميكة. ظهره انحنى قليلاً، وشعرات بيض تتسلّل إلى رأسه. يمشي بخطوات حذرة، ويتوقّف عاجزاً عن اجتياز الشارع. السيارات تمر كالبرق، أضواؤها تؤلم عينيه، ويخشى أن يسقط تحت العجلات. كانت خطوته سريعة وهو يجتاز الشارع. يقفز فوق السيارات، ويطير في الهواء مسابقاً القطط والكلاب البوليسية.

يخلع النظارة ويمسح عنها العرق. منذ الطفولة وهو يضع نظارة. ورث قصر النظر عن أبيه. وتمنّى أن يكون له أب آخر، قوي البصر، ضميره حي، لا يضرب أمه، ولا يخونها في السر.

أدار رأسه إلى الخلف. المبنى الضخم نوافذه مسدودة بالقضبان، وجدرانه سوداء تغرق في الضباب، تعلوها الأسلاك الشائكة المكهربة، تجمّد فوقها عصفور غافل. عشر سنوات من شبابه راحت في غفلة؟ يفرك عينيه من تحت النظارة. لم يكن في انتظاره أحد عند البوابة؟ أمه مريضة في الفراش، تركت أهلها من أجل أبيه. خدمته

وخدمت الأسرة والأولاد خمسين عاماً، وهجرها أبوه وهي في السبعين من عمرها إلى فتاة السينما كاميليا. وزوجته أين هي؟ كانت تزوره في السجن وهو نائم. جسدها ناعم دافىء. تحوطه، تحنو عليه كالأم، وتهمس في أذنه: «أنا معك إلى الأبد يا سليم» فيغيب معها في قبلة طويلة تستغرق الليل كله.

يصحو على صوت السجان عم محمود، وهو يناوله صحن الفول يطفو فوقه سوس صغير أسود، ولبابة الرغيف يرقد فيها دود دقيق أبيض، وكوب شاي له طعم التراب. «صباح الخير يا ابني» ترن الكلمة في أذنه غريبة، أهو ابنه؟ ذلك الآخر المتكوّر على الأرض، في أنفه تراب، ولا يعرف الليل من النهار.

ينتظر طويلاً عند الإشارة الضوئية، يتأمل الناس يسيرون في إعياء نصف نائمين، أو يسرعون في ذعر مهرولين، شاب يجري نحو شيء ما في سعادة، حلم يريد تحقيقه، فتاة يحبها؟ كان مثل هذا الشاب منذ زمن سحيق، قبل أن يلتقي بسعد توفيق. يشتعل النور الأحمر فتتوقّف السيارات. يجتاز الشارع بخطوة بطيئة، لا شيء يدفعه للسرعة، ولا أحد ينتظره إلا أمه المريضة، وأبوه مع عروسه في بيت آخر لا يعرف عنوانه. لم يذهب إلى بيت أبيه الجديد إخلاصاً لأمه الحزينة.

يدق الجرس، فتطل أمه من فوق السرير: سليم، ابني، حبيبي. يحوطها بذراعيه، وتذرف الدموع على صدره: الوحيد الباقي لي في الدنيا أنت يا ابني.

يدور في غرف البيت يبحث عنها: فين درية يا ماما؟

خرجت يا حبيبي وراجعة حالاً.

نهضت أمه تتكىء على العكاز، واتجهت إلى المطبخ: لازم جعان يا حبيبى. مسحت دموعها: درية جايه حالاً يا حبيبي.

في الليل همست في أذنه: وحشتني يا سليم.

وأنتي كمان يا درية.

مدت يدها وأمسكت يده. بقي راقداً على ظهره إلى جوارها، يحاول أن ينقلب على جنبه ليحوطها بذراعيه، لكنه لا يستطيع.

الثورة قامت من خمس شهور وأنت غايب؟ أيوه الكل نسيوني وأنت كمان.

الدنيا كده

أغوار الكاتبة المنتحرة

سألني أحد النقاد: لماذا تكتب المرأة الأدب؟ فسألته بدوري: ولماذا يكتب الرجل الأدب؟ سكت طويلاً يفكر، فهو لم يتعوّد أن يُواجَه بسؤال جديد لم يسمعه من قبل.

تربى في أسرة حيث وجد أمه تطبخ وأبوه يكتب، فتصوّر أن هذا هو قانون الطبيعة أو القانون الإلهي: المرأة تطبخ للرجل طعامه والرجل يكتب للعالم أفكاره. لكنه التقى صدفةً في ندوة أدبية بامرأة كاتبة مبدعة بهرت العقول بأفكارها ورواياتها، ووقع في حبها كثير من النقاد، بعضهم متزوج من امرأة تطبخ في البيت، وبعضهم غير متزوج يبحث عن زوجة تطبخ.

تنافس النقاد عليها، يحاول كل منهم الاستيلاء عليها كل بطريقته. أحدهم نشر عنها مقالاً يمدحها فيه في جريدة مشهورة. ودعاها آخر إلى الغداء ولمّح إلى أنه يبحث عن شريكة لحياته. الثالث متزوج وله أولاد وأحفاد عرض عليها الزواج مباشرة دون إضاعة الوقت، فكان جوابها: كيف تعرض عليّ الزواج وأنت متزوج؟ اتهمها بالكفر وبالجهل بدينها الإسلام. قطعت علاقتها به فانتقم منها، وأصبح ينشر مقالات نقدية تهاجمها وتحط من شأن كتاباتها الأدبية، وكان يرأس مؤسسة ثقافية ذات نفوذ،

فحذف اسمها من سجلّ الكاتبات المبدعات، وصعدت في عالم الأدب نساء أقل منها موهبة، عرفن الطريق الصحيح إلى قلوب النقاد.

من هي الكاتبة التي لم تتعرض في حياتها لمثل هذه المشاكل؟

كيف تنجو الكاتبة بنفسها من براثن رجال يتربّصون بها كالقدر؟

أخطر ما يحدث للكاتبة هي أن تتزوج. فحتى لو كان زوجها هو قاسم أمين الذي ينادي بتحرير المرأة في كتبه وخطبه فهو سيتحوّل، عاجلاً أم آجلاً، إلى رجل يتوقع من زوجته أن تطبخ وهو يكتب. حين تقول له إنها كاتبة مثله ومن حقها أن تكتب، يبادرها بقوله: «أنت زوجة وعندك دور أهم تجاه أسرتك». فإن كانت كاتبة حقاً تضع الأدب فوق الطبيخ وتبادره بالسؤال: «ولماذا لا تطبخ أنت وأكتب أنا؟ أو على الأقل نشترك معاً في تحمّل المسؤوليات داخل البيت؟».

لكن الرجل المصري لم تدرّبه أمه على الطبيخ، ولم يرَ أباه يدخل المطبخ. لهذا يغضب الزوج من زوجته الكاتبة ويعتبرها شاذة، خاصة إذا كانت أكثر موهبة منه. يشعر نحوها بالغيرة أو النقص، ويحاول أن يشدها بالقوة إلى مستواه الأدبي الأقل. يحاول أن يثير غيرتها بالتعرّف إلى المراهقات، ويحاول أن يستنزف قوتها في أشياء لا علاقة لها بكتاباتها الإبداعية، ومنها غزواته النسائية. وحين تصرف الكاتبة نظرها عن كل هذه التفاهات يشتد غضبه منها، ويجعل حياتها سوداء مليئة بالمشاكل والشكوك والصراع اليومي.

عرفت كاتبات توقفن تماماً عن الكتابة من أجل الزواج أو خوفاً من الطلاق، وعشن طوال حياتهن في ندم وحزن على التضحية بأعز ما يملكن وهي الكتابة الإبداعية. وعرفت كاتبات اخترن الطلاق من أجل الاستمرار في الكتابة.

أغلبية صديقاتي من الكاتبات داخل الوطن وخارجه رفضن الزواج منذ البداية، ولم يقعن في شرك الحب كما تقع الغريرات. وإن مررن بتجارب عاطفية متعددة فهنّ

لم يقعن في شرك الزواج، وإن تزوجن فهنّ لا يضحين بالإبداع الأدبي من أجل الزوج أو الأسرة.

هل سمعنا عن كاتب مبدع ضحّى بالأدب من أجل زوجته أو أسرته أو من أجل الأبوة؟

مثل هذه الأسئلة ضروري حتى ندرك القيم المزدوجة التى نتربّى عليها، والتي تجعل كتابة الأدب في حياة المرأة مصدراً للشقاء والألم وليس الفرح وتحقيق الذات. كم كاتبة مبدعة انتهت حياتها بالانتحار، ليس في بلادنا فحسب بل في بلاد العالم كلها؟ هل تذكرون أروى صالح التي يحاول التاريخ الذكوري دفنها ودفن كتبها معها؟ هل تذكرون فرجينيا وولف التي تركت لزوجها ورقة وداع وسارت هائمة في الحقول حتى النهر. ملأت جيوبها بالحجارة وغطست في الماء حتى القاع؟

لماذا تنتحر الكاتبة المبدعة؟

لم ترد فيرجينيا وولف على هذا السؤال. كانت كتومة تخفي عن زوجها تعاستها الزوجية. وكان زوجها (ليونارد وولف) كاتباً مثلها لكنها كانت أكثر منه موهبة وشهرة. ولم يكن هذا الوضع بين الزوجين مقبولاً في الحياة الإنجليزية الأبوية الطبقية الأرستقراطية في بداية القرن الماضي، كما هو غير مقبول الآن في بلادنا.

كان الزوج يغلف غيرته بطبقة من ترفع النبلاء الفرسان، ويخفي قسوته بغلالة شفّافة من الحنان الزائف. لكن فرجينيا كانت لها عين الكاتبة وأذنها وحسها وحدسها، لذلك لم تنخدع بالأخلاق الأرستقراطية الإنجليزية. رأت أعماق زوجها النبيل بلون قاع بحر أسود، وحاولت أن تمسك بيدها حقيقته، لكنها كانت تنزلق من بين أصابعها انزلاق السمكة في البحر. لم تجد وسيلة لرفض الخداع إلا بالتخلّص من حياتها كلها.

أصدرت فيرجينيا وولف قبل موتها كتاباً كاملاً عن مشكلة الكتابة في حياة النساء. لم تناقش في كتابها أهم مسألتين: طبيعة المرأة الحقيقية وطبيعة كتابة الأدب الحقيقية، وهما مسألتان شائكتان تركتهما كما هما دون شرح أو إجابة. تناولت فقط مسألة واحدة صغيرة من وجهة نظرها الخاصة، وهي: إذا أرادت المرأة أن تكتب فيجب أن تكون لها غرفة خاصة بها وحدها، وأن يكون لها بعض المال لتعيش به.

هل يختلف أحد مع هذا الرأي؟ طبعاً من الضروري أن يكون للكاتب أو الكاتبة غرفة خاصة لها باب يمكن أن يُغلق فلا يدخل أحد. الكتابة الأدبية تحتاج إلى العزلة الكاملة والصمت الكامل، وتحتاج أيضاً إلى أن يجد الإنسان طعاماً يأكله إن جاع وسريراً ينام عليه إن تعب وغلبه النوم. تصوّروا حياة كاتبة يفتح زوجها الباب عليها وهي تكتب، ويتجسّس عليها؟ ماذا تكتب؟ خطاباً غرامياً لرجل آخر أو رواية سرية تكشف فيها عيوباً فيه لا يعرفها؟ تصوّروا كاتبة تنام في غرفة واحدة مع زوجها أو في سرير واحد؟ أي كارثة؟ وإن كان زوجها ملاكاً وليس رجلاً يقتحم نومها وأحلامها برغباته المحمومة أو شكوكه الموهومة.

كانت فرجينيا وولف شديدة الحذر في كتاباتها عن حياتها الخاصة، تحاول دائماً أن تخفي نفسها داخل شخصية أخرى من خيالها، كما تفعل أغلبية الكاتبات والكتاب من طبقتها الراقية في ذلك العهد. تراكم الغضب من الزيف والازدواجية في أعماقها، وأصابها بمرض الاكتئاب والحزن الدفين. كانت تضطر إلى الابتسام في وجه زوجها كل صباح في عذاب يومي على مدى سنين، تتقلّص عضلات وجهها لتكشر في غضب وكره فإذا بها تبتسم له في وداعة وحب. وزوجها الأرستقراطى الإنجليزي أيضاً بدوره يبادلها الأدب والرقة والرقي ويخفي النقيض تحت بشرة بيضاء مشدودة مشرّبة بالدم.

في كلمة الوداع له قبل أن تغرق نفسها في النهر كتبت له هذه الكلمات الغامضة

الكاشفة: «يا أعز إنسان. أوشكت على الجنون، ولن نستطيع أن نعاني كما عانينا في تلك الأيام السوداء. لا شفاء هذه المرة، ولن أستطيع المقاومة بعد اليوم. لا أستطيع الاستمرار، وأعرف أنك تستطيع العمل بدوني».

هل يمكن لأحد أن يكشف أغوار هذه الكلمات التي تبدو بريئة.

أحداث أوسلو والثورات الشعبية الجديدة

كنت في مدينة «أوسلو» في ٢٦ تموز/يوليو ٢٠١١ بعد المذبحة التي قام بها الشاب النرويجي (لا أرغب فى كتابة اسمه)، عضو الحزب اليميني النرويجي الذي ترأسه امرأة شديدة الأنوثة والماكياج والصوت الناعم.

الإيمان بالنازية الرأسمالية الأبوية ليس له علاقة بهرمونات في الجسد، مذكرةً أو مؤنثة، بل بالأفكار التي تدور في رأس الحزب السياسي الذي يحمل اسم الحزب التقدمي المسيحي، ويتستّر وراء المسيح والتقدم والمحبة ليزرع الكراهية والتخلّف والعنصرية والإرهاب في عقول أعضائه (ومنهم هذا القاتل). ويحقنهم من الصغر بأفكار تحض على كراهية المهاجرين من ذوي البشرة غير البيضاء، ومن ذوي الهويات والثقافات والعقائد غير النرويجية.

هذا التيار السياسي الديني النازي الذي أصبح ظاهرة في بلاد أوروبا وأمريكا وليس النرويج فقط، يضم رجالاً ونساءً وشباباً وأطفالاً تربوا في الأحزاب اليمينية الصاعدة على كره كل من يختلف عنهم، في الشكل أو اللون أو العقيدة أو الجنس أو الدين أو الجنسية أو غيرها.

رافقتني صديقتي النرويجية «ماريان» وهي بيضاء تجري في عروقها دماء نرويجية وأوروبية، لكن أفكارها تختلف عن هذا التيار النازي الصاعد، الداعي إلى

إبادة الشعوب الفقيرة في ما يسمونه العالم الثالث، بل إبادة الفقراء في أوروبا الشرقية النازحين إلى النرويج.

في أغنى شوارع أوسلو اللامعة بالنظافة والزهور والعطور رأيت امرأة بيضاء من رومانيا جالسةً على الرصيف تشحذ بضع كرونات من المارة. وتكررت الظاهرة في شوارع أوسلو بل في أكبر ميدان أمام البرلمان.

قالت ماريان: التيار النازي اليميني يكره هؤلاء المهاجرين من أوروبا الشرقية الذين يدخلون النرويج دون فيزا أو تأشيرة دخول. إنهم ضمن الاتحاد الأوروبي. هل لاحظت أن بعض المارة ينظرون إلى هؤلاء الشحاذين البيض البشرة شزراً، فكيف إذا كانوا من السود أو الصفر أو الحمر أو غيرهم. هؤلاء النازيون الجدد يناضلون ضد التعدّدية الثقافية وضد تعدّد الهويات والعقائد والأديان، ويناضلون لطرد كل المهاجرين من النرويج، ووضع قوانين جديدة تحرمهم من الحقوق القليلة التي يحظون بها في ظل الحكومة الحالية. ويتضامن الإعلام العالمي الرأسمالي الأوروبي الأمريكي مع هذه التيارات المحلية اليمينية الدينية، مسيحيةً أو يهوديةً أو إسلاميةً أو غيرها، لا فرق بين أشكال وأنواع التعصّب الديني اليميني.

إن أهدافهم واحدة متشابهة. يكرهون النساء المستقلات ذوات الكرامة والعزة، ويريدون إخضاع المرأة النرويجية لتعاليم الكنيسة في العصور الوسطى، ويريدون الرجوع إلى عصر الجواري والعبيد والسيطرة الأبوية المطلقة. أفكارهم لا تختلف عن أفكار التيارات اليمينية اليهودية في إسرائيل، أو السلفية الوهابية في بعض البلاد الإسلامية، أو أفكار بن لادن وتنظيم القاعدة. إنهم جماعات منظمة وليسوا أفراداً، يخطّطون لضربنا، ونحن التيارات الإنسانية، في النرويج وفي أوروبا وغيرها من بلاد العالم، نحن الداعين للمساواة والعدالة والحرية للجميع داخل النرويج وخارجه، ولا نريد أي تفرقة على أساس الجنس أو الطبقة أو الدين أو الجنسية أو اللون أو غيرها في أي بلد في الشرق أو الغرب.

ويزيف الإعلام الحقيقة حتى يغطي على هذه الجريمة الخطيرة، ويحاول تخفيف الجريمة أو التغطية على أسبابها الحقيقية الاقتصادية والسياسية الاجتماعية. يصوّرون الرجل القاتل كفردٍ مجنون أو مريض نفسي، متعصب لدينه المسيحي، ويكره المسلمين. كأن التعصب الديني هو السبب وليس التعصب الطبقي الأبوي، وكأن القاتل ليس نتاج التربية الحزبية اليمينية لأصحاب الأموال والأرباح غير المحدودة في السوق الرأسمالية. يحدث كل هذا الخداع الإعلامى لتحويل الصراع الاقتصادي في العالم إلى صراع ديني.

قلت لماريان:

هذه خطة عالمية محلية تحدث في كل البلاد بما فيها بلادنا العربية. انظري إلى المحاولات اللامتناهية لإجهاض ثورتنا المصرية وثورات الشعوب الأخرى. انظري كيف تتحول شعارات العدالة الاجتماعية والاقتصادية إلى شعارات دينية سلفية تصرف الأنظار عن الاستعمار الخارجي والاستبداد الداخلي إلى قشور الدين مثل حجاب المرأة أو بناء الجوامع والكنائس. لكن يا ماريان من الأقوى في النرويج اليوم؟ تياركم المتقدم الإنساني أم التيار النازي العنصري؟

قالت ماريان:

نحن الأقوى وسوف ننتصر عليهم. وعندكم في مصر من هو التيار الأقوى؟ التيار السلفي الديني أم التيار المتقدم الإنساني؟

قلت لها:

ملايين الشعب المصري التي صنعت الثورة ترفع شعار: «الحرية والكرامة والعدالة للجميع». لكن التيارات الدينية السلفية تحاول القفز على الثورة الشعبية، ورفع شعارات دينية تفرق بين المرأة والرجل، وبين المسلم والقبطي، وتؤيد الطبقية الأبوية والأرباح غير المحدودة في السوق. يحدث ذلك بدعم خفي من القوى

الداخلية الموالية للنظام السابق الساقط، والقوى الاستعمارية الخارجية بما فيها أمريكا وإسرائيل والاتحاد الأوروبي. هذه القوى تنفذ مبدأ «فَرّقْ تَسُدْ».

قالت ماريان:

الاتحاد الأوروبي يقف في الخفاء وراء التيارات النازية الصاعدة ضد وحدة الشعوب في أوروبا، بل إن القوى النرويجية الحاكمة هنا أصبحت تمول التيارات الدينية اليمينية، إسلامية ومسيحية ويهودية، ولا تريد تمويل الحركة النسائية في النرويج. تصوري الردة التي تحدث عندنا. لكن، وبرغم كل هذا، فالمستقبل لنا لأننا مع الإنسانية والعدالة والحرية.

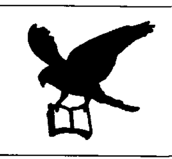
تربّت ماريان في بيت نرويجي يؤمن بالمساواة والحرية والكرامة لكل البشر بصرف النظر عن الاختلافات. أبوها وأمها من المناضلين ضد التفرقة بين المهاجرين والنرويجيين، وأسرتها وزوجها وأبناؤها وبناتها من المناضلين من أجل حقوق الشعب الفلسطيني والشعب العراقي وكل الشعوب المقهورة عسكرياً واقتصادياً.

رافقتني ماريان إلى حيث حدثت المجزرة البشرية. رأيت أعداداً كبيرة من الشعب النرويجي رجالاً ونساءً وأطفالاً يسيرون في صمت وحزن بالغ. يحملون الزهور، ويضعونها في كل مكان من النرويج. الميدان الكبير، أمام البرلمان في أوسلو، أصبح مغطّى بالزهور بكل الألوان. برغم الحزن تبدو الأزهار متفتحة زاهية الألوان والشمس ساطعة دافئة. تبدو الطبيعة جميلة متألقة برغم الحزن، ولعل الحزن يزيدها جمالاً. يشتد الحزن إلى جوار الفرح، كالأسود إلى جوار الأبيض. ويبتسم الأطفال، البنات والصبيان، لا فرق بين صبي أو بنت. يضحكون، ويتسابقون فى الجري فوق الخضار الممتد حتى الأفق.

بلاد جميلة، وشعب راقٍ لن ينهزم أمام البطش الطبقي الأبوي تحت اسم أي عقيدة أو دين أو غيرها من الكلمات البراقة على شاشة الإعلام المأجور لأصحاب

المليارات، مثل روبرت ميردوك، الأمبراطور البريطانى الإعلامي الفاسد الذي سقط مؤخراً، وسوف يعقبه سقوط الثقافة الرأسمالية الأبوية وإعلامها الكاذب في العالم كله.

∞ ∞ ∞



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سياسة

روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن
- زمن المحارب

عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟

محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لمصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ
- ومضات في رحاب الأمة
- قِطاف من التجارب

وليد رضوان

- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

جوزيف أبو خليل

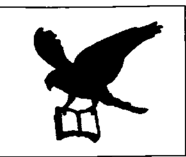
- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- أميركا في خطر

كريم بقرادوني

- لعنة وطن
- السلام المفقود
- صدمة وصمود



شكري نصرالله

- مذكرات قبل أوانها
- السنوات الطبية

شادي خليل أبو عيسى

- الولايات غير المتحدة اللبنانية
- رؤساء الجمهورية اللبنانية
- قيود تتمزق

مريم البسّام

- حقيقة ليكس
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل - (الجزء الأول)
- وثائق ويكيليكس الكاملة - لبنان وإسرائيل - (الجزء الثاني)

غادة عيد

- سوكلين وأخواتها
- . . .؟! أساس الملك
- الخلوي أكبر الصفقات

موريال ميراك - فايسباخ

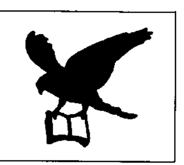
- عبر جدار النار
- مهووسون في السلطة

جيمي كارتر

- ما وراء البيت الأبيض
- السلام ممكن في الأراضي المقدسة

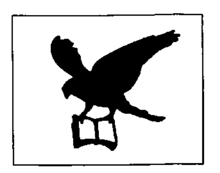
◆◆◆

- **تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح** - (جزآن) - عمر زين
- **مبادئ المعارضة اللبنانية** - حسين الحسيني
- **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- **الخلوي أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- **أسرار مكشوفة** - اسرائيل شاحاك
- **الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير برند هام
- **مزارع شبعا حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- **اللوبي** - إدوار تيفنن
- **أرض لا تهدأ** - د. معين حداد
- **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- **مساومات مع الشيطان** - ستيفن غرين
- **بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط** - ستيفن غرين
- **الأسد** - باتريك سيل
- **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- **طريق أوسلو** - محمود عباس
- **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- **النفط** - د. هاني حبيب
- **الصهيونية الشرق أوسطية** - إنعام رعد
- **حربا بريطانيا والعراق** - رغيد الصلح
- **نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- **الحصاد** - جون كوولي
- **عاصفة الصحراء** - اريك لوران
- **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- **حرب الخليج** - بيار سالينجر واريك لوران



□ **المفكرة المخفية لحرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
□ **الماسونية - دولة في الدولة** - هنري كوستون
□ **النفط والحرب والمدينة** - د. فيصل حميد
□ **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم** - د. عبد السلام المجالي
□ **الدولة الديموقراطية** - د. منذر الشاوي
□ **التحدي الإسلامي في الجزائر** - مايكل ويليس
□ **السكرتير السابع والأخير** - ميشيل هيلير
□ **التشكيلات الناصرية في لبنان** - شوكت اشتي
□ **عزيزي الرئيس بوش** - سيندي شيهان
□ **أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين** - إسلام كريموف
□ **أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية** - إسلام كريموف
□ **العرب والإسلام في أوزبكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
□ **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
□ **أبي لافرنتي بيريا** - سيرغو بيريا
□ **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
□ **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
□ **المال إن حكم** - هنري إده
□ **قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
□ **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
□ **الطبقة الضاربة** - دايفد روثكوبف
□ **إرث من الرماد** - تيم واينر
□ **بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم** - جيريمي سكاهيل
□ **حروب الأشباح** - ستيف كول
□ **الأيادي السود** - نجاح واكيم
□ **تعتيم** - بقلم آمي وديفيد جودمان

□ **دارفور تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
□ **بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم** - بيل كلينتون
□ **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨** - محمود عثمان
□ **تواطؤ ضد بابل** - جون كولي
□ **العلاقات اللبنانية - السورية** - د. غسان عيسى
□ **المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب** - بنازير بوتو
□ **قضيّة سامة** - يوست ر. هيلترمان
□ **لبنان بين ردَّة وريادة** - ألبير منصور
□ **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياش
□ **سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
□ **في قلب المملكة - حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
□ **هكذا.. وقع التوطين** - ناديا شريم الحاج
□ **إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.»** - تيم واينر
□ **لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
□ **أميركا من الداخل** - د. سمير التنير
□ **سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط** - جمال واكيم
□ **ضريبة الدم** - ت. كريستيان ميلر
□ **ابنة القدر** - بنازير بوتو
□ **الطبقة الخارقة** - دايڤيد ج. روثكوبف
□ **بوّابة الحقيقة** - عبد السلام المجالي
□ **الأُخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية** - علي وهب
□ **الصراع على السلطة في لبنان جدل الخاص والعام** - زهوة مجذوب
□ **أوباما.. والسّلام المستحيل** - سمير التنير
□ **الأحزاب السياسية في العراق** - عبد الرزاق مطلك الفهد



- **صيف من نار في لبنان** - الجنرال ألان بيلليغريني
- **غزّة في أزمة** - إيلان بابه ونعوم تشومسكي
- **صراع القوى الكبرى على سوريا** - جمال واكيم
- **محو العراق** - مايكل أوترمان وريتشارد هيل
- **مصر على شفير الهاوية** - طارق عثمان
- **وهم السلم الأهلي** - حسين يعقوب
- **حركات ثورية** - ستيف كراوشو وجون جاكسون
- **أمبراطورية الإرهاب** - اليهاندرو كاسترو اسبين
- **قصور من الرمل** - أندريه جيروليماتوس
- **الثورات العربية في ظل الدين ورأس المال** - راضي شحادة
- **نظرية الاحتواء** - إيان شابيرو
- **ويليس من تونس** - ناديا خياري
- **العودة إلى الصّفر** - ستيفن كينزر
- **ديبلوماسيّة إسرائيل السريّة في لبنان** - كيرستين شولتزه
- **مدن تحت الحصار** - ستيفن غراهام
- **نوال السعداوي والثورات العربية** - نوال السعداوي

نوال السعداوي التي تطرّقت إلى كل الموضوعات الساخنة والمحظورة والمثيرة للجدل على مدى ستّين عاماً والتي دفعت جهات كثيرة إلى ملاحقتها ومضايقتها واعتقالها، وحتى هدر دمها، هي نفسها تمعنُ في جرأتها من جديد..

تتحدث عن حلمها بالثورة منذ طفولتها، وعن مشاركتها الفعلية فيها، حين اندلعت.

تطرح آراءها في الربيع العربي الموعود وخريفه المنتظر...

تحاكم محاكمة حسني مبارك، شاهدة وقاضية..

تشرّح خطاب مرسي، وتغوص في الدستور الجديد.

تعود إلى المرأة، وتحدّد موقعها في ظلّ المتغيّرات، وتشدّد على نزع حجاب العقل عنها، وعلى ثورتها المزدوجة.

توسّع دائرة الضوء على التزوير في الانتخابات ومن وراءه..

تُطلق النار على أميركا اللاعب الأكبر والأخطر، وعلى دول النفط.

تستحضر أكثر ذكرياتها طرافة وحرجاً وإحراجاً يوم سُجنت ويوم ترشّحت للانتخابات الرئاسية في وجه مبارك.

تُصدر أحكامها على الديموقراطيات المصدّرة خصيصاً لدول الشرق..

«نوال السعداوي والثورات العربية» كتاب يلخص كل ما له علاقة بالثورة، ولا يقف مطلقاً عند حدود مصر.

ISBN 978-9953-88-766-1



شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٤ - ٩٦١١٣٥٠٧٤٤+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر